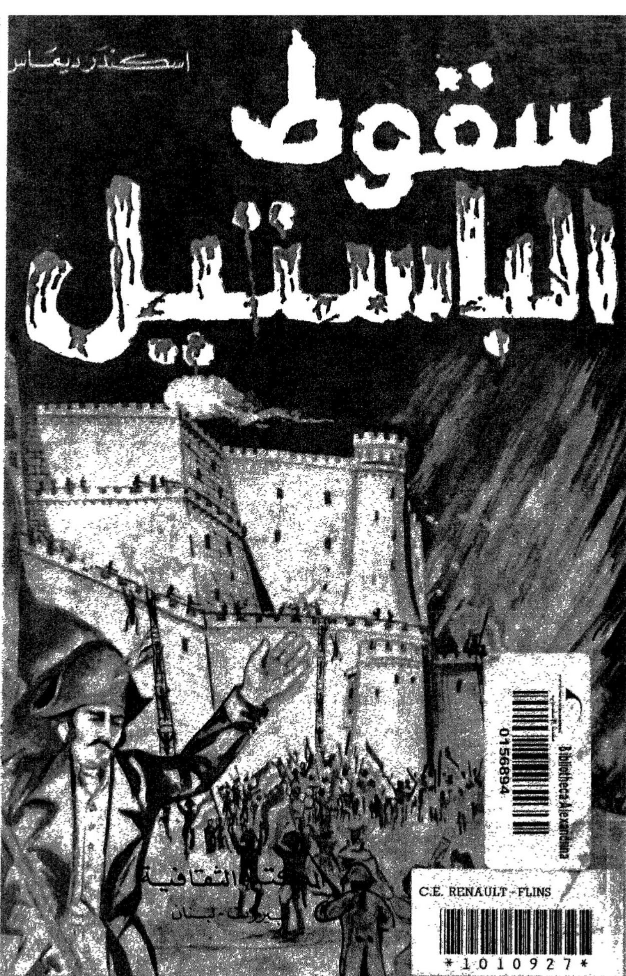


Bibliotheca Alexandrina
0156894
C.E. RENAULT - FLINS
1010927

الفصل الأول

الفـــرس

كان ابواه فقيرين من اهالي هارامونت من اعمال بيكاردي .

ولم ينعم بحنان الاب وعطفــه طويلا .. اذ سرعان ما فقدهما بفقده وهو لا يزال في سني طفولته الاولى ..

وكفلته امه . فافرغت عليه من حنانها وعطفها ما انساه حنــان ابيــه وعطفه . ولكن شاء القدر القاسي ان يحرمه منهما كذلك فاستأثر بامه ولما يكتمل بعد الربيع الثاني عشر من سنيه ..

وكأنما شعرت تلك الام الرؤوم بدنو الاجل ، فعملت قبل موتها على توفير اسباب الحياة لوحيدها من بعدها ، وبحثت عن شخص تستطيع ان تطمئن اليه في تربيته ونشأته .



عادت بذاكرتها الى عشر سنوات خلت .. ورأت بعين الخيــال ذلك

اسكندر ديماس

سقوط الباستيل

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

الشاب الذي طرق عليها الباب يوما .. وهو يحمل بين يديه طفلا حديث الولادة .

ووضع هذا الشاب الطفل بين يديها .. وعهد اليها بحضانته وتربيته لقاء مبلغ من المال كبير ..

وكرت سنون .. ونما الطفل وترعرع .. وهي لا تزال تحبوه بعنايتها وتتعهده برعايتها حتى جاء ذلك الشاب ، وقد بلغ مبلغ الرجال واصبح طبيبا ، واسترد وديعته .. والمرأة الطيبة اشد ما تكون حسرة لفراقه .. بعد اذ احست انه كان منها بمثابة فلذة كبدها .



ذكرت الام كل اولئك .. وذكرت على الاخص تلك الكلمات التي القاها اليها الدكتور جيلبر عند ما تهيأ للرحيل .. وبين يديه ابنه سباستيان. قال لها اذ ذاك :

« اذكري انني لن انسى صنيعك . وانني على استعداد دائما .. ان اجيب دعوتك متى شعرت انك بحاجة الى عضد او معين » .

وقد علمت المرأة بعد ذلك ان الطبيب انطلق بابنه الى مدرسة فيلير كوتيرت حيث عهد بتربيته الى الاب فورتيه .



وجدت الام في هذا الطبيب الشخص الذي تستطيع ان تأتمنه وتكل

اليه امر الغلام •• فعولت على الاتصال به • ولما كانت تجهل اسمه فقد كتبت اليه رسالة وضعتها في غلاف ارسلته الى الاب فورتيه ليكتب عليه عنوان الطبيب حيث يعرف مقامه •!

وصعدت روح المرأة الى بارئها قبل ان يصل الطبيب •

ووريت جثتها التراب بين بكاء ابنها الذي لم يكن يدري من امر تلك النكبة اكثر من انه لن يرى امه بعد الان •

ورفض (لويس انج بيتو) ان يبرح قبر امه • وجلس فوقه يبكيها احر بكاء •• ويناديها بصوت الطفولة البريئة الذي يفتت الاكباد ويفجر الصخر حنانا •

وظل الصبي على هذه الحال يوما وليلة ذاهلا عما حوله •• الى ان رأى مركبة فاخرة تقف بباب المقابر ويهبط منا رجل متوسط العمر •

واقبل القادم على الصبي وقد شاع العطف والاشفاق في ثنايا وجهه ، وربت على كتفه في حنان جعله يطمئن اليه ويكف عن البكاء •

★ ★ ★

واصطحب الدكتور جيلبر الصبي معه الى منزل عمته •• وهي فتاة عانس تقدمت بها السن تقدما يعزف عنه طلاب الزواج •

وكانت تلك العمة رقيقة الحال تعيش من المساعدات اليسيرة التي تصلها من بعض المحسنين ذوي اليسار •

ولكنها كانت احرص على جمع المال من الاتفاق منه على نفسها ولبثت

تودع ما يصل اليها مسند مقعدها بطريقة خفية خشية ان تمتد اليه ايـدي اللصوص •

★ ★ ★

اخذ الدكتور جيلبر الصبي اذن الى عمته الانسة روزا انجليك بيتو في مدينة فيلير كوتيرث •

واستقبلت الفتاة ابن اخيها في شيء من الفتور •• ولما فاتحها الطبيب في امر الصبي ، برمت به وعبرت عن شدة اسفها لانها لا تستطيع الانفـاق على مثل هذا الصبي الكبير •

بيد انها عادت فعدلت عن رأيها ، حـين سمعت رنين المال في جيـب الطبيب ••

★ ★ ★

ورحل الدكتور جيلبر الى امريكا بعد ان تعهـدت له انجليك بـان ترسل الصبي الى احد المصانع ليتعلم حرفة تعينه على الحياة •

ولكنه كان احرص على مستقبل الصبي •• من ان يترك للفتاة العانس حرية التصرف في امره ، فاخذ عليها صكا •• وسجل الصك عند مسجـل المدينة ••

★ ★ ★

وكان بيتو قد قضى سني طفولته كاكثر ما يقضي الاطفال الذين فـي

سنه .. فكان يرتاد الغاب ويصيد الطيور والحيوانات الصغيرة . متوسلا الى ذلك بشتى الطرق كان ينصب شركا خاصا لطائر ما . ثم يقلد صوت الطائر في اتقان . فاذا اقبلت الطيور على ندائه وهي تعتقد انه نداء اخواتها سقطت في الشرك الذي نصبه لها الصبي .

★ ★ ★

وحدث ان خرج انج من منزل عمته في ساعة مبكرة من صباح احـد استقبلته عمته بعاصفة من السباب والضرب .

كان يتوقع ذلك ، فاسرع يقدم اليها الصيد ، فعجبت للامر وسألته :

ــ من اين اتيت بهذه العصافير ايها الشيطان الصغير ؟

فاجاب انج في هدوء :

ــ من اين ؟ لقد اصطدتها من الغاب .

ــ اصطدتها من الغاب ؟ وكيف ذلك ؟

ــ ان الامر بسيط يا عمتي ، فقد نصبت لها شركا ، وقلدت اصواتهـا فاقبلت وعندئذ سقطت في الشرك .

وصمت وهو يرمق عمته بنظرة خوف ليرى مبلغ الاثر الذي تركتـه كلماته في نفسها .

فلما لم تعاود تأنيبه ، اقترح عليها ان تعطيه بضعة بنسات كـي يبتاع قطعا من السلك ، لينصب فخاخا يصيد بها الجرذان البيضاء .

ورأت انجليك من عمل ابن اخيها ما يدر عليها الربح . فنقدتـه مـا طلب ..

★ ★ ★

وهكذا مرت الايام والصبي دائب على الصيد .. وانجليك تستولي على ما يأتيها به من طيور وجرذان . تأكل بعضها وتبيع البعض الاخر لتدخر ثمنه في مسند مقعدها ..

وانقضت سنتان على تلك الحال ، حين ارسل الدكتور جيلبر خطابـا الى المسجل يسأله فيه ان يتولى الاشراف على تنفيذ اتفاقه مع عمه انج .. والقاء مسئولية الاهمال في تنفيذ اوامره على كاهله .

وخشى المسجل تحمل هذه المسئولية فشدد على انجليك في تنفيذ مـا امرها به الدكتور جيلبر .. فاسقط في يد العانس الشحيحة .. كانت تعلم انها ان فعلت ذلك فستفقد موردا مستديما للحصول على المال ..

بيد انها استطاعت التوفيق بين خسارتها المؤقتة ، ومطامعها المستقبلة. اذ امكنها ان تقنع المسجل بافضلية ارسال الصبي الى مدرسة الاب فورتيه ليتعلم الفلسفة والدين . حتى يصبح قسا في يوم من الايام ..

وكانت ترمي من وراء ذلك الى الحصول على وظيفة مدبرة منزل انج عندما يصبح كاهنا .. وهو يصبح كاهنا .. وهو حلم كانت تسعى الـى تحقيقه وتعده مثلا اعلى ..

★ ★ ★

ولما كان الاب فورتيه رجلا عطوفا فقد الحق الصبي بمدرسته مجانـا .. اذ كان يعتقد ان انجليـك فقيرة لاقبـل لها على تحمل اعباء التعليـم ونفقاته .

★ ★ ★

التحق انج بيتو اذن بمدرسة الاب فورتيه ، ولكنه لم يكد يمضي بضعة ايام بين زملائه حتى شعر بسخريتهم منه واستهزائهم به .. شأنه في ذلـك شأن الصبية الصغار وهم في اول عهدهم بالحياة المدرسية .

ولكن ذلك لم يرق في عين انج . فلم يلبث ان تحرش بستة مـن الد خصومه وتربص لهم وهم عائدون الى منازلهم في احد الايام ..

ونشبت بينه وبين ثلاثة منهم معركة حامية .. انجلت عن تورم عـين احد مقاتليـه ، وانبثاق الدم مـن انف اخر ، وكسر عدة اسنان من فـم الثالث .

اما الباقون فقد آثروا الفرار خوفا من بطش الصبي العنيد ..

★ ★ ★

وقضى انج ثلاثة ايام لا يبارح المدرسة عقابا له على التنكيل بزملائـه .. وسرت انجليك لحبس الصبي ، اذ كفاها مئونة اطعامه ومضايقاته ..

بيد ان ذلك العقاب القاسي ترك اثره في نفس الغلام .. فتعلم ان لا يقدم على عمل شيء قبل التفكير في عواقبه .



وكان انج يمر بمزرعة الاب بيلو ــ وهو مزارع نشيط محبوب من الجميع ــ كلما ذهب الى المدرسة او آب منها ..

وكانت لهذا الفلاح ابنة تدعى كاترين جميلة كالزهرة اليانعة ، نقية كالماء الرقراق . ولطالما رآها الغلام كلما مر بدارهم ، ونظر اليها باعجاب ، حتى تطورت نظراته المتبادلة بينه وبينها الى ايماءة بالرأس ثم الى ابتسامة .. واخيرا الى سلام ..

★ ★ ★

وحدث ان اظهر الغلام اهمالا في دروسه استفز مدرسه ، فراح يؤنبه ويرهقه بالعقاب ، ولكن ذلك لم يصلح من شأن انج ، فهو كان يكره الانشاء بقدر حبه للمنطق ..

ومر عامان والمدرس لا يدخر وسعا في تشجيع تلميذه وحثه على الاستذكار .. والصبي من جانبه دائب على القراءة والمران ولكن دون جدوى ..

ولا عجب فقد كان انج بيتو يؤثر رعاية حشراته وطيوره التي تملأ « درجه » في الفصل على كتابة موضوع انشائي .

واخيرا ضاق الاب فورتيه ذرعا ببلادة تلميذه فطرده من المدرسة .

وحمل الصبي الحقيبة الكبيرة التي كان يستعملها كقمطر ثم رجع الى منزله في خطى متثاقلة وبقلب مثقل بالاحزان .

★ ★ ★

كان يعلم انه لن ينجو من لسان انجليك السليط ، ويدها الرفيعة التي تشبه السوط .

الفصل الثاني

الهـــرب

واستقبلت انجليك الصبي في شيء من الدهشة والاستياء •• فقد كانت تعتقد انه لن يأتي ظهر هذا اليوم بعد اذ تأخر عن موعده اكثر من ساعة •

وحاول الصبي ان يستدر عطفها عليه • فلم يجد خيرا من ادعاء المرض فحسبت العانس انه يعتذر عن تأخره ويبغي تناول الطعام • وهو امر خطير ولا شك بعد ان التهمت هي كل الطعام ، واستبقت جزءا لعشائها •

بيد انها زادت دهشة حين قال بيتو :

ــ كلا بحق السماء •• انني لست جوعانا يا عمتي ••

سألت : حسنا •• ماذا دهاك اذن ؟ هيا تكلم ••

والغريب انها نطقت بتلك الكلمات في لهجة رقيقة لم يألفها منها الصبي•

صاح : اواه يا عمتي •• لقد حلت بي مصيبة مؤلمة •

ــ وما هي هذه المصيبة ؟

فاجاب انج في تلعثم : لقد طردني الاب فورتيه من المدرسة •

صرخت انجليك صرخة حادة •• وتجهم وجهها ، فقد كان طرد الفتى من المدرسة طامة كبرى بالنسبة اليها • لانه ينذر بتحطيم القصور الشاهقة التي بنتها في خيالها من احتراف الفتى الدين ••

صاحت · انك تكذب ولا شك ؟

وشعر انج باضطراب شديد • اذ ادرك ان العاصفة على وشك الهبوب وان المكنسة في انتظاره •

ولكنه تشجع •• وقال :

ــ كلا يا عمتي •• انها الحقيقة ما ذكرت •

ــ الحقيقة ؟! اية حقيقة تلك ايها الشيطان ؟! اتحسبني من الحماقة بحيث اغفل عن سبب بلادتك ؟ انها تلك الفتاة اللعينة كاترين • الا سحقا لها • واقسم ان اذهب الى ابيها لاضع حدا لعبثها ومكرها بك •

فاسرع انج يقاطع عمته قائلا :

ــ انك مخطئة يا عمتي • واقسم لك ان الانسة بيلو لا شأن لها فيما حل بي • وكل ما في الامر ان الاب فورتيه طردني من المدرسة لانني لا استطيع ان اكتب موضوعا انشائيا متقنا •

ــ اذن فانت لن تصبح كاهنا • وبالتالي انا لن اصبح مدبرة لمنزلك ؟!

واستولت عليها ثورة جائحة من الغضب ، فانطلقت من الدار وهي تصيح قائلة :

ــ سأذهب لمقابلة ابيها لاضع حدا لتلك المهزلة •

تأوه انج ، وراح يتبع عمته بعينيه الحزينتين ، فرآها تنطلق بسرعة عظيمة لم يكن ليعهدها فيها •

وما اختفت عن ناظريه ، حتى اسرع الغلام الى بقايا طعام عمته، والقى بها الى حشراته وطيوره . فاقبلت تلتهمها في نهم .

اما هو فعمد الى خزانة الطعام حيث اخذ رغيفا ، طلاه بطبقة من الزبد، وبدأ يأكله في لذة .

وخشى ان تعود عمته وتضبطه متلبسا بجريمته ، فوقف عند الباب يرقب الطريق .

وفجأة .. وقع بصره على فتاة جميلة تعبر الممر الضيق الموصل الى شارع لورمييه في محفة صغيرة . وقد وضعت فوق ظهر الجواد سلتين احداهما مملوءة بالدجاج والآخر بالحمام .

ولم تكن تلك الفتاة سوى كاترين صديقته . ولما رأته واقفا بالباب جذبت عنان الجواد فأوقفته .

صعد الدم الى وجه انج ، ووقف ينظر اليها وعيناه لا تتحولان عن وجهها الساحر الجذاب .. وهو يعتقد انها زينة فتيات الدنيا جميعا .

تلفتت الفتاة حولها .. ثم حيت أنج .. فرد التحية في خجل .. وعندئذ واصلت سيرها الى منزلها .

وفيما كان الفتى يشيع حبيبته قبل ان تختفي عن عينيه .. اذ برزت انجليك من الناحية الاخرى للطريق فجأة .

ولما رأته يحمل الرغيف في يده ، افلتت من شفتيها صرخة تدل على الكمد والذعر .. اما هو فقد لبث لحظة مشدوها . وهو يرتجف من شدة الخوف .

ورفعت انجليك يدها الرفيعة ثم هوت بها فوق رأسه .. وتحولت الى الداخل تبحث عن المكنسة .. فلم يرِ الغلام مفرا من القاء الرغيف فوق الارض .. واطلاق ساقيه للريح .

ادرك انج انه لم يعد ثمة فائدة من البقاء مع عمته ، فعول على عدم العودة الى منزلها مهما كانت الظروف .

اما انجليك فقد بلغ بها الحنق مبلغه ، فاغلقت بابها بالمفتاح .

الفصل الثالث

المزارع الفيلسوف

ظل بيتو يعدو بكل قواه خشية ان تلحق به عمته • ولا يسلم من مكنستها • حتى اصبح خارج المدينة •

ولم يكد ينعطف الى طريق الدير حتى اوشك على الاصطدام بجواد كان مقبلا من الناحية الاخرى •

وسمع صوتا عذبا يقول :

ــ يالله ! لماذا تعدو بهذه السرعة يا مسيو انج ؟

هتف الفتى وهو يلتقط انفاسه :

ــ آنسة كاترين •• يالله ! اي حظ عاثر هذا ؟

بدت على الفتاة سيماء الدهشة •• وسألت :

ــ ماذا دهاك يا مسيو انج ؟

فتنهد انج •• وقال في صوت هامس •

ـ لن اصبح كاهنا بعد الان .. كما انني لن اجد مأوى الجأ اليه بعد ان طردتني عمتي .

ضحكت كاترين وقالت :

ـ لن تصبح كاهنا ؟ وماذ في ذلك ؟ في استطاعتك ان تصبح جنديا ..

اما عن طرد عمتك لك ، فهو امر يؤسف له حقا .. بيد انني ارى ان تكتب الى الدكتور جيلبر تشرح له حقيقة الحال .

هلم معي الى ابي ، وسله عن عنوان الطبيب .

وسار « انج » بجانب المحفة . مطرق الرأس خجلا . اما كاترين فقد لزمت الصمت .. وراحت تختلس النظر الى الغلام الفينة بعد الفينة ..

وفجأة وقف الجواد .. فأدرك (بيتو) انهما وصلا الى المزرعة ..

ورفع رأسه الى اعلا .. فرأى الاب بيلو مقبلا نحوهما . وهو يصيح:

ـ هذا انت يا انج ؟.

كان المتكلم متين البنيان ، عريض المنكبين ، تدل تقاطيع وجهه على صدق الطوية ودماثة الخلق .

وتنبه بيتو من افكاره حين سمع تلك الكلمات .. واجاب :

ـ نعم يا سيدي .. انني بيتو ..

وقالت الفتاة وهي تقفو من فوق المحفة :

ـ لقد تنكرت له عمته فطردته من منزلها يا ابي .

وسأل الفلاح :

ـ وماذا فعل حتى اغضب تلك العانس الشحيحة .؟

فاجاب أنج :

ـ لقد اغضبها انني لم ابرهن على كفاءتي في تعلم اللاتينية ، مما جعل الاب فورتيه يطردني من مدرسته ،

فابتسم مسيو بيتو .. وقال :

ـ هراء وسخف .. اذ ما فائدة العلم اذا لم يعن الانسان على كسب قوته ..؟ انني لا اعرف اللاتينية ، ولا الفرنسية ، فهل قعد بي ذلك عن العمل في حقل وملء مخازني بالغلال ..؟

فقال الغلام في سذاجة :

ـ هذا صحيح يا سيدي .. ولكنك مزارع ولست كاهنا ..

ـ اذن فانت تعتقد ان المزارع لا يتساوى وصاحب القبعة السوداء ؟

ـ لطالما قيل لي ان الوصول الى مرتبة الكهنوت هو المثل الاعلى في الحياة ..!

فتنهد بيلو ضاحكا وقال :

ـ مرحى .. مرحى .. انك شاب ذكي .. ويلوح لي انك تصلح لكل عمل الا اعمال الكهنوت .. فلتحمد ربك على ذلك ، وحسبك ان تعلم ان الجو قد تلبد بالغيوم وان العاصفة توشك على الهبوب .. لتدرك ان الوقت لم يعد يصلح لبقاء هؤلا الحمقى الادعياء ،

انك فتى امين .. ومتعلم ..

فاحنى بيتو قامته للرجل ، وهو يشعر بفرح غامر ، فقد كانت هذه اول مرة يسمع فيها انه متعلم ..

واستطرد الفلاح :

ـ وعلى ذلك ففي استطاعتك ان تكسب قوتك دون تعلم اللاتينية ،

وكانت كاترين تصغي الى حديثهما وهي ترفع السلتين عن ظهر الجواد .. فسمعت بيتو يقول :

ـ استطيع كسب قوتي ؟! يبدو ان الامر شاق يا سيدي ! فانا لم افعل شيئا في حياتي سوى نصب الشراك للطيور والحشرات .. وتقليداصواتها .. ودراسة اللاتينية والاغريقية .

فبدا التفكير على وجه مسيو بيلو .. بينما قهقهت كاترين ضاحكة ، فقد سرتها سذاجة انج .. وصراحته .

وصاح بيلو وهو يرفع قبضته في الهواء مهددا :

ـ تبا لاولئك الكهنة الاوغاد ! انهم يحشون عقول ابنائنا بخزعبلات لا فائدة منها .

والتفت الى ابنته .. وسأل :

ـ اخبريني .. ما فائدة هذا الغلام العظيم لاخوانه ؟

فهتف بيتو :

ـ الواقع انني لا اصلح لشيء . ولعل من حسن الحظ الا اخوة لي ..

فاجابه بيلو :

ـ لست اعنى بالاخوان من تربطك بهم صلة الرحم .. وانما اعني بني الانسان جميعا فهم اخوة في الانسانية .

ـ آه .. فذلك ما يقول به الانجيل حقا .

واستطرد المزارع قائلا : وهم جميعا متساوون .

فقال بيتو :

ـ هذه مسألة فيها نظر . فلو انني كنت متساويا مع مسيو فورتيه لما نالني من لكماته ولطماته ما جعلني اقضي الساعات وانا ذاهل متألم .. ولو اني كنت متساويا مع عمتي لما امكنها ان تطردني خارج المنزل .

فصاح الفلاح في حدة :

ـ لقد قلت لك ان الجميع متساوون .. ولن يمضي طويل زمن حتى نبرهن للطغاة على صدق زعمنا .. ولسوف ابرهن لك على ذلــك الان بايوائك في منزلي .

فهتف بيتو في دهشة :

ـ تأويني في منزلك ؟! لا بد انك تهزأ بي يا مسيو بيلو .

ـ كلا .. انني لا اهزأ بك وساقدم اليك من طعام العائلة كما لــو كنت فردا من افرادها .

فعقلت الدهشة لسان الصبي . وتحولت اليه كاترين . وقالت :

ـ ألم يعد لديك ما تريد الاستفسار عنه من ابي يا مسيو بيتو ؟

ـ أنــا ! كلا ..

ـ اذن ما الذي دفعك للحضور الى هنا ؟

ـ ذلك لانك كنت قادمة . فرافقتك ..

فرمقته بنظرة ساحرة وقالت :

ـ شكرا لك على هذا الشعور الطيب .. ولكني اعود فاقول انــك جئت لتسأل ابي عن اخبار الدكتور جيلبر ..

ــ هذا صحيح •• فمعذرة ، لانني نسيت كل شيء عن ذلك ••

وقال الفلاح في لهجة تكشف عما يعتمل في نفسه من تقدير لسيده :

ــ هل تتكلمان عن مسيو جيلبر ؟ اذن اعلما انه رجع الى الوطن ، فقد بلغني انه كان في الهافر منذ اسبوع • ووصلني منه طرد صغير ورسالة •

فسألت كاترين : ومن اين علمت انهما منه وانت لا تعرف القراءة يــا ابــي ؟

ــ لقد قرأ لي رئيس الجندرمة الرسالة يا بنيتي ••

واخرج من جيب معطفه : مظروفا قدمه لكاترين ••

واسرعت الفتاة تفض الرسالة ، وقرأت محتوياتها بصوت مرتفع :

« عزيزي مسيو بيلو •• لقد عدت من امريكا حيث الناس يعيشون متكاتفين •• متساوين •• وهذا ناشيء عن تمتعهم بالحرية التي لا تتمتع بها في بلادنا ، بيد انني اعتقد اننا نتقدم نحو عصر جديد • وعلى كــل فرد ان يعمل بهمة كي يساهم في التعجيل بظهور الفجر الجديد • انني اعرف مبادئك يا مسيو بيلو واعرف مبلغ تأثيرك على اخوانك المزارعين وعلــى جميع من يأتمرون بامرك من العمــال والصناع •• فانشر تلــك المبادىء السامية بينهم ، فقد اضحت الفلسفــة متاعا عاما للجميع ، واصبح مـــن الضروري ان يعرف كل واجبه مسترشدا بنور جديد ••

« هأنذا ارسل اليك كتيبا صغيرا كتبتــه بنفسي ، ولكنني آثرت الا يذكر اسمي في اولى صفحاته •• فاعمــل على نشر ما يحويه من مبــادىء انسانية •• واقرأ محتوياته على رفاقك اثناء ليالي الشتاء الطويلة •• فان القراءة غذاء الروح ، كما ان الطعام غذاء الجسد ••

« وليس ببعيد ذلك اليوم الذي سأوافيك فيه ، كي اطلعك على طريقة

جديدة في توزيع العمل الزراعي • وهي طريقة شائعة في امريكا ••وملخصها تقسيم المحصول بين صاحب الارض وزارعها ••

« اكبر ظني ان تلك الطريقة تنسجم مع قوانين المجتمع الاول •• وهي — الى جانب ذلك — مما يرضي الله •

« اخوك في الانسانية اوردنيه جيلبر — مواطن من فيلادلفيا »

هتف بيتو : يا لها من رسالة !

وصاحت كاترين :

— لقد اخطأت يا ابي حين عهدت الى رئيس الجندرمة بقراءة هـذه الرسالة • واكبر ظني انك ستتسبب في جلب المتاعب على الدكتور وعـلى نفسك ••

ضحك بيلو •• وقال :

— دعي عنك هذا الخوف يا بنيتي ، فمن كان يسعى الى خير المجموع لا تضيره المتاعب التي يلاقيها في سبيل نصرة رأيه •

هاك الكتاب يا بيتو فليس اجدر منك على قراءته للباقين • اما عملك فينحصر في رعي الاغنام والابقار ••

مد بيتو يده ، واخذ الكتاب •• وما ان فتح اولى صفحاته حتى قرأ فيها ما يلي :

« فصل في استقلال بني الانسان ، وحرية الشعوب » •

سأل بيلو :

— ما رأيك في ذلك يا ولدي ؟•

ــ ان الاستقلال والحرية مرادفان يؤديان معنى واحدا ••

وهتفت كاترين :

ــ اتوسل اليك ان تخفي هذا الكتيب الخطر يا ابت ، ولست ارى الا انه سيوقعك في مشاكل لاقبل لك على التغلب عليها ، فان الرسالة لم تصل اليك الا اليوم مع ان تاريخها يرجع الى ثمانية ايام مضت •• اعني ان غيرك قد اطلع عليه ••

ــ ومن ذا الذي اطلع عليه •؟

ــ لست ادري •• فقد وصلتني رسالة من سباستيان جيلبر منذ اسبوع ، وفيها يقول ان اباه ارسل اليك رسالة في ذات الوقت ••

وعلى فكرة فقد طلب الى سباستيان ان ابلغك تحياته يا مسيو أنج ولكنني نسيت ذلك ، فأرجو المعذرة ••

ولم يأبه مسيو بيلو بتحذير كاترين •• وقال :

ــ لا تتدخلي فيما لا يعنيك يا ابنتي •• وهيا خذي مسيو بيتو الى امك كي تقدم له الطعام فما اخاله الا جوعانا ••

الفصل الرابع

الاجتمـــاع

استقبلت مدام بيلو انج في ترحيب ، واولتــه من عنايتها ورعايتهــا الشيء الكثير •

وكم كان فرح الصبي ودهشته عظيمين حين الفى المائدة حافلة بكثير من انواع اللحوم والخضروات • الامر الذي لم يألفه من قبل في منزل عمته انجليك •

فاقبل على الطعام يلتهمه في شراهة • حتى اذا فرغ منه تحول الــى كاترين وسألها عــن الموعد الــذي يتعــين عليه الاستيقاظ فيــه للخروج بالاغنام •

ولشد ما دهش حين انبأته بانه لم يعد ثمة ما يدعوه الى الاستيقــاظ المبكر بعد اذ افلحت في اقناع ابيها بان يعهد اليه بالقيام بعملها فــي رصد دخل وخراج المزرعة •

وختمت حديثها قائلة :

ـ والواقع انني سررت ايما سرور حين وافق ابي على فكرتي لان ذلك سيمكنني من صنع قبعة لنفسي تزيد في جمال وجهي عند ارتدائها •

صاح بيتو :

ـ ولكنني واثق انك فاتنة دون ارتداء القبعات •

ـ هذا محتمل •• ولكنني لا اعتقد ان الجميع يؤمنون مثلك بذلك كما انني لا استطيع الذهاب الى المرقص في فيلير كوتريت يوم الاحد دون ان اضع قبعة فوق رأسي • لان ذلك لا يليق الا بابناء الاشراف اللائي يطلين شعورهن بطبقة خاصة من الاصباغ •

ـ هل تذهبين الى المرقص ؟

ـ نعم •• آيام الآحاد •• الست ملما بالرقص يا بيتو ؟

فاطرق بيتو برأسه الى الارض •• واجاب :

ـ ملما بالرقص ! كلا يا سيدتي • فلم يسعدني الحظ بتعلمه بعد •

ـ اذن فستأتي معي الى المرقص يوم الاحد ، وتراقب مسيو دي شارني وهو يراقصني • انه ابرع راقص في هذه البقاع •

سأل بيتو : ومن يكون مسيو دي شارني هذا ؟

ـ انه صاحب قصر دي بورسون •• وهو شاب نبيل تفخر جميع فتيات المقاطعة بمراقصته •

غاص قلب بيتو بين جنبيه وسأل في مرارة :

ـ اذن فهذا هو سبب لهفتك في صنع القبعة ؟!

لزمت كاترين الصمت • وتجاهلت سؤال انج • فشعر الصبي بخيبة الامل •

وكادت الدموع ان تطفر من عينيه • ولكنه تجلد وحبسها •

قالت الفتاة :

ـ لقد اوشكت الساعة على التاسعة ، فيجب ان نأوى الى مخادعنا •

طاب مساؤك يا مسيو بيتو •

ـ طاب مساؤك يا آنسة كاترين •

★ ★ ★

قضى انج ليلة قلقة مضطربة ، لم يزر النوم جفنيه الا غرارا •• فلما اصبح الصباح نهض من فراشه ممتقع الوجه خائر القوى •

★ ★ ★

ودخل احد الخدم الغرفة وهو يحمل بين يديه ملابس جديدة فاخرة وضعها فوق احد المقاعد •• ثم غادر الغرفة في سكون •

تلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي بيتو ، فقد ادرك ان هذه هي الملابس التي اوصى الاب بيلو ابنته على شرائها من اكبر حوانيت المدينة كي يرتديها انج يوم الاحد عندما يقرأ رسالة الدكتور جيلبر على الفلاحين ••

وبقلب مثقل بالاحزان بدأ الشاب يرتدي ملابسه ، حتى اذا كاد يفرغ من ذلك طرق الباب ودخل (حلاق القرية) •

عجب انج في نفسه • فلم يسبق له ان تمتع بهذه النعم التي يغدقها عليه مسيو بيلو الطيب القلب •• ولكنه استسلم (للحلاق) يصلح من هيئته ومنظره •



وهبط بيتو اخيرا الى المطبخ ، وقد غدا شابا اخر جذاب التقاطيع انيق الهندام • وهتفت كاترين وهي تستقبله في دهشة :

ــ انظري يا اماه • كيف اصبح منظر بيتو الآن •

فاجابت مدام بيلو :

ــ يالله ! ان الانسان لا يستطيع معرفة مسيو بيتو الان الا بصعوبة •

وبدأت كاترين تدور حول الشاب وهي تصعده بنظراتها في اهتمام واعجاب •• واخيرا هتفت :

ــ يا الهي •• ان لك يدين فريدتين يا عزيزي بيتو •

فقال بيتو : نعم •• الواقع ان يدي غريبتان في حجمهما حقا •

ــ وفخذاك ! انهما غليظتان •

ــ وفي هذا دلالة على انني قابل للنمو السريع •• فانا لم اعدو السابعة عشرة والنصف من عمري •

ــ ولكنك تبدو رشيقا على كل حال •

فاحنى بيتو قامته للفتاة • وجلس الى المائدة ليتناول الطعام في صمت•

★ ★ ★

وفي هذه اللحظة دخل الاب بيلو الغرفة ولم يكد يرى الشاب في هيئته الجديدة حتى صاح في دهشة وهو ينظر اليه في اعجاب :

ــ مرحى ! مرحى ! كم انت جميل يا فتى •• وددت لو رأتك عمتك انجليك الان • لاعرف ماذا كانت تقول ••

فاجاب انج :

ـ لست اشك في انها كانت تقع فريسة لنوبة من الغضب •

وسألت كاترين :

ـ اخبرني يا ابت •• اليس لعمته الحق في استرجاعه منا ثانية ؟

ـ كلا يا بنيتي •• ألم تطرده من منزلها ؟

وقال بيتو :

ـ كما ان انقضاء الخمس سنوات التي حددها لها الدكتـور جيلبرت دون ان تدفع بي الى احد المصانع سيثيره عليها •• فهي بدلا من ان تعمل على تنفيذ اوامره استولت هي على الالف جنيه وارسلتني الى مـدرسة الاب فورتيه لاتعلم الدين •

فمد مسيو بيلو يده ، وصافح الشاب في حرارة •• ثم صاح :

ـ تعجبني صراحتك يا فتى •• انك رجل بمعنى الكلمة •

وارى من واجبي ان انبهك الى امر قد ينفعك في مستقبلك • ذلك انه حين تموت الانسة انجليك سارع بالذهاب الى منزلها وابحث بدقـة عن المكان الذي تخبىء فيه ثروتها الكبيرة ••

والان • هيا بنا فقد حان موعـد قراءة رسالة الدكتور جيلبر عـلى الاخوان ••

هتفت كاترين :

ـ هل امعنت الفكر فيما انت مقدم عليه يا ابي ؟

اجاب بيلو :

ـ ليس هناك ما يدعو الانسان الى التفكير ، حين يقدم على عمـل

يعتقد انه خير ٠ وما دام الدكتور جيلبر قد طلب الى قراءة الكتـــاب على المزارعين ونشر ما يتضمنه من مبادىء سامية بينهم ، فسأفعل ذلك مهمـــا كانت الظروف ٠

وسألت الفتاة في خوف :

ــ وهل تسمح لي ولامي بالذهاب الى الكنيسة ؟

ــ نعم يا بنيتي ٠٠ فانتما غيرنا نحـــن الرجال ٠ ولدينا من الامـــور الاخرى ما يشغل تفكيرنا ٠

هيا يا بيتو فان القوم في انتظارنا ٠

فاحنى بيتو قامته للمرأتين ، ثم انطلق في اثر بيلو ٠

الفصل الخامس

قبض وهروب

وفي حظيرة المواشي رأى بيتو عددا كبيرا من المزارعين في انتظارهما والواقع ان بيلو كان محبوبا ومحترما من المزارعين والعمال ، فهو لم يكن يدخر وسعا في ارضائهم والعمل على راحتهم . ولذلك فقد سارع الجميع لتلبية دعوته .

★ ★ ★

واشار بيلو الى انج . كي يرتقي المنبر ويبدأ القراءة .. فصعد الشاب الدرج في خطى متزنة .. ثم واجه الجالسين في هدوء .. وبدأ يقرأ رسالة الدكتور جيلبر في صوت هادىء عميق ..

وبالرغم من ان اكثر الحاضرين لم يفقهوا اغلب ما جاء بالرسالة وما تضمنته من معان سامية انسانية ، الا انهم كانوا يقاطعون القارىءبالتصفيق والهتافات الحماسية .

وما ان وصل انج الى ذكر المبادىء التي ركز الدكتور عليها كتابه وهي : « حرية ، اخاء ، مساواة » حتى هبت عاصفة قوية من التصفيق . وردد المجتمعون هتافاتهم العالية في صوت له دوي الرعد :

« يحيا الدكتور جيلبر •• يحيا نصير الانسانية والفقراء » !•

وكان انج قد قرأ ثلث الرسالة •• حين اعلن بيلو انتهاء الاجتماع على ان يستأنف في يوم الاحد القادم لتلاوة البقية •

وغادر بيتو الحظيرة وهو يشعر بكثير من الخيلاء والزهو ، فقد كان له نصيب من هتافات المزارعين والعمال •!

واما بيلو فانه شعر بالاعجاب الشديد لتلميـذ الاب فورتيه ، واسرع الى المنزل ليزف الى زوجته وابنتـه كاترين مـدى النجاح الذي احرزه الاجتماع •

وقابلت الزوجة النبأ في كثير من الصمت المقرون بالتحفظ • اما كاترين فقد ابتسمت ابتسامة حزينة •• وقالت :

ـ أبي !• اكبر ظني انك ستقع في متاعب جمة •

فتجهم وجه بيلو •• وصاح :

ـ الا تكفي عن سخفك يا فتاة ؟•

ـ لقد طلب الي ان احذرك فان هناك عيونا ترصد حركاتك الان •

ـ ومن ذا الذي طلب اليك تحذيري يا بنية ؟ ـ صديق

ـ صديق ؟ ومن يكون هذا الصديق حتى اشكره على نصحه الغالي ؟

ـ انه رجل عليم بامثال هذه الامور يا ابي •• مسيو ايزيـدور دي شارني ••

ـ وما شأن هذا الخليع بمثل تلك الامـور ؟ ايريد ان يسدى الـي نصيحة في امر يجهله تماما ؟!

ــ ان مسيو دي شارني لا يقصد من نصحه الا خيرك يا ابي ٠

ــ حسنا ٠٠ وانا بدوري سأسديه النصح ٠٠ اخبريه نيابــة عني ان يحذر هو ورفاقه لانفسهم ٠٠ ودعيه كذلك ينذر اخاه مسيو اوليفرشارني بان يحذر لنفسه لانهم يقولون ان الملكة ناقمة عليه ٠٠

اسقط في يد الفتاة ٠٠ وقالت :

ــ يبدو انك اكثر حنكة مما نعتقد يا ابتاه ٠ فتصرف كما يحلو لك ٠

وغمغم بيتو :

ــ هذا صحيح ٠٠ فما شأن مسيو ايزيدوردي شارني بهذه الامور ٠٠؟

فتجاهلت كاترين كلمات الشاب ٠٠ وجلس الجميع الى المائدة وراحوا يتناولون طعامهم في صمت ٠٠

فاذا كان العصر ، اصطحبت كاترين انج الى المرقص ٠

وكانت الفتاة تبدو فاتنة في قبعتها الجديدة ٠ حتى لقد شعر الفتــى وهو يسير الى جانبها بالخيلاء ٠٠ والفخار ٠

ولما كان المرقص لا يفتح ابوابه الا في الساعة السادسة ٠ فقــد قادت كاترين رفيقها الى قاعة « الغرام والتنهدات » ٠

وهناك رأى بيتو عددا كبيرا من العشاق والمتيمين ، وهم يتطارحون الغرام بعيدا عن عيون الرقباء ٠

وود انج ان يقضي المدة الباقية على فتح ابواب المرقص في تلك القاعة الساحرة ٠ غير ان كاترين قادته الى الخارج في رفق ، وذهبت به الى ملعب التنس ٠ حيث كانت تجري مباراة شيقة بين فريقين من اشهر فرق المقاطعة٠

★ ★ ★

شعر بيتو بكثير من الزهو الممزوج بالفخار ، حين سمع الحاضرين وهم يشيرون اليه قائلين : « **انظروا هاكم بيتو الصغير** » !

وكانت الانسة انجليك موجودة بين المتفرجين . فلما سمعت الجميع يشيرون اليه ويتهامسون .. التفتت صوبه ، ولم تلبث ان اشاحت عنه بوجهها .. وهي تقول :

ــ كلا .. انكم مخطئون ، فهذا ليس ابن اخي ..

★ ★ ★

ووصل انج ورفيقته الى ملعب التنس ، واخذا مكانيهما بين المجتمعين وراحا يشاهدان المباراة في هدوء .

ولم يمض وقت طويل حتى صاح حكم المباراة :

ــ لقد حان وقت الاستراحة .

كف اللاعبون عن اللعب .. بينما تقدم احدهم ــ وكان جميل الطلعة، تبدو على وجهه سيماء النبل ــ من كاترين ، وحياها بايماءة من رأسه ، وانحناءة خفيفة من قامته .

وردت الفتاة التحية ، وشعر بيتو بذراعها تختلج في ذراعه .

قال انج :

ــ اكبر الظن ان هذا الشاب هو مسيو دي شارني .

فتخضبت وجنتا الفتاة بحمرة الخجل . واجابت :

ــ أجل .. ولكن كيف عرفت ذلك ؟

ــ انني تكهنت بالامر ليس الا .

وبدأت المباراة ثانية ، فاظهر مسيو دي شارني من المقدرة في اللعب ما اثار اعجاب المشاهدين •

واما بيتو فكان يقارن بين يدي وقدمي الفيكونت الرقيقة وبين يديه وقدميه الغليظتين •

استولى عليه الحزن والاسى • ولم يغب ذلك عن رفيقته ••

فسألت :

ـ ماذا دهاك يا مسيو بيتو ؟

لم يجب أنج • وماذا عساه ان يقول وقد طافت برأسه خواطر تدعو الى الرثاء والاشفاق •

واعلن الحكم انتهاء المباراة في تلك اللحظة • واشتد تصفيق النظارة اعجابا بالفريق الغالب •

واقبل الفيكونت دي شارني صوب كاترين • وحياها في رفق ، ثم تبادل معها الحديث لحظة •• طلب اليها خلاله ان تمنحه الرقصة الاولى فوافقت دون تردد •

ولاحظ انج كيف شاع السرور في وجه الفتاة عندما طلب اليها الفيكونت ان تخصه بالرقصة الاولى •• فشعر بالالم يحز في قلبه حزا ولكنه غالب شعوره وكبح جماح غضبه •• ثم مد يده فاستند على سياج الملعب كيلا تخذله قواه •

★ ★ ★

واقبل خادم الفيكونت يحمل اليه معطفه •• ومن ثم تحرك الجميع نحو المرقص • وبدأت الموسيقى تعزف • فاختلط الفيكونت وكاترين بالراقصين وبدآ يدوران في الحلبة في خفة وسرعة •

شعر انج بقلبه يغوص بين جنبيه ، وحاول ان يكتم ما عراه • فتجلد وجعل يتابع الراقصين بنظر شارد وقلب يمزقه الحزن والغيرة •

وانتهت الرقصة الاولى •• فعادت كاترين الى بيتو •• ولما وقع بصرها على وجهه الشاحب • سألته في لهفة :

ـ يالله •• ماذا عراك يا عزيزي بيتو •؟

اجاب الشاب المسكين :

ـ لا شيء • لا شيء •• انما يخيل الي انني لن استطيع تعلم الرقص بعد ما رأيت من خفة حركات الفيكونت ••

ـ لا تكن سريع اليأس هكذا يا عزيزي ، فحاول ، وانا واثقة انك ستتقنه سريعا ، وعندئذ اراقصك بكل سرور •

فتنهد الشاب وقال :

ـ لا تحاولي تعزيتي يا سيدتي •• فلست اشك في انك تشعرين بمنتهى الغبطة في مراقصة هذا الشاب النبيل !

لم تجب كاترين ، ولكنها ادركت ان شيئا جديدا قد طرأ على قلب « انج » فرثت لحاله ، وودت لو انها استطاعت ان تخفف من حزنه وابعاد الكآبة عنه ••

وبدأت الموسيقى تعزف مرة اخرى ، فاقبل الفيكونت يطلب الى الفتاة مراقصته •

ووقف انج يرقبهما وقد اظلمت الدنيا في عينيه ، ولم يستطع مغالبة الضعف والالم ، فسقطت من عينه دمعة تدحرجت على وجنته •

وراح ينظر الى الراقصين في حنق • وهو يؤول كل حركة من حركات ايديهما ، وكل كلمة تخرج من فميهما تأويلا يتناسب مع غيرته وحنقه ••

فاذا ما توقفت الموسيقى عن العزف •• عادت كاترين الى انج وطلبت اليه العودة الى المزرعة ، فزاد ذلك في ألم الشاب ، اذ ادرك ان الفتاة لم ترد البقاء بعد اذ انتهت من رقصها مع الفيكونت ••

كانت لطمة قاسية ، ولكن انج تحملها بشجاعة ، وغادر المرقص برفقة الفتاة في وجوم •

حاول الكلام ، ولكن الكلمات انحبست في حلقه ، وراع الفتاةسكونه وامتقاع وجهه ، فسألت :

ـ يبدو ان هناك امرا يهمك يا عزيزي بيتو ، والا فلم هذا الوجوم وهذا الصمت ؟•

اجاب في هدوء :

ـ ما لزمت الصمت الا لاعتقادي انني لن استطيع مجاراة الفيكونت في حديثه اليك : وماذا عساني اقول لك بعد كل هذا الحديث الطويل الذي تبادلتماه ابان الرقص ؟

ـ يا لك من ظالم يا عزيزي انج •• لقد كنا نتحدث عنك ••

ـ عني •؟ وكيف ذلك •؟

ـ لقد خيل الي ان ابحث لك عن نصير خشية الا يعود الدكتور جيلبر •

سأل في جزع : اذن فلم اعد اصلح لرصد دخل وخراج المزرعة •؟

ـ على العكس يا عزيزي •• ان حسابات المزرعة ليست بالعمل الذي يليق برجل متعلم مثلك • فانت في استطاعتك الحصول على عمل محترم يناسب ثقافتك •

ـ ربما كان الامر كذلك ، ولو اني لا اعرف اي الاعمال افضل لي . ولكني لن اقبل عملا يأتيني عن طريق الفيكونت دي شارني .

ـ كيف ذلك ؟ أترفض حماية الفيكونت . واخوه ممن يتمتعون بعطف البلاط . بعد ان تزوج احدى صديقات الملكة ؟ ان الفيكونت على استعداد لان يلحقك بخدمة الجمارك لو انك وافقت على ذلك .

ـ شكرا لك يا سيدتي .. ولكنني راض عن حياتي الراهنة . اللهم الا اذا كان ابوك قد اثقل عليه وجودي في مزرعته .

وسمع الاثنان صوتا اجش يقول من ورائهما :

ـ ولماذا بحق الشيطان يثقل علي وجودك ؟

ارتجفت كاترين .. وهمست في اذن الشاب :

ـ اتوسل اليك الا تتكلم عن مسيو ايزيدور مطلقا ..

سأل مسيو بيلو : حسنا .! لماذا لم تجب ؟

فقال بيتو في تلعثم :

ـ الحق .. الحق انني لا ادري .. من المحتمل انك لا تراني كفءا للقيام باعباء العمل الذي عهدت به الي .!

ـ يا للشيطان .! ومن قال ذلك يا بني ؟ انني اعتبرك من أكفأ الرجال لهذا العمل . واذا كان الله قدر لك الدخول الى منزلي ، فان انسانا لن يستطيع اخراجك منه الا بمشيئته .

★ ★ ★

وعاد بيتو مع الفتاة الى المزرعة بعد هذا التأكيد من جانب مسيو

بيلو • وهو يشعر بان تغييرا كبيرا قد طرأ عليه ، ولكنه كان يجهل مـــدى هذا التغيير •

والواقع ان انج فقد ثقته بنفسه • تلك الثقة التي اذا فقدها الانسان استحالت عليه استعادتها •

★ ★ ★

وللمرة الاولى في حياته • قضى بيتو ليلته ساهرا ارقا • وكان لا يفتأ يتذكر كتاب الدكتور جيلبر ، وكيف انـــه كتب خصيصا ضد الاشراف ، وضد المساوىء التي يرتكبها افراد طبقة الامتيازات •

وشعر برغبة ملحة في اعادة تلاوته واستظهار المبادىء الساميـــة التـــي تضمنها •

★ ★ ★

ونهض انج من فراشه في ساعة متأخرة مـــن صباح اليـــوم التالي •• وارتدى ملابسه على عجل ثم غادر المنزل في هدوء •

وتهالك الشاب فوق مقعد حجري تحت نافذة غرفة كاترين •• واخرج كتاب الدكتور جيلبر من جيبه ، وبدأ يقرأ صفحاته •

وكان لا يفتأ يرفع عينيه عن الكتاب ، ويرسل بصره الى النافذة لعـــل عينيه تكتحلان بمرأى وجه كاترين الفاتن •

كان مضطربا • مشرد الحواس •• وبالرغم من رغبته في تركيز انتباهه فيما يقرأ ، الا انه لم يكن ليستطيع مغالبة الخواطر التي كانت تطوف برأسه عن علاقة كاترين بالفيكونت •

وفيما هو كذلك ، اذ رأى خيال شخص يقترب من خلفه ، كانت اشعة الشمس القوية تعكس شبحه فترمي بظله امامه وهو يدنو .

ادار رأسه وهو يرجو ان يرى وجه كاترين الصبوح .. ولشد ما كانت دهشته حين القى نفسه وجها لوجه امام شخص ذي سحنة كئيبة .

كان القادم طويل القامة ، نحيفها . يرتدي معطفا اسود . تتراوح سنه بين الخامسة والاربعين والخمسين .

كان يبتسم في خبث .. وقد كشفت شفتاه عن فم خرب الا من اربع اسنان تشبه انياب الحيوانات الضارية ..

قال القادم في صوت اجوف وهو يشير باصبعه الى الكتاب في يد انج :

ــ هذه طبعة امريكية بغير شك .. لان الشعب الامريكي هو الذي يعرف معنى « حرية الانسان واستقلال الشعوب » .

ففغر بيتو فاه دهشة . واجاب :

ــ نعم يا سيدي .. فان الكتاب مطبوع في بوستن سنة ١٧٨٨ فقال صاحب المعطف الاسود :

ــ اكبر ظني ان تلك هي رسالة الدكتور جيلبر ؟

واجاب الشاب . وهو ينهض واقفا على قدميه احتراما للرجل :

ــ نعم يا سيدي ..

وارسل نظرة خاطفة الى نافذة غرفة كاترين فرآها تنظر اليه وهي تشير بيدها اشارات غريبة .

وقال الغريب .

ـ ارجو الا تعتبر سؤالي تطفلا •• ولكن من يكون صاحب هـذا الكتاب ؟

اوشك بيتو على القول بان الكتاب ملك لمسيو بيلـو ، ولكنه رأى كاترين في هذه اللحظة تشير اليه اشارة فهم منها انها تريده على ان يدعي ملكيته •

فاجاب في صوت عميق : انه كتابي يا سيدي ••

وكأنما ارتاب الرجل في قول الشاب ، اذ لاحظ انه كثيرا ما يتحـول يبصره الى ناحية المنزل، فارتد على عقبيه وتلفت حوله، ولكن كاترين كانت تتوقع ذلك فاختفت عن النافذة في الحال •

سأل : لماذا تنظر هناك يا سيدي •؟

ابتسم أنج •• واجاب :

ـ ارجو المعذرة ، ولكن يبدو انك بدأت تتدخل فيما لا يعنيك يـا سيدي •؟

وتجاهل صاحب المعطف الاسود تلك الملاحظة •• سأل :

ـ اذن فانت تعترف بان هذا الكتاب ملك لك •؟

وللمرة الثانية ، ارسل بيتو بصره الى النافذة فرأى كاترين تشير اليه برأسها بالايجاب ••

قال : نعم يا سيدي ، ومن المحتمل انك تريد قراءته •

فقال الاخر :

ـ يخيل الي ان مركزك الاجتماعي اعلا مما توحي به هيئتك ، عـلى العموم ، انني اقبض عليك ••

صاح بيتو في دهشة : تقبض علي ٠! ولماذا ٠؟

ــ ستعلم فيما بعد ٠٠ اما الان فارجو ان تتبعني دون مقاومة ، والا ٠٠

بدا الذعر على وجه الشاب ، وراح يتلفت حوله ، فرأى اثنين من رجال الجندرمة يقفان على مقربة منهما ٠٠

والتفت صاحب المعطف الاسود الى رفيقيه ٠٠ وقال :

ــ هيا شدا وثاقه ، ريثما ننتهي من الباقين ٠٠

وقبل ان يستعيد انج حواسه من تلك المفاجأة ، تقدم الجنديان واوثقا يديه بحبل غليظ ، ثم شدا قدميه الى حلقة حديدية في الجدار ٠

وبعد ان اطمأن مهاجموه الى وثاقه ، تركاه ودلفا الى الدار ٠

وسمع انج صوتا رقيقا يقول :

ــ ارفع يديك الى اعلا ٠٠

فرفع انج يديه ورأسه الى اعلا ، ورأى وجه كاترين وقد بدت عليه دلائل الذعر والفزع ٠

كانت تحمل مدية في يدها ٠٠

وفي لمح البصر ، قطعت الفتاة الحبل ، وقدمت المدية الى الشاب وهي تقول :

ــ مزق باقي قيودك ٠٠

وما هي الا لحظات حتى عاد الشاب حرا طليقا ٠

وقالت كاترين :

ـ هاك لويسين •• فخذهما وأهر بالى باريس واسأل عــن الدكتور جيلبر ••

ولم تستطع اتمام عبارتها ، فقد خرج الجنديان من داخل الدار ، في الوقت الذي سقط فيه اللويسان عند قدمي أنج •

واسرع الشاب بالتقاطهما •• وهو لا يكاد يتماسك من شدة الخوف •• بينما وقف الجنديان يرمقانه بنظرة تنطوي على الدهشة الشديدة •

وكان بيتو اسرع الجميع في ادراك الخطر المحدق به ، فقفز الى ربوة عالية ثم اطلق ساقيه للريح نحو الغاب •

وحينئذ افاق الجنديان من جمودهما ، وافلتت منهمــا صيحة دهشة اقبل عليها رئيسهما يهرول من داخل المنزل وهو يحمل صندوقا صغيرا تحت ابطــه •

ولما ادرك صاحــب المعطف الاسود هرب الاسير ، صاح في رجــاله يأمرهما بتعقبه ••

بيد ان الجنديين كانا اثقل حركة من بيتو فلم يتمكنا من تسلق الربوة، واضطرا الى اتخاذ طريق اخرى ، وبذلك افسحا الوقت للهارب كي يصل الى الغاب ويختفي داخله •

★ ★ ★

وبعد ربع ساعة توقف انج في عدوه •• واصاخ السمع • ولكنــه لم يسمع شيئا • ووجد السكون يخيم على المكان حوله •

ادرك انه ضلل مطارديه واصبح في مأمن • فوقف قليلا ريثما يلتقط انفاسه ••

غمغم قائلا :

ـ يا لله ! لقد كانت الايام الثلاثة الاخيرة حافلة بالحوادث •

وانطلق في طريقه حتى وصل الى الطريق العام المؤدي الى باريس •

الفصل السادس

الصندوق

في صباح ذلك اليوم كان احد رجال بوليس باريس قد وصل الى فيلير كوتريث مع اثنين من رجال الجندرمة •• وقدموا انفسهم لأمور المدينة •• ثم طلبوا اليه ان يدلهم على حقل المزارع بيلو ••

ولما اصبحوا على مسافة خمسمائة ياردة من المزرعة ، التقوا باحد الفلاحين وكان يعمل في الحقل ••

وذهب رئيس الجماعة الى المزارع وسأله عن مسيو بيلو • فاشار الفلاح الى سيده وكان يمتطي صهوة جواده في ذلك الوقت ••

فقال رئيس الجماعة :

ــ اذن اذهب وقل له ان صديقا له من باريس ينتظره في المزرعة ••

صاح الفلاح الساذج : لا بد انك تقصد الدكتور جيلبر يا سيدي •

ــ قل له ما طلبت اليك •• واما الباقي فلا شأن لك به •

هرول الفلاح نحو سيده •• بينما اسرعت الجماعة بالسير نحو المزرعة •• ثم اختبأوا وراء احد الجدران المتهدمة ••

وما هي الا لحظات حتى اقبل مسيو بيلو على عجل ، وترجل عن صهوة جواده •• واندفع الى المطبخ وهو يعتقد ان زائره هو الدكتور جيلبر ••

بيد انه رأى زوجته جالسة وحدها وهي منهمكة في اعداد بطةمذبوحة•

ووجد كاترين مشغولة في حياكة قبعة جديدة ، كانت تبغي ارتداءهـا يوم الاحد القادم ••

راح مسيو بيلو يجيل بصره في الغرفة •• ثم سأل :

ـ اذن من الذي ارسل يستدعيني ؟

فاجابه صوت اجوف من الخلف قائلا :

ـ انا الذي ارسلت في طلبك يا سيدي •

دار بيلو على عقبيه فالقى نفسه وجها لوجه امام صاحب الرداء الاسود وجندييه ••

صاح وهو يتراجع الى الوراء : وماذا تريدون مني •؟

فقال رئيسهم :

ـ معذرة يا سيدي •• فاننا انما قدمنا لتفتيش المزرعة •

ـ تفتيش المزرعة !؟ ولماذا ؟

والقى بيلو ببصره الى بندقية معلقة فوق المدفأة • وقال :

ـ لقد كنت احسب اننا امنا هذه المضايقات بعد الجمعية الوطنيةولكن ماذا تريدون مني الآن • وانا رجل امين مخلص للمليكي ؟

فقلب رئيس الجماعة شفته ، ثم اشار الى رفيقيه . فاقتربا من بيلو .

وكان الفلاح قد ادرك مرمى القادمين . فقفز الى بندقيته يحاول اطلاق النار على رجال البوليس .. بيد ان احدهما استطاع القبض على ذراعه وارغامه على ترك البندقية .

واقبلت كاترين مهرولة على ضجيج العراك .. وكان قدومها سببا في احجام ابيها عن ارتكاب جريمة قتل .

وخفت حدة مسيو بيلو عند رؤية ابنته . فلم يقاوم مهاجميه .. وعندئذ امر رئيس الجندرمة رجاله بسجن الفلاح في احدى غرف الطابق الارضي ، وسجن الفتاة في الطابق الاول .

عند ذلك بدأ يفتش الدواليب والصناديق الكثيرة المنتشرة في المنزل .

اما بيلو فقد القى نفسه سجينا في غرفة صغيرة ، قد سدت نوافذها بقضبان غليظة من الحديد .. فعاوده غضبه وهياجه .. واسرع الى نقب المفتاح يطل منه . فرأى ذلك الغريب وهو يعبث بمحتويات المنزل .

صاح : ما معنى هذا يا سيدي ؟ وماذا تفعل ؟

فأجاب ممثل البوليس :

ـ اظنك ترى بوضوح ما افعل يا عزيزي بيلو .. اننا نبحث عن شيء لم نعثر عليه بعد .

ـ وكيف ذلك ؟ اتحمل معك امرا بالتفتيش ؟

ـ نعم يا سيدي .. وهاك الامر الصادر الي من جلالة الملك بتفتيش المنزل .

وتقدم صاحب المعطف الاسود من الباب • وفتحه قليلا • ثم قدم الى مسيو بيلو امر التفتيش •

والقى الفلاح نظرة سريعة على الامر • وحار في شأن قراءته لانه كان اميا •• ولكنه رأى على كل حال انه لم يعد هناك ما يدعوه للمقاومة •

ومضت دقائق قلائل دون ان يعثر المهاجمون على بغيتهم ، وكانت نوبة الغضب قد عاودت بيلو ، فانقض على الباب يهز في عنف حتى كاد يحطمه ••

واسرع رجال الجندرمة بفتح الباب ، فقابلهم بيلو بنظرات كلها تهديد ووعيد •• وصاح :

ـــ عم تبحثون في منزلي •؟ تكلموا والا ارغمتكم على الكلام •؟

فتقدم ذو المعطف الاسود من بيلو وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة ، وقال: سأخبرك عما تبحث • ولو ان ذلك مخالف لما لدينا من تعليمات ، اننا نبحث عن كتاب يحوي مبادىء مناهضة للملكية ••

ـــ كتاب •!؟ وهل تعتقدون ان فلاحا لا يعرف القراءة يستبقي كتبا في منزله •؟

ـــ وماذا في ذلك ، وانت صديق المؤلف •؟

ـــ انني لست صديق الدكتور جيلبر ، وانما خادمه المخلص ••

فشع الاطمئنان في عيني رئيس البوليس ، وسقط بيلو في الفخ الذي نصبه له • واعترف بانه صديق الدكتور جيلبر ، وان الكتاب في حوزته دون ان يدري ••

وقـــال بيلو :

ــ اذا كنت تبحث عن ذلك الكتاب فاعلم انه ليس في حوزتي •

فقال ذو المعطف الاسود ، وهو يشير الى مساعديه بالكف عن البحث:

ــ اذن اخبرني اين هو ، وعندئذ اعفيك من تفتيش المنزل •

ــ ولكن من ادراني انك لا تمتلك نسخا كثيرة من هذا الكتاب ؟

ــ اقسم انني لا امتلك غير نسخة واحدة •!

ــ معذرة •• ولكننا نريد التأكد ، ولن يضيرك ان تمهلنا بضع دقائق اخرى ، فان القانون هو القانون ••

وقاد رئيس البوليس مسيو بيلو من ذراعه في رفق حتى اعاده الـى الغرفة واغلق الباب بالمفتاح ، ثم استأنف البحث •

وما هي الا لحظات حتى عثر على صندوق من خشب البلوط • فحمله في لهفة • ووضعه في جيب ردائه الداخلي •

واشار الى اعوانه ان يكفوا عن البحث • وامرهم بان يعيدوا كل شيء الى مكانه • ثم اسرع بفتح باب الغرفة •

وسأل : اما وقد تأكدنا انك لا تملك غير نسخة واحدة • فارجـو ان تخبرنا اين يمكننا ان نعثر عليها •

تردد الفلاح • فقد كان يعرف ان الكتاب موجود مع بيتو • ولكنـه ادرك ان من العبث مقاومة القانون • فقال :

ــ عدني بألا تؤذي حامله • لانه لا يعرف شيئا عن محتوياته •

ــ أعدك بذلك •

وهكذا بعث بيلو رجال الجندرمة في اثر انج المسكين .

وانطلق رجال البوليس الى الخارج حيث باغتوا بيتو وهو جالس تحت نافذة كاترين يقرأ في الكتيب .

★ ★ ★

وكان رجال الجندرمة قد تعقبوا انج داخل الغاب .

فلما اصبحوا على حدودها من الناحية الاخرى . برز جنديان اخران من بين الاشجار .

وقال صاحب الرداء الاسود :

ـ يا لله ! انه لمن حسن الحظ ان الصندوق لم يكن في حوزة ذلك الشاب الشجاع والا لما استطعنا الحصول عليه .

وقال احد اعوانه :

ـ اذن فقد عثرت على الصندوق يا مسيو ولفسفوث ؟

ـ نعم يا صديقي .. وهو معي .

ـ واذن .. استحققنا المكافأة التي وعدنا بها ؟

فمد ولفسفوث يده في جيبه واخرج اربعة لويسات ذهبية .. قدمها لاعوانه .

وقال : دعونا نسرع بالرحيل قبل ان يكتشف بيلو ضياع الصندوق . فيبعث رجاله في اثرنا .

وما هي الا دقائق حتى كانوا في الطريق الى باريس .



اما بيلو فقد وقف مشدوها • يرمق أثاث المنزل المبعثر في غضب •• واقبلت كاترين وامها في تلك اللحظة • ولما وقع بصر الام على الفوضى التي احدثها الغريب في دولابها •• ملكها الغيظ والحنق •• وصاح بيلو :

ــ يا الهي ! هل فتشوا هذا الدولاب •؟

ثم اندفع نحوه • وراح يبحث عن الصندوق وقد استولى عليه الجنون وسرعان ما ارتد عن الدولاب • وقد انتفخت اوداجه من الغضب ••

وهتف : يا للاوغاد •• لقد سرقوا صندوق الدكتور جيلبر •

وسألته كاترين :

ــ وماذا يحويه هذا الصندوق حتى يزعجك ضياعه الى هذا الحد يا ابي •

فصاح بيلو في غضب :

ــ يا لي من سيء الحظ ! ماذا يقول الدكتور الآن ؟

واعادت كاترين سؤالها عن محتويات الصندوق •• فهز ابوها رأسه • وقال :

ــ لا ادري •• ولكنه اوصاني بان احرص عليه كل الحرص ••وامرني بان اسارع بمقابلته على الفور اذا فقد مني •

علي بجوادي •• علي بجوادي •

وانطلق من الغرفة • وهو يصيح كالمجنون ••

وما هي الا دقائق حتى كان ينهب الارض بجواده في طريقه الى باريس•

الفصل السابع

الطريق الى باريس

ظل انج يعدو ما يقرب من النصف ساعة .. يدفعه الى الاسراع عاملان قويان .. الخوف ــ والحب .

كان يطلب النجاة مهما كان ثمنها .. وان ظل يجهل ان اعوان مسيــو ولفسفوت لم يعودوا يهتمون بالقبض عليه بعد اذ ظفروا باجرهم المتفــق عليــه .



ولما وصل بيتو الى جوندرفيل توقف قليلا وهو ينظر حوله في حــذر .. ثم راح يسائل نفسه :

« ترى ما الذي قدر لي . انا الذي قضيت عمري خاملا ؟ وكيف امكن ان تحفل ثلاثة ايام من عمري بمثل هذه الحوادث الغريبة ؟ لا شك ان للحلم الذي رأيته في نومي عن تلك الهرة التي ارادت ان تثب فوق وجهي اكبر الاثر في ذلك » !



وفيما كانت هذه الخواطر تطوف برأسه • اذ بلغ مسامعه وقع حوافر جواد يعدو صوبه • فاستولى عليه الذعر • وادرك انه هالك لا محالة • لا سيما وان قدميه اصبحتا لا تقويان على حمله بعد طول المسافة التي طواها عـدوا •

تلفت حوله • ولكنـه لم ير شيئـا • فظن ان اذنيه قـد خدعتاه •• خدعتاه •• واستأنف سيره في خطى واسعة سريعة •

وعاد الى تأملاته وخواطره • وتساءل :

« ترى •• من يكون الرجال الذين اوثقوا يديه واستفسروا عن علاقته بالدكتور جيلبر •• وما الذي يدفعهم الى مطاردته وهو الشخص الذي لم تسبق له معرفتهم او رؤيتهم ؟ ولماذا طلبت اليه كاترين الذهاب الى باريس واعطته لذلك لويسين • وهو مبلغ يكفيه للعيش شهرين ؟ أكانت تتوقع ان تطول غيبته تلك المدة » ؟

وللمرة الثانية بلغ مسامعه وقع اقدام الجواد •• فهتف :

ـ يا لله !• لا اخالني مخطئا هذه المرة •!

ودار على عقبيه ، والقى ببصره الى التل ، فرأى جوادا مقبلا نحـوه في سرعة عظيمة ••

غاص قلبه بين جنبيه ، وادرك انه قد احيط به ، فاستجمع ما بقي فيـه من قوة ونفخها في ساقيه واطلقهما للريح كانما شياطين الجن تطارده •

وظل يعدو الى ان خارت قواه ، واحس ان رأسه وقلبه يوشكان عـلى الانفجار ، فهدأ قليلا من سرعته وهو يتلفت في ذعر ••

كان يعتقد ان صاحب الرداء الاسود هو مطارده ••

ثم استأنف عدوه في حماس •• وفي هذه اللحظة حمل الريح اليه نداء مطارده يدعوه للتوقف ••

وخارت قواه في النهاية فانكفأ على وجهه فوق الارض ولم يستطع النهوض ••

وما هي الا لحظات حتى سمع القادم يردد اسمه : بيتو ! بيتو !

وفيما يشبه الحلم حول الشاب رأسه • ولم يلبث ان صاح :

ـ يالله انني اسمع صوت مسيو بيلو •

وكان القادم قد وصل الى البقعة التي سقط فيها بيتو • فترجل عن جواده وسأل في لهفة : اين مطاردوك ؟

ـ لست ادري اين هم •• والا لما اطلقت ساقي للريح حين رأيتك •

ـ مرحى • مرحى • اذن فهم لم يسبقوك ؟

ـ كلا •• ولعلي لا اعدو تقرير الحقيقة اذا قلت انني سبقتهم بمرحلة بعيدة •

فقال بيلو في ضجر :

ـ اذن اسرع واقفز ورائي •• فانا منطلق الى باريس ايضا •

وحاول بيتو النهوض ولكنه لم يستطع •• فمد الفلاح الطيب القلب يده ورفعه واردفه خلفه •

واستأنفا رحلتهما الى دامارتين • حيث استبدل بيلو جواده المتعب بجواد اخر قوي •

الفصل الثامن

شجاعة بيلو

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله عند ما وصل المسافران الى قرية « لافيلت » على حدود باريس .

وخيل الى بيلو انه يرى نورا بعيدا ينتشر في سماء باريس .. واشار الى بيتو كي يرسل بصره ناحية الضوء .

قال بيتو :

ــ اكبر ظني انني ارى فرقة من الجند معسكرة هناك .. وتلك نيران اوقدتها ..

والواقع ان مسيو بيلو استطاع ان يتبين خياما كثيرة منتشرة في سهل « سان دنيس » .. كما رأى جنودا كثيرين يسيرون في السهل متسترين بالظلام .!

وكان بيتو احد بصرا من بيلو فاستطاع ان يرى العتاد والمدافع التي يزدان بها المعسكر .

ولما اخبر بيلو بما رأى .. هتف الفلاح :

ـ لا بد ان حادثا خطيرا يقع في باريس •• فدعنا نسرع •!

ولكز الجواد بقوة • قال بيتو :

ـ انظر •! انني ارى حريقا عظيما •• الا ترى شرر النيران •؟

ووقف الجواد اخيرا •• فقفز بيلو من فوقه • • وسار صوب جماعة من الجنود كانوا يقفون على مقربة •• وسأل :

ـ هل لكم ان تخبروني ماذا يحدث في باريس •؟

بيد ان الجنود تحولوا اليه بحدة وراحوا يقذفونه بوابل من الشتائم •• وهو حائر لا يدري ماذا يقولون •• ولعل من حسن حظه انه لم يفقه حرفا من لغتهم الالمانية •• والا لساءت العاقبة ••

وسأل بيلو رفيقه بيتو عما يقولون فاجاب الشاب :

ـ لست ادري •• فلم اتعلم في مدرسة الاب فورتيه غير اللاتينية والاغريقية •

وعبثا حاول بيلو ان يخاطب الجنود الالمانيين ، فلما اعيته الحيلة عاد الى جواده وامتطى صهوته ، وراح يشق طريقه وسط الجنود بصعوبة حتى التقى بجماعة كبيرة من الجنود الفرنسيين ••

سألهم •• فاجابه احدهم بقوله :

ـ ان الباريسيين الحمقى يطالبون باعادة « نكر » وهم يصلوننا نارا حامية كانما الامر موقوف بارادتنا •

فصاح بيلو : يريدون « نكر » ! اذن لا بد انهم فقدوه ؟

ـ نعم •• فقد اقاله الملك •

فهتف بيلو في صوت متهدج :

ـ أقاله الملك ! أيقيل الملك مثل هذا الرجل العظيم ؟!

ـ نعم يا سيدي .. والادهى من ذلك ان « نكر » الآن في طريقه الى بروكسل .

فصاح بيلو غير عابىء بالخطر الذي قد ينجم عن استرساله في مثل هذا الحديث وسط آلاف من جنود الملك :

ـ اكبر الظن ان امورا خطيرة ستحدث في باريس .

وسار في طريقه يتبعه بيتو .. حتى وصل الى مكان الحريق . فالفى جمهرة كبيرة من الرعاع تصيح في حماسة وتلقى بالمقاعد وقطع الاثاث وسط الحريق .

ولكز بيلو جواده في بطنه فاندفع الجواد كالسهم واخترق نطاق الحريق . ولكنه لم يكد يتخطى النار حتى اضطر الى الوقوف . فقد احاط به الغوغاء ، وهم يصيحون :

ـ الى السلاح ! الى السلاح !

واستطاع الفلاح ورفيقيه ان يصلا الى شاطىء النهر بعد طول عناء . ولكنه اضطر الى التوقف اخيرا . اذ التقى برهط كبير من الرعاع قادمين من جهة الباستيل .

وكان القادمون يحملون تمثالين احدهما « لنكر » الوزير المقال . والاخر لدوق اورليان .

وسأل بيلو احد الغوغاء عن المقصود بهذه المظاهرة . فاجاب بانها تألفت خصيصا للاعراب عن شعور الشعب المتحمس للوزير المقال والدوق الذي يدافع عنه .

وكان بيلو من المعجبين بدوق اورليان • فلم يلبث ان ترجل عن جواده واختلط بالجمع الحانق وصاح بأعلى صوته :

ـ يحيا دوق اورليان ! يحيا نكر ! لتسقط الجنود الاجنبية !

وكان صوت الفلاح داويا ، فقد اخذه الحماس ، واستهوتـه نشوة الموقف •

وسرعان ما اخترق الامواج الزاخرة من الآدميين الى الصفوف الامامية •• واخذ مكانه في الطليعة •

وتلفت حوله يبحث عن بيتو • فرآه يدفع بعض الغوغاء الذين تكالبوا على الجواد المسكين وامتطى بعضهم صهوته حتى ناء بحمله • وسقط فوق قائمتيه الاماميتين •

حاول بيلو ان يعود لمناصرة الشاب • ولكنه لم يستطع ، فقـد آثره بعض المتظاهرين بحمل تمثال نكر • وهو شرف عظيم يهون امامه قتل مائة جواد •

وواصل الشعـب الثـائر سيره في حمـاس حتى وصل الـى شارع مونتمارتر • وهناك اضطر المتظاهرون الى التوقف، فقد كان الشارع يموج بآلاف من الخلائق يضعون غصونا خضراء في قبعاتهم وهم يصيحون «الى السلاح » !

★ ★ ★

جمد الثائرون في اماكنهم وهم دهشون من امر هؤلاء المحتشدين •• وتساءلوا عما اذا كانوا من مناصريهم ام من المناهضين لهم • اذ كانت الشارة الخضراء رمزا لجماعة الكونت دارتوا ••

وساد بينهم الهمس واللغط . ولكن سرعان ما تجلت لهم الحقيقة .

★ ★ ★

عندما علم الشعب الباريسي باقالة نكر . ثارت ثائرته . وخرجت جموعه الهائجة الى الشوارع وهي تهتف هتافات حماسية تشق عنان السماء .

وعند مقهى « فوي » انبرى شاب من بينهم .. واخرج غدارة من جيبه . وصاح : « الى السلاح ! الى السلاح » !

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى تجمعت الجموع .. وتألبت المارة حوله .. وصاحوا بصوت له دوي الرعد : « الى السلاح » !

واشار الشاب الى الفرق الاجنبية التي دعيت لمحاصرة باريس في ذلك الوقت .. وراح يخطب الجماهير في لسان ذلق وحماسة متدفقة . قائلا ان فرقة الحرس السويسري لن تلبث ان تعمل فيهم القتل والذبح ..

ونصح الخطيب الجموع بان يتخذوا لهم شارة تميزهم . ولم يجد امامه غير شجيرة بقربه . فمد يده وقطع احد اغصانها ورشقه في قبعته ..

وحذا الجميع حذوه . وهم يجهلون شخصية خطيبهم . . الا انه لم تكد تمضي بضع ساعات . حتى رددت افواه الباريسيين جميعا اسم «كاميل ديمولان » .

★ ★ ★

والتقى الجمعان اذن ، ولكنه التقاء تعارف وتآلف واتحاد . ومن ثم استأنف سيلهما الجارف زحفه الى شارع ريشيليو .

واسرع اصحاب الحوانيت يغلقون متاجرهم • بينما امتلأت نوافذ المنازل بالباريسيات يلوحن بايديهن ومناديلهن تشجيعا للثائرين •

ولما وصل المتظاهرون الى شارع سان هورونيه • برزت لهم كوكبة من الفرسان •

وكان من الصعب عليهم ان يتنكبوا طريق الخيل • فصمدوا في اماكنهم • ولكن الجند القساة لم يتقهقروا وحملوا عليهم بجيادهم في وحشية ، فوطئتهم الجياد باقدامها •

وساد الهرج والمرج • ولاذ الكثيرون بالفرار وارتفع الصراخ والانين ممن صمدوا للجند •

ولبث بيلو الشجاع يحمل تمثال معبود الجماهير • ويدافع عنه في حماس •• مؤثرا الذود عنه على التقهقر المعيب •

وفجأة • دوى في الفضاء صوت انفجار مروع • على اثر قنبلة اطلقت من احد مدافع الفرقة السويسرية •

وتناثرت شظاياها واصابت الكثيرين • فتطايرت اشلاؤهم • وارتفع انينهم وتأوهاتهم •

وسقط التمثال من يد بيلو • واحس بشيء صلب يصطدم برأسه •• فرفع يده يتحسس جبهته • ثم نظر الى راحته فالقاها ملطخة بالدم ••

حاول النهوض من سقطته ورفع التمثال واستئناف جهاده • ولكنه بالرغم من انه لم يشعر بألم ظاهر ، فانه لم يستطع •• واحس بيد تجذبه من كتفه الى الارض •

فبذل جهدا غير قليل ليتخلص من تلك القبضة الحديدية • ولكنه شعر بيد اخرى تقبض على كتفه الاخرى وتشل حركته تماما •

وادار رأسه ليرى ذلك الشخص الذي يحول بينه وبين الوقوف .. فدهش ولم يلبث ان هتف : بيتو !!

نعم .. نعم .. عد الى ما كنت عليه فوق الارض والا صبت الحامية نيرانها علينا .

فامتثل الفلاح في الحال وهو يتلفت حوله في ذعر . فرأى جثة هامدة بجواره والدماء تنبثق بغزارة من جروح كثيرة فيها .

وعندئذ ادرك ان الدماء التي تخضبت بها يده انما هي دماء هذا القتيل .

واهتز الفضاء مرة اخرى .. وزلزلت الارض بانفجار قنبلة اطلقتها مدافع الحامية في تلك اللحظة .

وسقط حامل تمثال دوق اورليان فوق بيلو ورفيقه .

وعاود الجند الهجوم بخيلهم على المتظاهرين ، ففرقوهم بعد ان ارسلوا الذعر الى قلوبهم .

وساد الصمت اخيرا .. فهمس بيتو في اذن رفيقه :

ـ دعنا نزحف الى شارع آخر قبل ان يعيد الفرسان الكرة .

فاجاب الفلاح :

ـ اذن ساعدني على نقل حامل تمثال دوق اورليان فقد اغمي عليه وتعاون الاثنان على رفع الشاب . ثم انحدرا الى شارع سان هورونيه .

الفصل التاسع

ليلة ١٣ يوليو

كان شارع سان هورونيه قفرا في تلك اللحظة . فقد تعقب الفرسان جمهرة المتظاهرين الى سوق سان هورونيه . فشارع لويس العظيم فشارع جيلون .

ورفع بيلو عقيرته وراح يهتف في صوت داو مطالبا بالانتقام من اعداء الشعب .. فلم يلبث ان تجمع حوله عدد كبير من الغوغاء برزوا من الشوارع الجانبية ومن تحت المركبات التي كانت منتشرة في ارجاء ساحة الباليه رويال .

وتجمهرت جموع القادمين حول بيلو ، وهم يتهامسون في فزع ... وما لبث ان انطلقت حناجرهم بهتافات قوية تشق عنان السماء في حماس :
« الثأر !.. الثأر » !

★ ★ ★

وفي ساحة الباليه رويال التقى هذا الفريق بجمع جرار من الغوغاء

المحنقين ، كانوا مجتمعين على هيئة لجنة لبحث الموقف . والعمل على مناصرة الجند الفرنسيين ضد الجنود الالمانية الدخيلة .

★ ★ ★

واقترب بيلو من بعض المجتمعين .. ثم اشار الى جماعة قريبة . وسأل:

ــ من يكون هؤلاء ؟

فصاح كثيرون : انهم الحرس الفرنسي .

وتقدم بيلو من الحرس .. وصاح في صوت اجش :

ــ يالله ! اتلزمون الصمت بينما تعمل الجنود الالمانية فينا الذبح والقتل .

ألم تسمعوا صراخنا .. ودوي القنابل .. ووقع حوافر جيادهم ؟

ومدد حمله فوق الارض . وراح يتجسسه ويهزه . ولكنه القاه جثة هامدة .. وهنالك سمع صوت الجنود وهم يتراجعون الى الخلف قائلين :

ــ نعم .. نعم . لقد سمعنا كل شيء .. ولا شك انهم كانوا يذبحون اهالي « باليه فندوم » !

فهتف بيلو في غضب : وكيف ــ وانتم تدعون انكم فريق من الشعب ــ تتركون هؤلاء الاجانب الدخلاء يعملون فيهم الذبح والقتل ؟ يا لكم من جبناء ...

فصاح بعض ضباط الحرس في غضب : جبناء !!

فاستطرد بيلو . وهو يتقدم نحوهم غير آبه بغضبهم :

ــ نعم جبناء .. والا فاقتلوني كي تبرهنوا على انني مخطىء ؟!

فقال احد الجنود : مهلا يا صديقي •• فانت رجل شجاع بغير شك • ولكنك مواطن مدني تستطيع ان تفعل ما يحلو لك •• اما نحن فايدينا مكبلة بالقانون العسكري •

ــ اذن فلو انكم تلقيتم امرا باطلاق النار علينا لفعلتم •؟

فهتف احد الضباط :

ــ حاشاي ان اطلق رصاصة واحدة على احد مواطني •

وصاح الكثيرون :

ــ نعم •• اننا نستنكر هذه الافعال • فنحن مواطنون مخلصون • وظهرت طلائع كوكبة الفرسان الالمانية مرة اخرى بغتة •• فصاح كثيرون وهم يتراجعون الى الوراء : الفرسان •• الفرسان •

وهتف بيلو في جنود الحرس الفرنسي :

ــ اعطونا سلاحكم اذا كنتم لن تستعملوه •

صاح احد الجنود : كلا •• كلا •• اننا سنساعدكم بكل قوانا • فمن الجبن ان نترك جنودا دخلاء يذبحون بني جلدتنا •

فضرب بيلو الارض بقدمه في غضب وهتف :

ــ يا للشيطان ! لو اني احضرت غدارتي معي ! ولكن من يدري لعلي استطيع قتل احد هؤلاء النمساويين الملاعين واستولى على بندقيته •

وهتف آخر : خذ هذه الغدارة فهي محشوة بالرصاص •

وقدم الى بيلو غدارة ثمينة •

وفي اللحظة التالية ، برز الفرسان الى الساحة وهم يستحثون جيادهم على الاسراع •

وسقط كثيرون تحت سنابك الخيل • فتعالت صرخات الغضب من بين الرعاع •

وعندئذ تقدم ضابط الحرس الفرنسي الى الامام • وصاح يطلب الى الالمانيين الوقوف • ولكنهم لم يعبأوا به • واستمروا في عملهم الـوحشي دون مبالاة ••

وكان بيلو واقفا الى جوار الضابط في تلك اللحظة • فصاح في حمية : اطلقوا النار !

خيل الى الحرس الفرنسي ان الامر صادر اليهم من رئيسهم • فاطلقوا النار على الجنود الالمانية • فسقط كثيرون منهم صرعى •

واحدث هذا الهجوم المفاجىء هرجا بين الالمانيين • فتوقفوا •

واقبل رئيسهم الى ضابط الحرس الفرنسي • عابس الوجه • بـادي الغضب ••

وصاح : ما هذا ايها السادة ! أتطلقون النار علينا ؟

هتف بيلو : نطلق النار عليكم !! هل تريدوننا ان نقف مكتوفي الايدي بعد ما بدا من قساوتكم •

ورفع غدارته واطلقها على الضابط الالماني فارداه قتيلا •

وللمرة الثانية • اطلق جنود الحرس الفرنسي النار على الجنود الالمان فاضطر هؤلاء الى التقهقر بعد اذ ادركوا انهم لم يعودوا يقاومون الاهالي العزل بل جنودا مسلحين •

وصاحت الجماهير : ليحى الحرس الفرنسي •

فاجاب الجنود : شكرا لكم •• لقد شممنا رائحة البارود فانبعثت فينا روح القتال •

وهتف بيتو : يا لها من حماسة بالغة •

فسأل بيلو : وما رأيك الآن يا صديقي ؟

ثم قلب الغدارة الثمينة بين يديه • واردف قائلا :

ــ ولكن ترى من يكون صاحب هذه الغدارة ؟

فاجاب صوت من الخلف : انها غدارة سيدي • ولقد عهد الي باعطائها اليك بعد ما رأى من شجاعتك وبطولتك •

فالتفت بيلو خلفه ، ورأى قرويا يرتدي ملابس اتباع الدوق اورليان••

فسأل : واين سيدك ؟

فاشار القروي الى نافذة احد المنازل التي تطل على الميدان • وكان الدوق واقفا خلفها يرقب الموقف •

وسأل بيلو : وهل سيدك معنا ؟

اجاب القروي : قلبا وروحا !

ــ اذن فلنهتف بحياته • وتحول الى الجمع المحتشد وصاح :

ــ اخواني • ان الدوق اورليان يناصرنا • فاهتفوا معي : « يحيّا الدوق اورليان » !

واشار بيلو بيده الى النافذة التي كان الدوق محتجبا خلفها • وعندئذ اطل الدوق عليهم واحنى لهم قامته ثلاث مرات • ثم عاد فاختفى •

وصاح احد الرعاع : هلموا بنا الى مخازن السلاح •

فقال محارب قديم : بل لنذهب الى الانفليد • فان لدى سومبريـــل عشرين الف بندقية •

وهتف الجميع : هلموا الى الانفليد •

وصاح آخرون : بل لنذهب الى مجلس المدينة • فان مفاتيح المخازن مع فليسي ••

وقال فريق ثالث : بل لنذهب الى فندق المدينة •

وتحركت ثلاث كتل بشرية • كل الى ناحية معينة •

★ ★ ★

اما بيلو وبيتو فقد ظلا واقفين في الساحة وحدهما •

سأل بيتو : اين سنذهب الآن يا مسيو بيلو ؟

فاجاب الفلاح في صوت عميق :

ــ كم كنت اود لو اني تبعت هؤلاء الشجعان حيث يذهبون • بيــد انني جئت لمقابلة الدكتور جيلبر • ولكني ارى ان نذهب اولا لمقابلة ابنه سباستيان في مدرسة لويس العظيم • وبعد ان تفرغ من مقابلة الطبيــب يمكننا الانضمام الى جيش المتظاهرين •

كان يتكلم في ايمــان وحرارة • وعينــاه تلمعان ببريق يــدل عــلى الحماس ••

ثم اردف قائلا : ارى ان تسلح نفسك يا بيتو • فاذهب وابحث لــك عن غدارة او بندقية بين اشلاء هؤلاء الالمان الملاعين •

وتقدم بيتو من احد الجنود الالمانيين • ومال فوقه ليتأكد من موته • ثم مد يده واخذ بندقيته • وصندوق الطلقات •

ونمي الى مسامعه وقع حوافر جياد مقبلة نحو الساحة •

فهتف : يا الهي ! ان الالمانيين عائدون • فلنبادر بـالهرب والا قضوا علينـا ••

فاجاب بيلو : اذن هيا بنا الى مدرسة لويس العظيم ••

وانطلقا في طريقهما الى قصر لويس الخامس عشر ، حيث التقيا بالجمع الذي كان يقصد الى الانفليد ، فسارا معهم ، ثم شعر بهم بيلو وهم يقفون فجأة ، فهتف : لماذا توقفتم •؟

ـ اننا لا نستطيع عبور جسر لويس الخامس عشر •

ـ اذن اذهبوا الى الميناء •

ـ لقد سدت جميع المنافذ •

ـ اذن فلنعبر جسر التويلري ••

وتحركت الجماعة صوب الجسر ، ولكنهم الفوا الفرسان الالمانيـة في انتظارهم في حدائق التويلري ••

ثم رأوا الفرسان يتقدمون نحوهم في بطء •• فتحولوا يريدون الشارع الملكي ، ولكنهم وجدوه كذلك مسدودا بصف طويل من الفرسان ••

غمغم بيلو : يا الهي •! لقد حوصرنا ••

والواقع ان البرنس « لامبسك » كان قد قام بحركة التفاف سريعة واستطاع ان يحصر المتظاهرين في مكانهم ..

بيد ان بيلو لم يكن ممن يفقدون رباطة جأشهم ساعة الخطر .. فسرعان ما تلفت حوله يبحث عن مخرج من تلك الورطة ..

ولم يلبث ان هتف :

ـ آه .. لقد خطرت لي فكرة .. هلم معي يا بيتو ..

وتبع الشاب قائده الى كومة من الواح الخشب الطويلة ..

قال بيلو : ساعدني في رفع هذا اللوح ..

وتعاون الرجلان على رفع لوح ضخم من الخشب ، وسارا به الى بوابة حديقة التويلري .

وادرك المتظاهرون ما يرمي اليه بيلو ، فانضموا اليه في حماسة .

وهوى بيلو باللوح الخشبي فوق الباب ، فتحطم القفل ، وفتح سبيل النجاة امام المحاصرين .

وكان البرنس (لامبسك) يرابط مع بعض جنده داخل الحديقة، فلما رأى ان الرعاع قد شقوا لانفسهم طريقا ، اشار الى جنوده بمهاجمتهم .!

وتصاعدت في الفضاء صرخات الالم والذعر ، ولم يجد العامة ما يدفعون به الاذى عن انفسهم ، غير مقاعد المقاهي يقذفون بها الفرسان .!

واصاب احد المقاعد البرنس (لامبسك) في رأسه فتملكه الغضب

ودفن حسامه في اقرب رجل من العامة ، وكان هرما في السبعين من عمره !•

شق ذلك على بيلو •• فرفع غدارته •• واطلقها على البرنس •

وكاد المقذوف ان يصيب لامبسك ، لولا ان تراجع الجواد فجـأة ، فاستقرت الرصاصة في عنقه •

وفي اللحظة التالية سقط البرنس فوق الارض •

هتف بيلو : اسرع يا بيتو قبل ان يعوق تقدمنا عائق جديد •

الفصل العاشر

ثورة في مدرسة

كان الاعياء قد نال من الفلاح كل منال عندما وصل الى شاطىء نهــر السين ، فجلس يستريح قليلا تحت الاشجار المتعانقة فوق الشاطىء .

وتمدد الرجلان فوق الاعشاب الخضراء ، وبدأ بيلو الحديث قائلا :

ــ لقد سمعت ساعة التويليري تدق الحادية عشرة الان .. فمن العبث اذن ان نحاول الاتصال بساستبان .. فما رأيك في ان ننضم الى المقاتلين وندلي دلونا في الماء .. ونشاطرهم نصيبهم ان خيرا او شرا ؟

فاجاب بيتو : لا تنسى انك جئت الى باريس للاتصال بالدكتور جيلبر بشأن الصندوق . ومن المحتمل ان تصيبك رصاصة تقضي عليك وانــت تشاطر الشعب الثائر ثورته . وعندئذ تكون قد خنت الامانة التي وضعها الطبيب في عنقك .

فبدا التفكير على وجه بيلو ، وهتف : انك محق في قولك يا صديقي .

فقال بيتو : استمع الى تلك الطلقات تردي الوف الابريـاء •• والى تلك الصرخات الحادة تنبعث من افواه المحتضرين والمتألمين • وخبرني : هل من العقل في شيء ان يخاطر انسان مثلك يحمل رسالة هامة بالنزول الـى الميدان •؟

ــ ان الشعب غاضب ، وهو يريد الثأر لنفسه يا بني •• ولما كنا مـن افراد الشعب فوجب ان نساهم في القتال •

ــ ولكن لا تنسى ان الملك اشد غضبا من الشعب •

ــ وكيف ذلك •؟

فقال بيتو :

ــ أليس الجنود النمساويون والالمانيون جنود الملك •؟ فاذا كـان هؤلاء الجنود يقمعون ثورة الشعب ، فان ذلك بأمر الملك ، والملك لا يصدر امرا كهذا الا اذا كان غاضبا •!

فقال بيلو : قد تكون على صواب يا بني ، ولكنك لا ترى الحقـائق على وجهها الصحيح • ففي البلاط حزبان •• حزب الملك ومن انصاره نكر وترجوه ، وهو الحزب الذي يناصر الشعب ويعمـل لمصلحته ، وحـزب الملكـة النمساوية ، ويضم مسيو دي بريني وآل بولينـاك ، وهم أعداء الشعب • ولما كانت السلطة كلها بيد الملكة فقد اضطر الملك الى استبعـاد نكر وترجوه •• والملكة غاضبة لان الخزانة خاوية •• والشعب غاضب لانه لا يجد الخبز يتبلغ به •• ومن هنا كان الاحتكاك الذي افضى الـى تلك الحوادث الدامية •

فهتف بيتو وهو يهز رأسه ببطء : مهما يكن من امر •• فلست ارى في ذلك ما يصرفك عن التفكير في امر الصندوق •

ــ نعم •• نعم •• لعنة الله على السياسة ومتاعبها • فلنرجىء الحديث فيها حتى نلتقي بالدكتور جيلبر •

ــ اذن •• دعنا نستريح قليلا • كيما نستعيد شيئا من قوانا •

وتمدد الرجلان على العشب •• وسرعان ما استغرقا في سبات عميق •

ولما افاقا في صباح اليوم التالي لم يجدا اثرا للجنود • ولكنهما رأيا الشوارع تموج بالشعب الثائر الناقم • بعضهم يحمل حرابا مختلفة الاحجام والاشكال • والبعض الاخر يحمل بنادق لا يعرف طريقة استعمالها •

★ ★ ★

وقد علم بيلو ورفيقه انه على اثر انسحاب الجنود بعد المعارك التي نشبت بينهم وبين الرعاع في مساء اليوم السابق •• انقض الشعب على المكان المعروف باسم (جاردا ــ ميبل) واستولوا منه على مدفعين صغيرين• وساروا في طريقهم الى مجلس بلدي المدينة •

واذن مؤذن الخطر •• واهتزت ابراج نوتردام وكنائس باريس بدوي اجراسها الضخمة • منذرة بشبح الخطر الرهيب الذي يجثم فوق باريس بل فرنسا بأسرها • اذ خرج الباريسيون على بكرة أبيهم من رجال ونساء •• الى الطرقات والشوارع والكل في حالة يرثى لها من الهزال والضعف • حفا عراة • الا من اسمال بالية • او اطمار رثة • يصيحون ويصرخون •• ولكن ليس في طلب الخبز والطعام •• وانما في طلب السلاح وادوات التقتيل • حتى غدت المدينة وكأنها ميدان حرب ضروس توشك ان تأتي على الاخضر واليابس •

وكان سواد الشعب الفرنسي من سكان الاقاليم قد نزحوا الى باريس فرارا من المجاعة • فازدحمت العاصمة بطلاب الخبز ، حتى خيل الى الجميع ان اهالي فرنسا جميعا قد هجروا قراهم ومدنهم ودساكرهم الى باريس • وكثرت حوادث السلب والنهب ، وتزعزع الامن في المدينة ، حتى امسى البقاء فيها من اخطر الامور •

★ ★ ★

وشق بيلو وبيتو طريقهما وسط هذه الجموع الزاخرة •• الحانقة •• وانطلقا الى مدرسة لويس العظيم •

وفي الحي المعروف الان بالحي اللاتيني ، رأى الرجلان منظرا غريبا ارسل الذعر في قلبيهما •

ذلك ان فئة كبيرة من الثائرين • كانوا اشبه بشعلة متقدة من الحماس اخذوا يجلبون قطع الاثاث والاخشاب من المنازل المطلة على الشوارع ويضعونها على هيئة متاريس يحتمون بها وقت الحاجة • بينما احاطت جماعات صغيرة منهم ببعض الجنود القدماء ، راحوا يشرحون لهم كيفية استعمال البنادق •

وكم كانت دهشة بيلو عظيمة عندما وصل الى مدرسة لويس العظيم وعلم ان الطلبة قد تمردوا على مدرسيهم ، وطردوهم من المدرسة •• وحاولوا اقتحام بابها الكبير •• ثم رآهم ينقضون على الباب ، وهم يتهددون ويتوعدون ناظرهم الذي كادت دموع الغيظ تطفر من عينيه •

حملق بيلو الى ذلك المنظر في دهشة •• ثم صاح في صوت اجش :

ـ أيكم يدعى سباستيان جيلبر ؟

فاجاب صبي في الخامسة عشرة من عمره . كان يرتقي سلمـا اسنده التلاميذ الى الجدار بعد أن يئسوا من فتح الباب :

ـ انا هو سباستيان .. فماذا تريد مني ..؟

واذ وقع بصر الناظر على بيلـو ورفيقه .. الملوثة ثيابهمـا بالدماء ، الشاهر كل منهما سلاحه في يده .. صاح فيهما في ذعر :

ـ هل تريدان اصطحابه معكما ؟

اما سباستيان فقد نظر الى الفلاح وبيتو في دهشة .

وصاح بيلو : نصطحبه معنا ..؟ كلا يا سيدي .. حاشاي ان اقود ابن الدكتور جيلبر وسط هذه المعارك الدموية .

وقال الناظر : الا تسمع يا سباستيان .. الا تسمعون ايها الحمقى .. ان اصدقاءكم من الشعب لا يريدونكم على التعرض للتهلكة . فهيا اطيعوني وعودوا الى فصولكم .. انني اتوسل اليكم .

فصاح جيلبر الصغير في لهجة حادة :

ـ سيدي . لـك ان تستبقي زملائي اذا شئت .. امـا انا فسأخرج وتحرك نحو الباب . فقبض الناظر على ذراعه .. وعندئذ قال الصبي :

ـ دعني يا سيدي .. ان موقفي لا يشبه موقف بقية الطلبة .. فقـد قبض على ابي .. وسجن .. نعم .. ان ابي في قبضة الظلمة .

فصاح بيلو في دهشة وذعر :

ـ في قبضة الظلمة •• تكلم يا بني ماذا تعني بذلك ؟

فهتف بعض التلاميذ : ان سباستيان على حق •• فقد قبض على ابيه •• ولما كان الشعب قد فتح ابواب جميع السجون ، فهو يأمل ان يكـون اباه قد غدا حرا طليقا •

وحينئذ انقض الفلاح على الباب يهزه في عنف •• وصاح في صوت كالرعد :

ـ يالله ! هل قبضوا على الدكتـور جيلبر ؟ اذن فقـد اصابت ابنتي كاترين في قولها •

واستطرد الصبي : نعم يا سيدي •• وهذا ما يدفعني الى الخروج من المدرسة ، والسعي الى اطلاق سراحه مهما كان الثمن •

وارتفعت صيحات الطلبة يرددون في غضب :

« السلاح ! السلاح ! اعطونا سلاحا » !

ولم يكد الغوغاء يسمعون هذه الصيحات حتى تدافعوا نحو البـاب يريدون تحطيمه لاخراج الطلبة الصغار •• وعندئذ ركع الناظر فوق ركبتيه، ورفع يديه في توسل ، وحاول ان يثني الغوغاء عن عزمهم حتى لا يعرضوا ارواح الصبية الصغار للتهلكة ••

ولكن الرعاع قابلوا ضراعة الناظر بضحكات السخرية •• بيد ان بيلو تقدم الى الامام وواجه الغوغاء في شجاعة •• وصاح :

ـ انه على حق فيما يقول • فانا لا استطيع ان اسمح لكم بان تعرضوا هؤلاء الصبية للموت •• اما اذا كنتم جبناء تخشون بطش الجنود الاجانب

بكم ، ولا تستطيعون قتالهم وحدكم ، فاخرجوا الصغار ليعاونوكم ويبثوا في نفوسكم الحماس ..

وساد الصمت بين الرعاع .. ثم صاحت بعض النسوة :

ــ انه يقول حقا ، فدعوا الصبية وشأنهم .

واشرق وجه الناظر بالابتهاج . ونظر الى بيلو نظرة تفيض بالشكر .. ثم قال وهو يمد يده من بين قضبان الباب : شكرا لك يا سيــدي وألف شكر ..

واسترسل بيلو : على اني ارجو ان تعنى بسباستيان عناية خاصة .

فهتف سباستيان في غضب وهو يحاول التخلص من خدم المدرسةالذين تكالبوا عليه ليمنعوه من الخروج :

ــ كلا يا سيدي . فانا مصر على الخروج لاطلاق سراح ابي ..

فقال بيلو : افتحوا لي الباب وانا الكفيل باقناعه بالبقاء .

وافسح الغوغاء الطريق لبيلو ورفيقه . فدلفا الى ساحــة المدرسة . واسرع بعض الجنود يقفون بالبوابة ليحولوا دون خروج التلاميذ .

وتقدم بيلو من سباستيان ، ومد يده الغليظة الى الصبي يصافحه، ثم سأل : ألا تعرفني ؟ ــ كــلا

ــ انني بيلو العجوز . فلاح ابيك .

ــ لقد عرفتك الآن يا سيدي .

فاشار بيلو الى انج ، واستطرد : وهذا ، الا تعرفه ؟

فقال الصبي : انه انج بيتو •

فهتف بيتو : اجل يا سباستيان •• انني انج •

وتقدم من الصبي •• وقد اغرورقت عيناه بالدموع •• ثم احاطه بذراعه وقبله في جبينه قبلة اخاء •• فقطب سباستيان حاجبيه •• وسأل :

ـ حسنا •! وماذا نفعل الآن •؟ فصاح بيلو :

ـ اذا كانوا قد قبضوا على ابيك فساعيده اليك •• ـ انت ؟

ـ نعم انا •• وهؤلاء الذين تراهم بالخارج •

وتحول الفلاح الى جمهرة الرعاع •• وسأل :

ـ هل انتم على استعداد لمعاونتي في اطلاق سراح ابيه •؟

فصاح الجميع في صوت كالرعد : نعم •• نعم ••

وهز الصبي رأسه في حزن وقال في صوت خافت : ان ابي في الباستيل وهو سجن اشبه بالحصون يصعب اختراقه •

ـ اذن فماذا كنت ستصنع لو انك تمكنت من مغادرة المدرسة ؟

ـ كنت سأذهب الى الساحة التي يطل عليها الباستيل • ولما كانت المعارك دائرة هناك ، فاكبر ظني ان ابي يشاهدها من نافذة غرفته •

واذا تصادف ورآني كنت ساصيح : « لا تكتئب يا ابي ، فانني احبك » •

ـ واذا قتلك حراس الباستيل •؟

ـ حسنا •• في هذه الحالة اموت امام عيني ابي ••

فصاح بيلو : يا للشيطان ! اتريد ان تقتل اباك حزنا ايها الولد العاق•؟

ودفع الصبي عنه في حنق •• ولزم سباستيان الصمت وقد بدا عليه الحزن والاكتئاب •

ولبث بيلو يتأمل جيلبر الصغير ، وقد تملكه الاعجاب لذلك الوجه الجميل رغم امتقاعه ، وتلكما العينين الصافيتين البريئين ، وذلك الفم الدال على الزراية والاستخفاف ، بل تلك الهيئة التي تدل على النبل ••

وقطع بيلو حبل الصمت بقوله : تقول ان اباك في الباستيل •؟

ــ نعم •

ــ ولماذا قبضوا عليه •؟

ــ لانه صديق لافايت وواشنجطون ، ولانه حارب بحسامه في سبيل استقلال امريكا ، وبقلمه في سبيل حرية فرنسا ، وامطر الباستيل بوابل من اللعنات ، لما قاسه ، ويقاسيه كثيرون من الابرياء بين جدرانه ، وسراديبه •

ــ ومتى ارسل الى الباستيل ؟

ــ منذ ستة ايام •

ــ واين قبضوا عليه ؟

ــ في الهافر ، بمجرد وصوله الى الشاطىء •

ــ وكيف عرفت كل ذلك ؟

ــ لقد وصلتني منه رسالة •

ــ اذن اذكر لي ما جاء بها يا بني ، واقسم لك انني اما ان ألاقي حتفي في الباستيل او اعيد الى ابيك حريته •

فرمقه سباستيان بنظرة حادة ، ادرك بعدها ان الفلاح لا يقول الا عن اخلاص وصدق ، فزال عنه الغضب •• وقال :

ــ لقد قبض على ابي في ليلبون ، فكتب الي رسالة داخل كتاب كان معه ، وتلك كانت محتويات الرسالة :

« سباستيان : تشجع • انني اعتقلت ، وانا الان في طريقي الى الباستيل فكن صبورا وثابر على دراستك ــ ليلبون في ٧ يوليو سنة ١٧٨٩ » •

« ملحوظة : انهم قبضوا علي لاني ادافع عن حرية فرنسا ، ولي ولد في كلية لويس العظيم ، واني اتوسل الى من يجد هذا الكتاب باسم الانسانية ان يأخذ الرسالة الى ولدي سباستيان جيلبر » •

فسأل بيلو في صوت متهدج :

ــ حسنا !

ــ ثم وضع قطعة من الذهب داخل الكتاب • وقذف به في الطريق فعثر عليه احد الكهنة ، وكان طيب القلب فنفذ الوصية •

والآن وقد عرفت كل شيء ، فارجو ان تكون عند وعدك لي فتطلق سراح ابي •

فقال بيلو : ولا زلت عند وعدي يا بني•• وحاشا الله ان أنقضه، فارني ذلك الكتاب •

فاخرج سباستيان نسخة من كتاب العقد الاجتماعي من جيبه وقدمها

الى بيلو ولم يكد الفلاح يرى رسالة الطبيب حتى رفعها الى شفتيه وقبلها في احترام .

ثم قال : هدىء من روعك يا بني . فانا منطلق للبحث عن ابيك في الباستيل .

وصاح ناظر المدرسة : يا له من تعس . ولكن كيف يمكنك الوصول الى سجين الملك ؟

ـ بالاستيلاء على الباستيل يا سيدي !

وضحك بعض الحاضرين سخرية . فتلفت بيلو حوله غاضبا وزمجر قائلا : ولم لا نستولي على الباستيل ؟

فأجابه أحدهم : لأن احجاره ضخمة .

وقال آخر : ويتساقط منه حديد ونار . يحرقان من يقترب منه .

فصاح بيلو في غضب : تبا لكم من جبناء .. يا اهل باريس . ان لديكم معاول ولكنكم تخافون الاحجار . وفولاذا وتخشون الحديد . وسلاحا وتهابون النار .

انكم معشر الباريسيين تفرقون من الاشباح . وتشفقون على انفسكم من لفحات الرياح .

ايها العبيد الاذلاء . أليس فيكم رجل يدك معي صروح الظلم والاستبداد . اين من تدفعه شهامته وشجاعته الى اقتحام سجن الملك الى جانبي ورفيقي بيتو .

ايها الاخوان •• ان لكم في لقدوة • فانا فلاح وادعى بيلو ومن فيلير كوتيرث • فانفضوا عنكم الخوف • وهلموا معي الى الباستيل •

كان يتدفق حماسا وحمية سرى تيارهما السريع الى النفوس المتعطشة الى الدماء ، والهبت الصدور التي تحرق الارم غيظا • فزمجروا •• وزأروا• وارتفعت اصواتهم تشق اجواز الفضاء : « الى الباستيل • الى الباستيل »•

ومن ثم تحركت تلك الكتلة البشرية الهائلة الى الباستيل •

الفصل الحادى عشر

الرسالة

وظلت هتافات الغوغاء وهم في طريقهم الى « الباستيل » تشق عنان السماء • فقد وجدوا في بيلو رجلا من طبقتهم يسعى الى تحريرهم من قيود الاستعباد • فتبعوه طائعين ، متحمسين •

اما بيلو فانه انصرف الى التفكير فيما يتعين عليه عمله حتى يستطيع اتمام ذلك العمل العظيم الذي اخذه على كاهله •

ومن عجب حقا انه لم تكد ترتفع في الفضاء اول صرخة بسقوط الباستيل ، حتى بدأ القوم يفدون من كل حدب وصوب كالسيل المتدفق حتى اربى عددهم على الثلاثة آلاف شخص •

ورأى بيلو ان يذهب الى مجلس باريس اولا ، لعله يستطيع الاستيلاء على السلاح الذي يمكنه من الاستيلاء على الباستيل •

ودخل الى ردهة المجلس ، وسأل عن رئيسه مسيو دي فليسي• فاجابه احد الحجاب بانه منهمك في اعداد قائمة باسماء رجال الحرس الاهلي الذي يوشك على تكوينه •

فقال بيلو :

ــ هذا يتفق وما جئت لاجله • فانا ايضا اكون حرسا • وقد اصبح تحت امرتي الآن ثلاثة لآلاف رجل • فاذهب وقل لسيدك انني اريد مقابلته • واذا كان يساورك الشك فيما اقول فانظر من هذه النافذة لترى الجموع بعينيك •

فألقى الحاجب نظرة عاجلة من النافذة ثم ارتد عنها ذاهلا ، واسرع الى سيده •

وما هي الا لحظات ، حتى دخل مسيو فليسي غرفة الانتظار •

قال لبيلو : هل انت الذي تطلب مقابلتي يا سيدي ؟

فاجاب بيلو :

ــ اعتقد انني اتحدث الى مسيو فليسي حاكم باريس ؟

ــ نعم • فهل من خدمة ؟

فسأل بيلو : سيدي • كم تعتقد عدد القوات في فرنسا ؟

فبدا التفكير المقرون بالدهشة على وجه الحاكم •• ثم قال :

ــ انني لا أرى الآن غير قوة واحدة في فرنسا •

ــ أهي قوة الجمعية الوطنية • ام قوة الملك ؟

فأجاب فليسي وهو يعبث بنيقة معطفه :

ــ كلا •• بل قوة الشعب •• ولكن ماذا جئت تطلب مني ، ولم هذا الجمع الحاشد يشد أزرك ؟

ــ انني اطالب بشيء واحد وذلك هو اطلاق سراح الدكتــور جيلبر السجين في الباستيل ••

فبدت الدهشة على وجه الحاكم وقال :

ــ اطلاق سراح الدكتور جيلبر !؟ انك تسعى وراء المستحيل بغــير شك ، فحسبك ان الدكتور جيلبر سجين بامر الملك • واطلاق سراحه لا بد له من اسباب قوية لتبريره •• فما هي تلك الاسباب يا سيدي ؟

اسقط في يد بيلو ، اذ ادرك ان فليسي محق في قوله •• وسأل :

ــ اذن فما العمل ؟

ــ هذا ما ليس في وسعي ان اجيبك عنه •• على اني ارجو ان تعمل على ابعاد هؤلاء الثلاثة آلاف رجل من الساحــة • فان مخازني مليئــة بالبارود ، واخشى ان تتطاير شرارة من سيجارة احدهم ، فتنسف المخازن نسفــا •

فتهلل وجه بيلو • وهتف : هذا عظيــم يا سيدي • لقــد ذللت كــل العوائق •

ــ وكيف ذلك ؟•

ــ انني لا احتاج في مهمتي لغير البارود لاوزعه على رجالي وبــذلك اتمكن من الاستيلاء على الباستيل •

وانقض الفلاح على الحاكم ، وقبض عليه من بنيقة معطفه • وصاح :

ــ اعطني المفاتيح والا ناديت رجالي ؟

فامتقع وجه فليسي •• ولكنه تمالك هدوءه • وقال في لهجة صارمة :

ــ الواقع انك تحسن صنعا بتخليصي مــن هذا الكابــوس المخيف وسآمر بفتح ابواب المخازن على مصاريعها لتغترف منها رجالك ، ولــكن تذكر انك اذا عدت الي على رأس هؤلاء الرعاع فسآمر بك ان تشنق ..

فقاد بيلو حاكم المدينة من يده نحو النافذة .. ونادى الجمع الثــائر قائــلا :

ــ يا اصدقائي . اما زلتم مصرين على الاستيلاء على الباستيل ؟

فانطلقت من آلاف الحناجر كلمة واحدة :

ــ نعم ! .. نعم !..

ــ حسنا .. وهوذا الحاكم يقدم لكم حاجتكم من البارود الــذي في مخازنه ليسهل لكم مهمتكم ، فهيا اشكروه يا اصدقائي ..

فانطلقت الحناجر في صوت كقصف الرعد تحيي حاكم المدينة .

وتحول بيلو الى الحاكم . وقال :

ــ سيدي .. أرأيت الى قوة الشعب كيف انها مصدر السلطات جميعا، هيا اعطني مفاتيح مخازنك .

فلم يسع الحاكم غير النزول على الامر صاغرا ، بعد ان رأى من قوة اقناع بيلو .

وقال بيلو : سيدي ، لدي رجــاء آخر ، الست من اصدقاء حــاكم الباستيل ؟

فذهل فليسي . وهتف : مسيو دي لوناي ؟ نعم .. انه صديقي .

ـــ اذن . اذا كنت تعرف للصداقة قدرها حقا ، فيتعين عليك في حالتنا الراهنة ان تنصح لصديقك بتسليم الباستيل الي . او على الاقل اطـلاق سراح الدكتور جيلبر ..

ـــ وهل تعتقد ان تأثيري على حاكم الباستيل بحكم الصداقة قوي الى حد التسليم باحد مطاليبك ؟؟

ـــ اذن اكتب اليه في الامر .. وسأحمل اليه كتابك ، وسأرى بعد ذلك ما سيكون .

ـــ حسنا .. سأكتب اليه . ولكن بشرط الا تعود الي مرة أخرى . مهما كان الامر .

وفجأة .. ارتفع من خلفهما صوت اجوف يدل على التهديد :

ـــ فليسي ! فليسي ! يا لك من مراء ، فانت تضحك في وجه الاشراف كما تبتسم الى العامة ، فحذار ان يكلفك تذبذبك كثيرا .

دار الحاكم على عقبيه وهو ينتفض خوفا ، وسأل :

ـــ من ذا الذي يتحدث الى هكذا ؟

ـــ انا .. مارا ..

فصاح بيلو : مارا الفيلسوف ! مارا الطبيب !

فاجاب القادم : نعم .. هوذا انا .. مسيو فليسي .. لقد سألك هـذا المواطن المخلص ان تمده بجواز يمكنه من مقابلة حاكم الباستيل . ولما كان ثلاثة آلاف شخص في انتظار هذا المواطن فلا ارى ما يدعوك الى استبقائه هنا طويلا ..

فاسرع فليسي الى منضدة صغيرة ، وكتب بضعة سطور في ورقة وسلمها الى الفلاح .

قال مارا : دعني اقرأ هذه الرسالة .

فمد الحاكم يده بها وتناولها مارا وقرأ :

« صديقي الحاكم .. نحن حاكم مدينة باريس ، نرسل اليك مسيو بيلو لمناقشتك في امور تهم هذه المدينة » .

١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ « دي فليسي »

وقال بيلو ووجهه يتهلل بشرا : حسنا .. اعطني هذه الرسالة .

فقال مارا : مهلا .. فسيضيف مسيو فليسي الى رسالته تذييلا هاما .

وتقدم من مسيو فليسي الذي كان ينظر الى الرجلين نظرة ممتزجة بالاحتقار والغضب .

ــ ان التذييل الذي اقترحه ان تضاف تلك الكلمات الى الرسالة :

« وانني اعهد اليك بسلامة المواطن بيلو لانه يحمل علم الهدنة » .

فغلى صدر فليسي من الغضب .. وخيل اليه ان ينقض على وجه الفيلسوف المسطح بقبضته .

سأل مارا : اتقاوم ارادة رسل الشعب يا سيدي .؟

فاجاب فليسي وهو يكظم غيظه كلا . فان ما تسأل هو عين الصواب .

واردف كلماته بكتابة ما اقترحه مارا • وقال :

ـ مهما يكن من امر فانا لا آخذ على عاتقي سلامة مسيو بيلو !•

فصاح مارا : سأكون انا المسئول عن سلامته ، وستكون حريتك رهنا بسلامته يا سيدي •

خذ هذه الرسالة يا مسيو بيلو وانطلق بها الى صاحبها •

★ ★ ★

وفي الساحة •• القى بيلو رجاله ينتظرون عودته قلقين •

واسرع فليسي فاستقل عربته فرارا مما سيحدث •

قال مارا : أكبر ظني انه ذاهب الآن لمقابلة الملك •

فقال بيلو : ولم لا نستوقفه •؟

فابتسم مارا ابتسامة مخيفة •• واستطرد :

ـ كلا •• ففي استطاعتي الوصول اليه في اية لحظة • ومهما يكن من امر فسنصل الى الباستيل قبل ان يصل الى الملك •

والان الى البارود •

فقال بيلو : نعم •• الى البارود •

★ ★ ★

ولم يستغرق توزيع البارود على الثائرين وقتا طويلا •• وواجهت بيلو ومارا مشكلة هي قلة البنادق ، فقد كان مجموع ما لديهم لا يتعدى الخمسمائة بندقية •

ولم يجد المتظاهرون بدأ من مهاجمة اعضاء المجلس ــ وكانوا مجتمعين للنظر في تأليف الحرس الاهلي ــ ومطالبتهم بالسلاح .

وسمع الغوغاء قرقعة عجلات مركبة قادمة ، فافسحوا لها الطريق حتى مرت ووقفت عند باب المجلس .

وهبط مسيو فليسي من المركبة .. كان قد عجز عن الوصول الى الملك لينصحه بالذهاب الى فرساي ، اذ وقف المتظاهرون في وجهه ، فآثر العودة قبل ان يفتكوا به .

وما ان رآه الغوغاء ، حتى زأروا قائلين :

ــ نريد سلاحا .. نريد سلاحا .

فصاح :

ــ ولكني لا املك منه شيئا .. فعليكم بالترسانة .

فصاح الغوغاء : الى الترسانة ..! الى الترسانة .!

وهرول خمسة آلاف منهم الى الترسانة . ولكنهم وجدوها كذلك خاوية ، فعادوا بخفي حنين .

ورأى فليسي من الحكمة ان يرسل الى حاكم الباستيل ، ينصحه بسحب المدافع من فوق قباب السجن ليأمن التصادم بين رجاله والشعب الثائر .

وما كاد الرسول ينطلق الى الباستيل . حتى عاود الغوغاء غضبهم .. وصاحوا في طلب السلاح او يقوضون المجلس .

واسرع بيلو ومارا بالخروج الى الساحة تاركين مهمة توزيع بقية البارود الى احد الكهنة من انصار الشعب .

واطل فليسي على الغوغاء . وطلب اليهم ان يخلدوا الى السكينة حتى يعد لهم خمسين الف رمح يأمر بصنعها من اجلهم .

وكاد المتظاهرون يبلغون هذا الوعد .. فالتفت مارا الى بيلو . وقال :

ـ ان هذا الرجل يحاول خداعنا .. فاذهب انت الى الباستيل وافعل ما تريد . ولن تمضي ساعة حتى اشد ازرك بعشرين الف رجل مسلح ..

فاحس بيلو بالاطمئنان الى قول محدثه ، فالتفت الى جمهوره، وهتف:

ـ الى الباستيل !

وقفز مارا فوق احد المقاعد .. ثم صاح :

ـ صبرا لحظة .. واصغوا الي .. انا مارا .

واشرأبت الاعناق نحو الخطيب .. وساد الصمت ، واصغوا لما سيقول ..

سأل مارا : أتريدون سلاحا ؟

فاجابوا في صوت رجل واحد : نعم .. نعم .

ـ اذن فاتبعوني اهدكم اليه .

ـ من اين ؟

ـ من الانفليد حيث توجد خمسة وعشرون الف بندقية .

فصاح الجميع : الى الانفليد ! الى الانفليد !

والتفت مارا الى بيلو ورفيقه بيتو • وقال :

ـ اما انتما • فاذهبا الى الباستيل •• ولكن صبرا لحظة ••

واخرج من جيبه مفكرة • ومزق منها ورقة كتب فوقها الكلمات الآتية بالقلم الرصاص : « حامل هذا صديق مارا » •

ثم وقع الرسالة • وقدمها الى بيلو قائلا : -

ـ اما عنوان الرجل الذي سأرسلك اليه ، فليس له مكان معلوم •• ويكفي ان تسأل عن جونشون « ميرابو الشعب » فيقودك الجميع اليه • والآن اذهبا في حراسة الله •

وانطلق الفيلسوف الى الانفليد يتبعه عشرون الفا من الرعاع • بينما سار خمسة آلاف خلف بيلو في طريقهم الى الباستيل •

وبدأت الجموع تتحرك حين سمعوا صوت حاكم المدينة وهو يصيح فيهم :

ـ كيف تضعون الشارة الخضراء في قبعاتكم وهي رمز لاعوان كونت دارتوا عدو الشعب اللدود ؟

فصاح بعضهم : انها رمز للامل •

ـ نعم •• ولكن اللون الذي يدل على الامل هو نفسه شعار الكونت دارتوا • فهل تشعرون بالاطمئنان الى شارة احد الامراء •

ـ كلا • كلا •

ـ اذن فلتغيروا شارتكم باخرى تتفق مع اغراضكم •

فصاح كثيرون : اذن فلتكن شارتنا من اللونين الاحمر والازرق ••

وعلى اثر هذه الكلمات نزع الجميع شارتهم الخضراء ووطئوها باقدامهم •• وفتحت نوافذ المنازل في تلك اللحظة وتساقطت فوق المتظاهرين قطع كبيرة من القماش الاحمر والازرق ، فاقبلوا عليها يمزقونها قطعا صغيرة وضعوها في قبعاتهم فكانت شارة الشعب رمزا للثورة •

ومن ثم انطلقوا الى الباستيل •

وكانت هناك جموع محتشدة في ساحة الباستيل ، عندما بدت طلائع جماعة بيلو ••

وكان لظهور هذه الجماعة اكبر الاثر في نفوس المحتشدين ، فبدأوا يهتفون وهم يلوحون بقبضاتهم مهددين :

ـ لتسقط المدافع ! لتسقط المدافع •

وكان رسول حاكم باريس قد وصل في تلك اللحظة الى الباستيل وقابل الحاكم • وحينئذ رأى الثائرون رجال مسيو دي لوناي يسحبون المدافع من القباب •

صفق الرعاع بايديهم طربا • اذ اعتقدوا انهم اصبحوا قوة لا يستهان بها •

★ ★ ★

ووقف بيلو يحملق في ذلك الحصن الرهيب • وقد استولى عليه الجزع ثم هز رأسه في أسى وهو يغمغم :

ــ يخيل الي اننا لن نستطيع اقتحام الباستيل مطلقا ٠

فاجاب صوت رفيع من الخلف :

ــ ولماذا لن نستطيع يا سيدي ؟

فالتفت بيلو الى المتكلم ٠ فرأى رجلا ذا سحنة كئيبة ٠ يرتدي اسمالا بالية بينما كانت عيناه تلمعان ببريق مخيف ٠

فقال بيلو : لانه اشبه بالقلاع منه الى السجون ٠

فقال الرجل : ان الاستيلاء على الباستيل ليس عملية حربية ولكنه مسألة تتوقف على قوة العزيمة والايمان بالفوز ٠

قال بيلو ٠ وهو يبحث في جيبه عن جواز المرور :

ــ صبرا يا سيدي ٠٠

فقهقه الرجل وصاح في صوت قاس :

ــ صبرا ! آه ٠٠ يخيل الي انك لست جائعا مثلنا ٠ فماذا يضيرك من الانتظار ٠

انظر الى هذه الهياكل البشرية المعروفة التي تحف بك ٠ ثم سائل نفسك : هل تستطيع ان تحتمل الجوع كما احتمله هؤلاء التعساء ؟

فقال بيتو : مرحى ٠ مرحى ٠٠ انك لخطيب مصقع بغير شك ولكنك تخيفني يا رجل ٠٠ فقال بيلو : ولكنه لا يخيفني انا ٠

وتحول الى الرجل وقال :

ـ انتظر .. ولكن ثق يا صديقي ان انتظارك لن يطول اكثر من ربع ساعة ، وعندئذ ترى بعينيك ما سافعل .

فقهقه الرجل للمرة الثانية . ولكنها كانت ضحكة مخيفة .. ثم قال :

ـ حقا .. ان ربع ساعة ليست بالمدة الطويلة . ولكن خبرني لماذا سننتظرها ؟

ـ لانني سأدخل الباستيل . لاعرف نوايا حاكمه . ثم لاستطيع ان ادرس عن كثب طرقه ومسالكه واعرف عدد حاميته وعدده .

ـ هذا عظيم لو انك استطعت مغادرة السجن .

ـ ولنفرض انني لم استطع الخروج . فهناك رجل سوف يعمل على اخراجي منه .

ـ ومن يكون هذا الرجل ؟

ـ انه جونشون « ميرابو الشعب » .

ذعر الرجل .. وبرقت عيناه . ثم قال :

ـ وهل تعرف جونشون ؟

ـ كلا . ولكني سأتعرف به عما قريب . فقد قيل ان في استطاعتي الاتصال به اذا ذكرت اسمه لاي عابر سبيل امام الباستيل .

ولما كنت انت اول شخص التقيت به فارجوك ان تذهب بي اليه ..

ـ وماذا تريد منه ؟

ـ اريد إيصال هذه الرسالة اليه .

ـ وممن هذه الرسالة ؟

ـ من مارا الطبيب .

ـ من مارا الطبيب ! هل تعرف مارا ؟!

ـ نعم .. انني كنت في رفقته منذ عدة دقائق .

ـ أيــن ؟

ـ في مجلس بلدي باريس .

ـ واين ذهب .

ـ الى الانفليد ليسلح عشرين الف رجل ..

ـ اذن اعطني هذه الرسالة ، فانا هو جونشون .

فتراجع بيلو خطوة الى الوراء .. وصاح : انت جونشون ؟!

فالتفت ذو الاسمال البالية الى المحيطين به .. وقال :

ـ ايها الاخوان .. هاكم رجلا لا يعرفني ..

فضحك الجميع .. كانوا يعتقدون ان ما مــن احد يجهل شخصيــة جونشون « ميرابو الشعب » .. هتفوا : يحيا جونشون ! يحيــا خطيب الشعب !

فمد بيلو يده بالرسالة الى جونشون .. فتناولها الرجل .. ومــا ان قرأ محتوياتها .. حتى هتف قائلا :

ـ اخواني .. ها كم اخا جديــدا يزكيه مــارا .. واكبر ظني ان في استطاعتنا الاعتماد عليه ..

فصاح الكثيرون : وفيم سنعتمد عليه ؟
فقال جونشون :
ـ في الاستيلاء على الباستيل ايها الاخوان .
وهتف بيلو :
ـ نعم . سنستولي على الباستيل ، ولكن اخبرني يا جونشون ايها الشجاع ، كم لديك من الرجال تشد بهم ازري في هذه المعركة ؟
ـ في استطاعتي ان اضع تحت امرتك ثلاثين الف رجل ..
فقال بيلو :
ـ هذا عظيم .. وعما قريب يعود مارا من الانفليد ومعه عشرون الفا مسلحين ، وفي هذا العدد الكفاية لكي ننتصر .
والآن ناد رجالك ، وسادخل انا الى الباستيل لاقابل حاكمه ، فاذا قبل تسليم السجن ، كان بها . اما اذا رفض واريقت الدماء فستقع التبعة على عاتقه .
ـ وكم من الوقت تعتقد انك ستقضي داخل السجن .؟
ـ اذا لم اغادره بعد ساعة : هاجموه ..
وتصافح الرجلان ..
وانطلق بيلو ، فدخل الباستيل ، وعاد جونشون يشق طريقه وسط الجموع الحاشدة التي كانت تهتف في صوت له قصف الرعد :
ـ يحيا جونشون .! يحيا ميرابو الشعب .!

الفصل الثاني عشر

الباستيل

وكان الداخل الى الباستيل يمر تحت نفق تعلوه قبتان متشابهتان ، وعند مدخل السجن يقف صفان من الجند يقومان على حراسته ، فاذا ما تخطى الداخل نطاق هذا الحرس القى نفسه امام جسرين متحركين يؤديان الى ساحة صغيرة امام منزل الحاكم ..

ويمتد من هذه الساحة ممشى طويل يؤدي الى خنادق الباستيل ، وفوق هذه الخنادق يقوم جسر آخر متحرك ومخفر للحراس ، ثم تأتي بعد ذلك البوابة الحديدية الضخمة المؤدية الى داخل البناء .

★ ★ ★

عبر بيلو الجسر الاول ، عندما تصدى له الحراس واوقفوه ، فابرز لهم الجواز الذي زوده به حاكم باريس ، وعندئذ سمحوا له بالمرور .

ولاحظ بيلو ان بيتو يتبعه ، فتحول اليه وقال :

ـ عد الى رفاقك وذكرهم باني ان لم اعد اليهم بعد ساعة واحدة ، فليقتحموا السجن ويعملوا على اخراجي .!

فقال بيتو :

ـ حسنا يا سيدي •• ولكن اذا حدث واصبت بمكروه فمـاذا افعل بصندوق الدكتور جيلبر •؟

فبدا التفكير على وجه بيلو • ثم قال :

ـ اذا قدر لي الا اخرج من الباستيل حيا • واذا فشل جونشون في الاستيلاء عليه • واستولى عليه ولم يعثر علي • والتقيت بالدكتور جيلبر ، فابلغه ان رجالا من باريس جاءوا الى المزرعة وسرقوا الصندوق الذي عهد بحفظه الي منذ خمس سنوات • وانني لم اكد اكتشف السرقة حتى جئت الى باريس سعيا للقائه وانذاره فلما علمت بامر سجنه في الباستيل• حاولت اقتحامه واخراجه بالحسنى او بالقوة • بيـد انني لاقيت حتفي في هـذه المحاولة •

فقال بيلو :

ـ حسنا يا سيدي • انها قصة طويلة واخشى ان انساها •

ـ اذن فسأعيدها على مسامعك •

وسمع بيلو ، صوتا هامسا يقول :

ـ كلا • من المستحسن ان تكتب له ما تريد ابلاغه الى الطبيب !

فقال بيلو : ولكني لا اعرف الكتابة يا سيدي •

ـ اذن فلأنب عنك • وانا ادمي ستانسيلوس ميلارد ، حاجب بمحكمة شاتليه ••

واخرج الرجل قلما وورقة • ثم قال في هدوء :

ـ انك تقول ان رجالا من باريس قد سرقوا الصندوق من مزرعتك •

ـ نعم ••

ـ ولكن هذه جريمة يعاقب عليها القانون يا سيدي •

ـ ان السارقين من رجال البوليس •

فغمغم ميلارد : وليكن يا سيدي •

وناول الورقة الى بيتو • ثم قال :

ـ هاك المذكرة يا ولدي • فاذا قدر لكما ان تموتا ، حملت الرسالة الى صاحبها بدلا عنكما •

وكان الحاجب طويل القامة نحيفها • يبدو على وجهه دلائل الرزانة والثبات وتتراوح سنه بين الخامسة والاربعين والخمسين •

وقال بيلو : شكرا لك يا سيدي ؟

ومد يده فصافح ميلارد ثم اردف : اذن هل استطيع ان اعتمد عليك ؟

ـ كما لو كنت ستعتمد على مارا او جونشون •

ودار بيتو على عقبيه وعاد الى الخارج •

اما بيلو فقد واصل طريقه حتى وصل الى ساحة منزل الحاكم •

★ ★ ★

واستقبل الحاكم بيلو في ساحة المنزل ••

سأل : ماذا تريد مني مرة اخرى يا سيدي ؟

فصاح بيلو : مرة اخرى !! ان هذه اول مرة اراك فيها يا سيدي ••

ـ ظننتك الرسول الذي جاء من قبل المجلس البلدي الان ، وطلب الي الا ابادىء الغوغاء العدوان ••

ـ وهل وعدت بذلك ؟

ـ نعم • كما طلب الي كذلك ان ارفع المدافع من اماكنها •

ـ نعم •• نعم •• فقد رأيت رجالك يرفعونها عندما كنت في الساحة•

ـ ولا شك انك اعتقدت انني رضخت لتهديدات الرعاع ؟

ـ هذا هو المنطق المعقول على ما اظن ••

فتحول دي لوناي الى ضباطه وصاح :

ـ ألم اقل لكم ذلك ايها السادة ؟ ألم اقل لكم ان الغوغاء سيعتبرون هذا العمل من جانبنا دلالة على الخوف والجبن ••

ثم تحول الى بيلو ••وسأل : ومن الذي ارسلك يا سيدي ؟

فأجاب الفلاح في خيلاء : انني قادم بالنيابة عن الشعب ٠
فابتسم حاكم الباستيل ٠٠ وقال :
ــ حسنا ٠٠ ولكنني اعتقد ان لديك توصية اخرى ٠ والا لما استطعت الوصول الى هنا ٠

ــ نعم ٠٠ فانا احمل اليك رسالة من صديقك فليسي ٠
ففغر دي لوباي فاه دهشة ٠٠ ثم هتف :
ــ فليسي : ومن انبأك انه صديقي ؟
ــ هذا ما خيل الي يا سيدي ٠٠
ــ خيل اليك ! حسنا ٠٠ أين هذه الرسالة ؟

فقدم بيلو الرسالة الى حاكم الباستيل ٠٠ الذي قرأها واعاد قراءتها للمرة الثانية ٠ وهو يبحث بين سطورها عما اذا كان هناك معنى خفي يرمي اليه كاتبها ٠٠ وعرض الرسالة للضوء كذلك وهو يأمل ان يرى كلمات مكتوبة بحبر غير ظاهر ولكنه عبثا فعل ٠

فلما اعيته الحيلة ، تحول الى بيلو ٠٠ وقال :
ــ ان الامر غريب يا سيدي ٠٠ على العموم ٠٠ ماذا تريد مني ؟
فقال بيلو في صوت عميق :
ــ ماذا اريد ؟! اريدك على ان تسلم الباستيل الينا ٠٠
فدار (دي لوناي) على عقبيه ، وواجه الفلاح وهو منتفخ الاوداج من الغضب وصاح : ماذا تقول ٠؟

ــ اقول انني جئت اطالبك بتسليم الباستيل باسم الشعب ٠٠
ــ وماذا تريدون من الباستيل ٠؟
ــ نريد هدمه ٠٠
ــ وما شأن الشعب بالباستيل ٠؟ هل سبق ان القى احد افراده بين جدرانه ٠؟ على العكس ، انه من واجب الشعب ان يمتدح وجود الباستيل ،

فان الفلاسفة والعلماء والارستقراطيين والوزراء والامراء ـ وهـم اعداء الشعب ـ هم زوار الباستيل ..

فقال بيلو : وفي هذا دلالة على ان الشعب لا يعتز بنفسه ..

فاستطرد دي لوناي قائلا :

ـ يبدو انك لم تكن جنديا من قبل .؟

ـ هذا صحيح يا سيدي .. فما انا الا فلاح .. ومن سكان القرى .

ـ اذن فانت لا تعرف شيئا عن الباستيل ..

ـ نعم .. وكل ما اعرفه عنه .. هو ما رأيته الان فقط .

ـ اذن تعال معي وانا اطلعك على خفاياه ..

فانزعج بيلو .. وشعر بالذعر .. ولكنه ظل هادئا .. مسيطرا على اعصابه .

وقال الحاكم : اعلم يا صديقي ان لدي من البارود ما يكفي لتدمير الباستيل ونصف ميدان فوبرج سان انطوان .!

ـ اعرف ذلك ..

ـ حسنا .. والآن انظر الى هذه المدافع الاربعة .!

ـ انني أراهم ..

ـ انهم حراس الباستيل الامناء .

انظر الى سمك الجدران .

فقال بيلو :

ـ انني لا اشك في مناعة السجن .. ونحن لا نحاول نسفه من الخارج .. ولكنه سيكون سهلا متى استولينا عليه .

ـ دعنا نرتقي هذا الدرج لاطلعك على وسائل الدفاع عن الباستيل .

وارتقيا ثلاثين درجة . ثم توقف الحاكم واشار الى مدفع ضخم وقال:

ـ ان لهذا المدفع شهرة عظيمة .

وواصلا الصعود الى اعلا البناء . وعندئذ صاح بيلو :

ـ آه ! اذن فانت لا زلت محتفظا بالمدافع في اماكنها •• كل مـــا في الامر انك اخفيتها عن العيان فقط • حسنا •• لا بد ان اطلع الشعب على هذه الحقيقة متى عدت اليه ؟

فهز حاكم الباستيل كتفيه غير مكترث •

ـ اذن فانت تصر على بقاء المدافع في اماكنها ؟

ـ ان مدافع الملك هنا بأمر الملك •• ولا يمكن رفعها من مكانهـــا الا بامر جلالته •

فشعر بيلو بدقة الموقف • صاح بصوت حاد :

ـ سيدي •• ان الملك الحقيقي الذي تجب عليك الان طاعته هم اولاء الذين تراهم في الميدان •

واشار باصبعه الى الثائرين •

فتحول دي لوناي الى الفلاح • وقال في كبرياء :

ـ سيدي •• من المحتمل انك تعتقد ان في المملكة ملكين •• بيد انني ـ بصفتي حاكما للباستيل ـ لا اعرف الا ملكا واحدا هو لويس السادس عشر • الذي عهد الي بالقيام على شؤون هذا السجن ، واعطـــاني حريـــة التصرف في الرجال والمكان •

فصاح بيلو في غضب : اذن فانت لا تعترف بانك من افراد الشعب ؟

فقال الحاكم : انني جندي يا سيدي • والجندي ينفذ اوامر رئيسه •

فقال بيلو : وانا مواطن فرنسي يا سيدي • وواجبي كمواطن يتعارض مع اوامرك كجندي •• فيجب ان يموت احدنا •

ـ هذا محتمل •

ـ واذن فانت تصر على اطلاق النار على افراد الشعب ؟

ـ كلا ! ما لم يبدأوني بالعدوان •

فهز بيلو رأسه في اسى ، وجذب دي لوناي من يـــده • واشار الـــى الثائرين ••

وقال : هؤلاء هم من ستتلقى منهم اوامرك في المستقبل ..

فامتقع وجه الحاكم حين وقع بصره على تلك الجموع الزاخرة ، وهي تلوح باسلحتها في الهواء متهددة متوعدة ..

وصاح : اعدوا المدافع للقتال .

ثم التفت الى بيلو ، وقد بدت في عينيه نظرة رهيبة ، وصاح :

ــ اما انت ايها التعس فتستحق ان تشنق .

ومد يده الى قبضة حسامه ، بيد ان بيلو اسرع وحمله بين ذراعيــه القويتين وهو يقول :

وانت تستحق ان قذف بك الى الشعب كي يمزقك اربا !

ودوى الميدان في تلك اللحظة بصرخات الشعب الثائر وصيحاته القوية.

وجاء احد رجال الباستيل يهرع الى بيلو وصاح به :

ــ سيدي ، ان الشعب الثائر يطلبك ، فارجو ان تطل عليه حتى يطمئن على سلامتك .

فاعاد دي لوناي حسامه الى غمده ، وهتف :

ــ اذن فاطل عليهم يا سيدي ، ولكن اعلم انني لم ابق عليك خوفا من بطشك ، وانما لانني رجل شريف يحترم كلمته .

واطل بيلو برأسه من احدى النوافذ واشار الى جماهير الشعب بيديه وعندئذ ضج الميدان ، ودوى باصواتهم المزعجة .

ولما انسحب بيلو من النافذة ، قال دي لوناي :

ــ سيدي ، باسم الملك اطلب اليك مغادرة السجن على الفور .

ــ وانا باسم الشعب اطلب اليك تسليم الباستيل دون اهدار دم رجل واحد .

ــ اذا لم تغادر السجن على الفور امرت رجالي باطلاق النار عليك .

كانت لهجته حاسمة ، فرفع الفلاح قبضته متحديا ، وصعــده بنظرة تهديد كانت ابلغ من الرد ، ثم نكص على عقبيه واخذ طريقه الى الخارج .

الفصل الثالث عشر

سقوط الباستيـل

كان هياج العامة قد بلغ اشده عندما غادر بيلو الباستيل ، وكان مارا وجونشون قد اقبلا بالمدد ، فامتــلأ الميدان وما يجاوره مــن الشوارع والطرقات بكتل بشرية لا عداد لها .

واختفي مارا على اثر احضار المدد . اما جونشون فقد تقدم من بيلو وسأله في لهفة : ماذا وراءك ..

فقال بيلو : ان حاكم الباستيل رفض التسليم باباء ..

فقال جونشون :

اذن فلم يعد امامنا غير سبيل واحد . وان كان هذا السبيل سيكلفنـا غاليا من الرجال والانفس .

وتحول الى الرعاع وسأل : أليس كذلك يا اصدقائي ..؟

فانطلقت صيحات التأييد من الوف الحناجر .. معبرة عن الاستهانـة بالموت في سبيل نصرة الحق والحرية .

فقال بيلو : ولكن كيف السبيل الى عبور الخندق ..؟

فاجاب جونشون . هذا سهل يا صديقي .. فحسبنا ان نعبره على جثث الضحايا ..!



وصعد (دي لوناي) والماجور (دي لوسم) واثنان من ضباطه فوق سطح الباستيل في تلك اللحظة • فرفع جونشون يده صوبهم متوعدا وصاح : هيا ابدأوا ••

فالتفت دي لوناي ناحية الغوغاء ، ولكنه لم يتكلم ، فاغاظ ذلك جونشون •

فرفع بندقيته ، واطلقها على الحاكم ، ولكنه اخطأه ، واصابت الرصاصة احد رجاله فاردته قتيلا ••

واثار ذلك الرعاع ، فانطلقت عشرات ، بل مئات ، بل الوف البنادق تشق الهواء ، بزئير اشبه بزئير بركان ثائر ينذر بشر مستطير •!

وساد الصمت قليلا •• كأنما ندم الرعاع على حماقتهم •

وفجأة لمع وميض خاطف من احدى ثغرات الباستيل ، ثم اهتزت الارض بقوة ومادت ••

وارتفعت حشرجة المختصرين • وتأوهات الجرحى •

وبدأت المعركة ••

وانقلب تهديد الرعاع الى ذعر ويأس • فهم لم يتوقعوا ان يصر حاكم الباستيل على الدفاع عن حصنه •• بقدر مما كانوا يعتقدون ان الاستيلاء عليه عمل ثانوي لا يصح ان يضعوه في المرتبة الاولى من اهتمامهم •

وانهالت بعد ذلك مئات الطلقات النارية فوق الرعاع كالوابل المدرار •

وساد الصمت مرة اخرى •• فلم يكن يسمع غير التأوهات والانات •

ولكنه السكون يسبق العاصفة •• فقد كان الرعاع يعتبرون الفرار في ذلك الموقف الدقيق عملا يدل على الجبن والنذالة ••

وبدأوا يطلقون النار على جدران الباستيل • حتى كلت سواعدهم •• والباستيل رابض في مكانه يهزأ بهم ويسخر من حماقتهم •

وادركوا اخيرا عبث القتال على هذا النحو •• فبدأوا يتشاورون ، وتقدم كثيرون باقتراحات ظنوا انها تمكنهم من الاستيلاء على الباستيل •

ولكنها كانت اقتراحات تدل على الجنون ولم ترق في عين بيلــو ٠ فتسلل في هدوء ٠ وسار صوب نقطة الحرس القريبة من الجسر الاول ٠٠ والرصاص يتساقط من حوله كالمطر الغزير ٠

وارتقى بيلو الدرج الموصل الى سطح المخفر غير عابىء بالموت الــذي يتهدده بين لحظة واخرى ٠

واستعان ببلطة صغيرة ٠ وبعضلاته الفولاذية على تحطيــم السلاسل التي ترفع الجسر ٠

وسقط الجسر فوق الخندق ، محدثا صوتا مزعجا ٠

وكان الرعاع يراقبون ذلك العمل العظيم في لهفة شديدة ٠ فمــا ان سقط الجسر ، حتى بدأوا يتدافعون داخل الساحة ، وقــد انطلقت مــن حناجرهم صيحات الفوز والانتصار ٠

وادرك دي لوناي عقم الدفاع بالبنادق بعد ان تمادى الرعــاع فــي حماقتهم ٠ فامر رجاله باطلاق المدافع عليهم ٠

وانطلقت المدافع الاربعة تزلزل الارض ٠٠ وتحصد الرعاع حصداً ٠٠ وسال الدم انهارا ٠٠ وسقط عشرون قتيلا في ساحة الباستيل ٠

وتسلل بيلو من فوق سطح المخفر ٠ وهبط الى الارض ٠

وكان بيتو قد لحق برفيقه عند المخفر في تلك اللحظة ٠ فجــذب بيلو واحتميا باحد الجدران ٠ وبذلك امنا الموت مؤقتا ٠

وبدأ الرعاع يطلقون بنادقهم ٠ وقد استهوتهم نشوة هذا الانتصار ٠

★ ★ ★

وفيما كان الرعاع يرفعون قتلاهم ٠ اقبلت جماعة صغيرة من المواطنين وهم يحملون علما ابيض دلالة على الهدنة ٠

وتقدمت هذه الجماعة نحو الساحة غير عابئة بالموت ٠ وذهل الرعــاع واخذتهم الدهشة ٠ فكفوا عن القتال لحظات ٠

وصاح احد القادمين :

ـ لقد جئنا نحمل رسالة لمسيو دي لوناي من مسيو فليسي حاكم باريس فافسحوا لهم الطريق •

★ ★ ★

واقترب جونشون من بيلو • وقال :

ـ ماذا حل بالرسل ؟

فاجاب بيلو : لقد دخلوا السجن • فاطلب الى الرجال ان يكفوا عن اطلاق النار • احتراما لقوانين الحروب •

فتحول جونشون الى رجلين بجانبه • وقال :

ـ اذهبا الى الرجال واطلبا اليهم الكف عن اطلاق النار •

فانصرف الرجلان لتنفيذ الامر • وما هي الا لحظات حتى ساد صمت رهيب • وانتهز الرعاع فرصة الهدنة • فبدأوا يعنون بامر جرحاهم •

ودقت ساعة الحصن في تلك اللحظة • فهتف جونشون :

ـ يالله • لقد مضت ساعتان على بداية المعركة ، فاذا مرت ساعتان اخريان دون ان يسقط الباستيل فقد هلكنا •

ـ ولماذا ؟

ـ ذلك لانني سمعت ان الملك اصدر امره الى فريق الحرس السويسري والفرسان بمحاصرتنا والقضاء علينا ، اذا لم ننسحب من امام الباستيل حتى الساعة الرابعة •

وغادر رسل مسيو دي فليسي الباستيل •

وكانت نظرة واحدة الى وجوههم المتجهمة كافية لان تدل بيلو على انهم اخفقوا في مهمتهم •

والواقع ان دي لوناي رفض الاصغاء الى نصح دي فليسي • ومفاوضة الرعاع •

وبالرغم من ان الرسل بينوا له نتائج تهوره وعناده • الا ان دي لوناي اصر على الدفاع عن عرينه مهما كانت النتيجة •

وامر الرسل بمغادرة الباستيل على الفور •

★ ★ ★

قفز جونشون • فوق احد الاحجار • وصاح :

ــ الى السلاح ••! الى السلاح ••

واجاب حراس الباستيل هذا النداء بوابل من نيرانهم •• فقتل احد رجال الحرس • ورسول من رسل دي فليسي •

واثار قتل الرسول حماسة الرعاع وسخطهم •• فبدأوا يصرخون ويزأرون •

واسرع ساعدا جونشون ــ ايلي وهلن ــ بالوقوف الى جانبه • وكان اولهما يرتدي ملابس ضابط هنغاري • والاخر ملابس حرس الملكة •

وكان مرأى الضابطين باعثا على اثارة الحماس في قلوب الرعاع •• فتدافعوا نحو الحصن وهم يطلقون بنادقهم غير عابئين •

★ ★ ★

وكان دي لوسم قد ادرك ان الحالة تزداد حرجا • فاقترب من مسيو دي لوناي •• وقال : سيدي •• ارجو ان تذكر قلة المؤونة لدينا •

فاجاب الحاكم : اعلم ذلك •

ــ كما انه ليست لدينا اوامر •

فدار دي لوناي على عقبيه •• وواجه مساعده قائلا :

ــ معذرة • ولكنني اعتقد انني اصدرت امرا بابقاء الابواب مغلقة

وللمرة الاولى في حياته •• خرج دي لوسم عن احترامه لرئيسه وصاح:

ــ سيدي •• ان الاستمرار على تحدي الشعب الثائر معناه حدوث مذبحة هائلة •

ـ أهكذا يتكلم الجندي الى رئيسه يا مسيو لوسم ؟

ـ انني اتكلم كمواطن فرنسي يحب الخير لبلاده يا سيدي ، لقد عرض علينا دي فليسي ان نضم الى حرس الباستيل مائة من الشعب وبذلك تتفادى غضبهم . ولما لم تكن لدينا اوامر تحول دون ذلك .. فاكبر ظني ان ذلك هو الطريق الوحيد الذي يمكننا من تجنب الكارثة .

فتداعبت على شفتي دي لوناي ابتسامة ماكرة .. وانتحى بوكيله ناحية منعزلة .. ثم اطلعه على رسالة دي فليسي :

« قاوم الى النهاية .. فانني امني الباريسيين بالوعود والشارات .. ولسوف يصلك المدد من مسيو دي بسنفال قبل الغروب » .

« دي فليسي »

فبدت الدهشة على وجه الماجور وسأل :

ـ وكيف وصلتك هذه الرسالة يا سيدي .؟

ـ داخل المظروف الذي حمله الى الرسل ، فهم كانوا يعتقدون انهم يحملون الي رسالة من فليسي بتسليم الباستيل ، ولم يدر بخلدهم انهم يحملون الي الامل ، والامر بالمقاومة الى النهاية .

والآن عد الى عملك يا مسيو دي لوسم ، ولا تغادر مركزك حتى ارسل اليك .

وعاد مسيو دي لوناي الى رجال المدفعية ، وامرهم باطلاق النار على الغوغاء دون هوادة .

وزأرت المدافع .. واخرجت من جوفها هلاكا وموتا ذريعا .

ولكن انى للانسان ان يحول دون وقوع المقدور .!

فكلما اشتد اطلاق المدافع كلما اشتد سخط الرعاع وحنقهم وازدادوا ايمانا بعقيدتهم :

« مهما يكن من امر فسنستولي على الباستيل » ..

وكان بيلو قد وثب الـى الطليعة ، وراح يستحـث الهمم ويشجـع المهاجمين ..

واما بيتو فكان يراقب تطورات الموقف في حذر وبعين يقظة حتى اذا رأى خطرا يهدد صديقه بادر الى انقاذه وابعاده عن موطن الخطر .

★ ★ ★

وكان الرعاع قد استطاعوا الوصول الى الجسر الثاني الموصل الـى مدخل الباستيل .

وصاح بيلو يطلب الى الرعاع ان يوافوه بمدفع من المدفعين الصغيرين اللذين استولوا عليهما من مجلس بلدي باريس ..

كان يرجو ان ينسف الجسر ، ويفتح الطريق الى الباستيل .

وتراجع الجميع الى الخلف ، تاركين بيلو يعد المدفع ويطلقه ..

ورأى بيتو دقة موقف صديقه ، فخف اليه وهو يصيح في ضراعة :

ــ مسيو بيلو ! باسم ابنتك كاترين اتوسل اليك ان تفكر في دقـة مركزك .. واخشى ان تصيبك احدى القذائف فتتيتم الفتاة .!

فلم يعبأ بيلو بهذا الانذار .. وصرخ قائلا :

ــ الي بعربة صغيرة .!

ورأى بيتو في ذلك فرصة لابعاد صديقه عن منطقة الخطر . فجذبـه اليه وهو يصيح : الينا بعربتين ..! الينا بعربتين ..!

وما هي الا لحظات حتى جيء بعربتين .

صاح بيلو .! اريد قشا ..! اريد قشا ..!

وردد بيتو صيحة صديقه .

فسارع البعض باحضار كميات من القش . وضعوها فوق العربتين .

وعندئذ دفع بيلو احدى العربتين امامه . ودفع بيتو الثانية . وهـو لا يدرك ما يرمي اليه صديقه .

كل ذلك وحراس الباستيل يطلقون مدافعهم على الرعاع محاولين وقف تقدمهم ، ولكن الرعاع كانت قد أخذتهم الحماسة عندما رأوا بيلو يتقدم الى الموت غير هياب ولا وجل ، فاندفعوا غير آبهين بالنيران المنصبة عليهم .

ووصل بيلو وبيتو بالعربتين تحت الجسر ، واخرج بيلو عود ثقاب من جيبه . واشعل القش ونكص على عقبيه .

واندلعت النيران في القش والعربتين ، ووصل لهيبها الى الجسر وبدأ يحترق .

وتأثرت السلاسل الحديدية وانفرجت حلقاتها ، وعندئذ سقط الجسر وسط هتاف الرعاع وحماستهم .

واسرع بعض الرجال باخماد النيران قبل ان تأتي على الجسر ويحال بينهم وبين عبور الخندق الثاني .

★ ★ ★

وامر دي لوناي رجاله باطلاق المدافع على الغوغاء . بيد انهم رفضوا اضاعة الامر ، فقد ادركوا ان المقاومة اصبحت لا تجدي بعد ان وصل الرعاع الى ساحة الباستيل الخارجية .

وهرول دي لوناي الى سطح الباستيل ، وهو يتلفت حوله . لعله يرى طلائع المدد الذي وعده به دي فليسي . فخاب ظنه .

اسقط في يده . وادرك ان الخاتمة قد دنت . فاسرع نحو مخازن البارود كالمجنون .

وفهم الكثيرون مرماه . فوقف اثنان من الحراس في وجهه .

وتجول دي لوناي الى الرعاع . وصاح :

ــ اصغوا الي .. لم يبق ثمة غير احد امرين : اما ان تبتعدوا عن ساحة الحصن . او اشعل النار في مخازن البارود ، فانسفه . واقتلكم .

كان قد عول على نسف الحصن .

فادرك المهاجمون دقة موقفهم ، وتملكهم الذعر •
صاح بعضهم : ماذا تريد ؟
فاجاب : فلنتفاهم مليا •
كان دي لوناي يدرك انه هالك لا محالة ، بسبب كره الشعب المتأصل له • لما عرف عنه من الغلظة والقسوة واحتقاره لمواطنيه •
وكان بيلو يدرك ان نسف الحصن معناه قتل الدكتور جيلبر • الامـر الذي يفتدي وقوعه بحياته ••

فاسرع الى الطليعة •• وصاح :
ــ باسم المساجين الابرياء اطلب اليك وقف الحصار •
وتقهقر الرعاع ، فهم كانوا يعتبرون بيلو قائدهم في تلك المعركة الدموية
فصاح دي لوناي في وحشية :
ــ اني آمركم بالانسحاب •• فان لم تذعنوا فلن اصغي الى حديثكم •
فسأل بيلو : وكيف السبيل الى التأكد من انك لن تستغل انسحابنـا •• فتعمل على تقوية دفاعك ؟
فأجاب دي لوناي :
ــ أؤكد لكم انه اذا فشلت المفاوضات • فانكم ستجدون الحالة على ما هي عليه الآن •
ــ هل تعد بذلك ؟
ــ اقسم بشرفي ••
فهز البعض رؤوسهم نيفا •• فاغاظ ذلك دي لوناي وصاح :
ــ ألم يكفكم انني اقسم بشرفي •• وهو شرف جندي •
فصاح البعض : كلا • كلا • كلا •
ــ اذن علي بقلم وورقة ••
وفي الحال جاء له بعض رجاله بما طلب •
وتحول الحاكم الى الرعاع •• وصاح : والآن •• تقهقروا ••

فتراجع الرعاع ، بينما بدأ (دي لوناي) يكتب شروط الصلح •!

وتجمهر الحراس حول حاكمهم وهم يرمقونه في لهفة •• كانوا يعلمون ان مصيرهم معلق على نتيجة المفاوضة ••

★ ★ ★

وفي الساحة الخارجية •• وقفت الوف من الخلائق في انتظـار نتيجة الهدنة بفارغ الصبر •

ومضت عدة دقائق ، والعيون معلقة ببوابة الباستيل في قلق ولهفـة واقبل احد الجنود يحمل رسالة (دي لوناي) معلقة فوق سيف •

وكان هناك مستنقع من الطين والماء بين الرعاع وبين باب الباستيل • ولما كان الوصول الى الباب يستلزم عبوره فقد امر بيلو فجيء بلـوح من الخشب • وصل بين الجفاف من الضفتين بصعوبة •

وبقدم ثابتة بدأ بيلو يسير فوق اللوح ، تتبعه اعين الآلاف من الرجال والنساء والاطفال ، وقلوبهم واجفة •

وجلس بيتو عند حافة المستنقع ، وعيناه تتبعان صديقه في هلع •

وظل بيلو يتقدم فوق اللوح الى ان عبر ثلثيه •• وعندئذ اهتز اللوح، ففقد الفلاح توازنه وسقط في المستنقع •

واغرورقت عينا بيتو بالدموع ، والقى بنفسه وراء صديقه •

وحبس الحاضرون انفاسهم •• وعندئذ تقدم رجل طويل القامة مـن اللوح وبدأ يعبره في خطا ثابتة متزنة •

ولم يكن هذا الرجل سوى (ستانسيلوس ميلارد) الذي مر ذكره •

وعبر ميلارد الى البقعة التي هوى فيها بيلو ، والقى نظرة عليه وهو يحاول الوصول الى الشاطىء الآخر وسط الطين والماء •• ثم استـأنف سيره في هدوء •

ووصل ميلارد الى الضفة الاخرى سالما .. ثم مد يده وتناول الرسالة.
وبقدم ثابتة . بدأ ميلارد رحلة العودة .
وما ان وصل الى رفاقه ، حتى تجمهر الرعاع حوله والكل متلهف لمعرفة محتويات الرسالة ..

وفي اللحظة التالية تساقطت قنابل الحصن فوق الرعاع كالمطر ..
وعندئذ صاح جونشون : الى السلاح ..! الى السلاح ..!
فنسى الرعاع رسالة دي لوناي . واندفعوا نحو الحصن غير لاوين على شيء او عابئين بالمستنقع الذي يقف سدا في وجوههم ..
وفي لمح البصر مد الرعاع لانفسهم جسرا فوق المستنقع . وبدأوا يعبرونه في حماسة رائعة .

وادرك دي لوناي انه قد احيط به ولا مفر من الخاتمة المحتمة .. فعزم على نسف الحصن . ولكن رجاله كانوا له بالمرصاد . فجردوه من اعواد الثقاب وقبضوا عليه ..

وحاول اخراج حسامه من غمده . والتخلص من حياته ، مؤثرا الموت على الوقوع في ايدي الرعاع . ولكن رجاله لم يمكنوه من ذلك ايضا وجردوه من حسامه .. وحينئذ استسلم لحكم القدر .
وهكذا سقط اكبر حصن من حصون الاستبداد .

★ ★ ★

وبينما كان الرعاع يتدفقون الى داخل الباستيل وهم ثملون بنشوة الانتصار . كان بيلو وبيتو يحاولان الخلاص من المستنقع .
وهرع بعض الغوغاء لنجدتهم .. فالقوا اليهما الحبال .. واخرجوهما
وحينئذ تذكر بيلو الدكتور جيلبر . فدفع المحيطين به وهو يصيح :
ـــ الى المساجين ..! الى المساجين ..!

وهرول الى داخل الباستيل يتبعه بيتو ومئات من الغوغاء ..

واخذوا جميعا ـ بين صيحات التهليل والسخرية ـ يعملون الهـدم والتخريب في ارجاء ذلك الحصن الـذي ظل زهـاء الثلاثة قرون مقبرة للاحياء المغضوب عليهم .

★ ★ ★

وكان دي لوناي يقف في ساحة السجن حاسر الرأس . وقد اتكأ على عصاه الذهبية .

كان يتوقع قدوم اصدقائه لانقاذه ، او اعدائه للفتك به . وظل واضعا يده فوق قبضة حسامه استعدادا لقتل اول مهاجميه .

ووقع بصر بيلو على الحاكم . فبدرت من شفتيه صرخة خافتة . وتقدم نحوه في هدوء . وهو يأمل الا يتعرف رفاقه على الحاكم فيمزقوه .

وعرف دي لوناي بيلو ، فاستعد لتجريد حسامه .

تردد بيلو .

كان يخشى ان يتحدث اليه فيعرفه رفاقه ، ويقتلوه قبل ان يعرف منه مكان الدكتور جيلبر .

وكأنما ادرك الحاكم ما يجول بخاطر الفلاح فسأل في صوت هامس :

ـ ماذا تريد ؟

فقال بيلو وهو يشير باصبعه صوب البوابة . كأنما ليوحي الى الحاكم بان طريق الهرب ما زال مفتوحا امامه :

ـ لا شيء ! فاكبر ظني انني ساستطيع العثور على الدكتور جيلبر دون ارشادك .

فقال دي لواي في صوت رقيق . ودون ان يتحرك من مكانه :

ـ انه سجين في الغرفة الثالثة .

وفجأة . سمع بيلو صوتا من خلفه يصيح :
ـ آه !. هو ذا الحاكم !

وكان الصوت اجوف . هادئا ، كانما هو صادر من جوف الارض . وليس من فم بشر .. وكان المتكلم هو جونشون .

واثارت هذه الكلمات غضب الثائرين المتعطشين الى الدماء .

وتقدم جونشون من الحاكم وقد تجلت في عينيـــه نظرة وحشية .. وعندئذ قبض بيلو على ذراعه في عنف .. وهتف :

ـ انقذه ! انقذه !

فقال ايلي وهلن : ساعدنا .. ونحن ننقذه .

وانقض الرعاع على دي لوناي وجذبوه في عنف . فامتثل لهم الرجل دون مقاومة .

وصاح بيلو يخاطب ايلي وهلن :

ـ انني مضطر الى البقاء هنا . لانقاذ شخص يهمني امره .

وعندئذ . لم يجد الضابطان وسيلة يتذرعان بها . غير اعلان حقيقـــة مكذوبة ، وهي انهما وعدا الحاكم بالابقاء على حياته .

كانا يأملان ان يدخلا الرحمة في قلوب الغوغاء ، ولكنهما نسيـــا ان عاطفة الانتقام والثأر كانت قد تغلبت على النفوس الناقمة .

★ ★ ★

وهرول بيلو الى احد الخدم وطلب اليه ان يقوده الى الغرفة الثالثة .

★ ★ ★

وما هي الا دقائق حتى كان بيلو يهوي ببلطة غليظة ، فوق باب مصنوع من البلوط السميك ، واخذ عدد كبير من الغوغاء في معاونته على تحطيمه .

واخيرا .. وبعد مجهود جبار استطاع بيلو ان يحدث ثغرة في الباب .

واطل برأسه الى الداخل . فرأى رجلا منتصب القامة في وسط الغرفة وهو ينصت الى تلك الجلبة والضوضاء .

وعرف بيلو في السجين الدكتور جيلبر .

هتف الفلاح في لهفة : دكتور جيلبر ! دكتور جيلبر !

فصاح السجين : من الذي يناديني ؟

ــ انا بيلو .. صديقك !

ــ بيلــو ؟!

ــ نعم .. انا بيلو .

وصاح الجميع : نعم ! نعم ! نحن .. نحن اصدقاؤك .

ــ ومن تكونون انتم ؟

ــ من نكون نحن ؟! غزاة الباستيل .. لقد اندك صرح الظلم وسقط السجن وغدوت حرا .

فصاح الطبيب في دهشة :

ــ سقط السجن . وانا حر ؟!

ومد يداه خارج الفجوة . ثم هز الباب في عنف .. حتى لقد خيل الى بيلو ان الباب يوشك ان يتحطم ..

هتف الفلاح : صبرا لحظة .

وهوى بالبلطة فوق القفل الغليظ فحطمه ..

واندفع الى الداخل . يتبعه بيتو وبعض الغوغاء ..

وعانق الطبيب تابعه الامين .. ثم التفت الى بيتو وسأل :

ــ ومن تكون يا فتى ؟

ــ انني بيتو .. بيتو المسكين الذي شملته برعايتك . وعهدت الــى عمته انجليك بيتو بتربيته ..

نعم يا سيدي .. انني بيتو الذي جاء ليطلق سراحك ..

فعانق الطبيب الشاب ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الفرح •• ثم هتف :

ــ اذن فقد حان اليوم الذي تكهنت بمجيئه •• وسقطت قيود الاستعباد عن اعناق الشعب ••

وتحول الى الغوغاء •• وقال : شكرا لكم يا اصدقائي •

★ ★ ★

وغادر الطبيب سجنه الى ساحة الباستيل • فرأى تلك الجموع الحاشدة تملأ الساحة واصواتهم تشق عنان السماء ••

سأل : اذن فقد قهر الشعب الاستبداد ؟

ــ نعم يا سيدي •

ــ وانت جئت للقتال ؟

ــ انني جئت لاطلق سراحك يا سيدي ، فقد بلغني من سباستيان انك نزيل الباستيل ، فسعيت لاخراجك منه بالقوة •

فسأل الطبيب في لهفة : هل رأيت سباستيان ؟

ــ نعم يا سيدي •• وكان يحاول مغادرة المدرسة والمجيء لاطلاق سراحك •• ولكنني هدأت ثورة غضبه بالحلول مكانه ، وحينئذ لبث في مدرسته •

وامسك بيلو لحظة ثم عاد يقول :

ــ بيد ان لدي ما هو اهم من ذلك •• لقد سرق الصندوق الذي كنت قد عهدت الي بالمحافظة عليه •

فبدت الدهشة على وجه الدكتور جيلبر • وقال :

ــ سرق ؟ ولكن من الذي سرقه •• ومتى ؟

ــ لقد جاءني امس ثلاثة رجال في ملابس سوداء ، وقالوا انهم يحملون

امرا بالقبض علي لانني استبقي الكتاب الـذي ارسلته الي عن حريـة الشعوب ، ثم زجوا بي في احدى الغرف وقلبوا البيت رأسا على عقـب ، فعثروا بالصندوق واخذوه معهم •

فهز الطبيب رأسه عدة مرات • ثم قال :

ـ اكبر الظن ان هناك اتصالا وثيقا بين القبض علي وسرقة الصندوق •• فان الشخص الذي تسبب في نزولي الباستيل ضيفا ، هو الـذي دبر سرقة الصندوق •• فهلموا بنا الى قلـم محفوظات السجن لاطلـع على السجلات الخاصة بالمساجين ، حتى اعرف الشخص الذي دفع بـي الـى هذه المحنـة •

الفصل الرابع عشر

غضبة الرعـاع

ولم يكد جيلبر واتباعـه يصلون الى قلم المخفـوظات .. حتى رأوا جمهرة كبيرة من الرعاع يمزقون الاوراق ويحرقونها .

فاسرع الطبيب يحول بينهم وبين اتمام فعلتهم .

ولما رأى الرعاع ان الدكتور موضع احترام بيلـو وبيتو كفوا عـن احراق الاوراق .

وبدأ الطبيب يبحث عن السجلات التي تحوي اسماء المساجين . حتى عثر عليها .

وفي آخر صفحة من سجل عام ١٧٩٨ قرأ الطبيب تلك العبارة :

« اليوم . التاسع من شهر يوليو عام ١٧٦٨ ادخل مسيو . ج . الى الباستيل .. وهو فيلسوف وكاتـب سياسي خطر .. تقضي التعليمـات بمراقبته مراقبة دقيقة » .

وتحول الطبيب الى بيلو .. وقال :

ـ دعنا نرى الآن اسم الشخص الذي اصدر امر القبض ..

وعندما وقع بصره على اسمه بدرت من شفتيه صرخة خافتة ..

ـ نكر .. أيوقع صديقي نكر امرا بالقبض علي والقائي في غيـاهب الباستيل ؟ ! يا الهي !.. لا بد ان في الامر مؤامرة دنيئة .!

فصاح الرعاع : وهل نكر صديقك ؟
ـ نعم يا اصدقائي .. ولست اشك في انه لا يعرف شيئا عن دخولي الباستيل .. وساذهب اليه على الفور ..
فصاح بيلو : تذهب اليه ! لقـد نفى مسيـو نكر الى بروكسل يـا سيدي ..

فبدا التفكير على وجه الطبيب .. وسأل بيلو :
ـ ولكن من هو الشخص الذي طلب القبض عليك يا سيدي ؟
ـ هذا ما ساحاول معرفته . فان اسمه لم يذكر .
ثم مزق الورقة من السجل . وطواها . واودعها جيبه ..

وتحول الى بيلو وبيتو .. وقال :
ـ هلما بنا من هذا المكان . فلم تعد ثمة حاجة للبقاء هنا ..

فاجاب بيلو :
ـ ولكن من العبث ان نحاول شق طريقنا وسط هذه الكتلة البشريـة المتراصة ..

وفي الحال تقدم بعض الرعاع من الطبيب وحملوه فوق الاعناق . وهم يهتفون :

ـ الى المجلس البلدي .!
وفي الطريق رأى الدكتور جيلبر منظرا ارسل الذعر الى قلبه ..
ذلك ان جمهرة من الرعاع كانوا يحيطون بمسيو دي لوناي . وهـم يتهددون ويتوعدون . بينما كان ايلي وهلن يحاولان صد تلك الجمـوع الغاضبة بمعاونة نفر قليل من اصدقائهما ..
وحاول الدكتور جيلبر ان يهبط من فوق الاعناق فلم يفلح ..

★ ★ ★

واستمر ذلك الموكب الحاشد في زحفه البطيء ، حتى وصل الى الساحة التي يطل عليها المجلس البلدي ..

وكان نبأ سقوط الباستيل ، قد احدث هزة عنيفة في ارجاء باريس . فهرول سكانها الى المجلس البلدي حفاة نصف عراة وهم يحملون في ايديهم حرابا وسلاحا ..

وحاول ايلي وهلن .. ان يصلا الى درج المجلس البلدي حتى يستطيعا انقاذ حاكم الباستيل بدفعه الى داخل البناء .

ولكن المتجمهرين في الساحة غير غزاة الباستيل ، فلم يكونوا ممن يسهل اقناعهم .!

وفي لمح البصر انقض الرعاع على ايلي وهلن ورفاقهما وابعدوهم عن مسيو دي لوناي التعس .

وارتفعت يد تحمل سيفا طويلا .. ثم هبطت .

وعندما ارتفعت تلك اليد مرة اخرى ، كانت تحمل حربة قد غرس في نهايتها رأس آدمي .

كان رأس دي لوناي التعس .

★ ★ ★

وكان دي فليسي يرقب ذلك المنظر من نافذة غرفته في المجلس البلدي .. فوقف شعر رأسه واصطكت اسنانه وامتقع وجهه ..

ادرك ان نهايته قد دنت .

وانقض بعض الرعاع على جثة دي لوناي .. وفتشوا جيوب ردائه ، فعثر احدهم على رسالة دي فليسي الى دي لوناي .!

وما ان قرأها حتى صاح في رفاقه يطلب اليهم الصمت والاصغاء .

وقرأ عليهم الوثيقة الخطيرة .

كانت كالقنبلة وسط الهشيم •• فغلت النفوس كالمرجل الملتهب •• وزمجروا وزأروا •• وبدأوا يتدافعون نحو الباب في حماسة ووحشية •!

وحاول الدكتور جيلبر للمرة الثانية ان يهبط من فوق الاعناق •• ولكن مئات من الايدي امتدت اليه ، وابقته في مكانه •

★ ★ ★

وفي اللحظة التالية برز الرعاع من داخل البناء • وهم يدفعون فليسي امامهم في قسوة •

كانوا يصيحون : الى القصر الملكي •• الى القصر الملكي •!

فقال التعس : حسنا يا اصدقائي •• الى القصر الملكي •!

ولكنهم لم يذهبوا به الى القصر الملكي ، وانما الى الجحيم ، اذ اوقفه الرعاع جنبا الى جنب مع الماجور دي بلوسم ، ذلك الرجل الطيب القلب الذي كان يعطف على مواطنيه ويحاول دفع الاذى عنهم •

وان هي الا هنيهة حتى اطاحت مئات السيوف برأسين : احدهما خبيث ، والاخر طيب •

ولم يحتمل الدكتور جيلبر رؤية ذلك المشهد البشع ، فالتفت الى بيلو •• وهتف : تبا لهم من وحوش انذال •• هلم بنا ننصرف فلم اعد استطيع رؤية هذه المناظر الوحشية •

وانطلق مع بيلو وبيتو الى شارع لاي لافانيري •

★ ★ ★

ولم يكد الدكتور جيلبر ورفيقاه يصلان الى قارعة شارع بلانش ميبراي • حتى استوقف الطبيب احدى المركبات ، وامر السائق بالذهاب به الى مدرسة لويس العظيم •

ولما وصلت المركبة الى المدرسة وهبط الطبيب واشار الى بيلو ان يتبعه اما بيتو فقد ظل جالسا في المركبة .

★ ★ ★

وخف ناظر المدرسة بنفسه لاستقبال الطبيب .. ثم قاده الى مستشفى المدرسة حيث يوجد سباستيان .

ولما رأى الصبي اباه ، ارتمى في صدره واحاط عنقه بذراعيه الصغيرتين بيد ان بيلو لاحظ ان استقبال الاب لابنه ، كان فاترا يفتقر الى العاطفة الابوية الفياضة .

وتحول سباستيان الى الفلاح . واحاط عنقه بيديه .. ثم قال :

ـ انك رجل شجاع يا مسيو بيلو .. فقد حافظت على وعدك . ولذا وجب علي شكرك .

فاجاب بيلو : نعم لقد حافظت على وعدي .. ولكنه كلفنا كثيرا .. فانت تعلم ان اباك كان سجينا في امنع حصون المملكة . فاستلزم اطلاق سراحه اراقة دماء نفوس زكية عديدة .

وكان بين الاب والابن موقف مؤثر .. طفق الاول فيه يزجي النصيحة تلو النصيحة ، والابن يصغي اليه في شرود .

ثم التفت الصغير فجأة الى بيلو كأنما افاق من حلم مزعج وسأل عن بيتو . فاسرع المزارع باستدعاء الشاب من المركبة .

وفي هذه اللحظة اقبل الاب براديه على الدكتور جيلبر وطلب الاختلاء به على انفراد لبضع لحظات ..

وعندما اصبحا دون ثالث بينهما قال الاب :

ـ انني الاحظ على سباستيان في المدة الاخيرة انه في حالة نفسية

مضطربة •• تبلغ حد الذهول احيانا • انظر اليه الان •• انه مستغرق فيما يشبه الغيبوبة • ولو انك تحدثت اليه فجأة ، لانتفض كانما افاق من حلم مزعج •

فقطب الدكتور حاجبيه •• وبدا عليه التفكير ، ثم رفع عينين يبدو فيهما القلق ، ونظر الى الاب براديبه وقال :

ــ انك تزعجني يا سيدي •• ولكن ارجو ان تعمل جهدك على صرف الغلام عن التفكير ، وتوفير اسباب التسلية له ما امكن ، حتى تزول عنه تلك الاعراض •

وفي هذه اللحظة دخل بيلو وبيتو الغرفة •• وتقدم الثاني من الصبي الحالم •• ووضع رأسه الغليظ بجوار وجهه المتقع • فانتفض سباستيان وترنح قليلا ، ثم اندفع الدم الى وجنتيه فجأة • وبدرت من شفتيه آهة عميقة •• ومرت الازمة •• واجاب الصبي باسما :

ــ آه •• هذا انت يا بيتو !•• انني سألت عنك •• هل اشتركت في القتال ؟

فقال بيلو : نعم •• ولقد برهن على شجاعة نادرة ••

فقال سباستيان في صوت عميق :

ــ ولماذا لم تصطحباني معكما ؟ كم كنت اود ان اشترك في انقاذ ابي •

وكان الدكتور جيلبر يرقب الصبي باهتمام مذ دخول بيتو • ولاحظ التغير الذي طرأ عليه فجأة وكيف انتفض عندما سمع صوت صديقه ••

صاح • وهو يتقدم نحوه في حنان :

ــ سباستيان •• تعال معي قليلا الى الحديقة فانني اود التحدث اليك على انفراد ••

وتحول الى بيلو وصديقه • وقال :

ــ اما انتما فاذهبا الى غرفة المائدة لتتناولا شيئا من الطعام ••

★ ★ ★

وجلس الابن الى جوار ابيه فوق احد مقاعد الحديقة ..
وبدأ جيلبر الحديث قائلا :
ـ اذن فقد كتب لنا ان نلتقي مرة اخرى .
ـ نعم يا ابتاه .. وقد كان ذلك بمعجزة من عند الله ..
فابتسم جيلبر .. وقال : هذا صحيح يا ولدي .. والان دعنا نتحدث قليلا قبل ان نفترق ..

ـ وهل سنفترق ثانية يا ابي ؟
ـ نعم ، وآمل الا تطول فرقتنا في هذه المرة .. فقد سرق صندوق يحوي وثائق خطيرة ، كنت قد عهدت الى بيلو بالمحافظة عليه .. ولما كان حادث القبض علي وقع قبل ذلك مباشرة ، فاكبر ظني ان هناك اتصالا بين الحادثين .. ولذلك فانا معتزم البحث عن الصندوق حتى اعرف من يكون الشخص الذي اوعز بالقبض علي ..
ـ حسنا يا ابي . وستجدني في انتظارك بفروغ صبر .
وتنهد الصبي تنهيدة عميقة . فقال جيلبر :
ـ يبدو انك حزين يا ولدي .؟
فبدا التردد على وجه الصبي . ثم قال :
ـ الواقع انني حزين يا ابت . فان حلما يزعجني .
ـ حلم ؟!!
ـ قد يكون كذلك يا ابي . اظنك تذكر انني ضللت طريقي مرتين او ثلاث وسط الغاب التي كانت تحيط بالقرية التي نشأت فيها ؟
ـ نعم .. اذكر انهم ابلغوني ذلك في حينه .
ـ حسنا .. لقد كنت اضل طريقي وسط الغاب ، لان اشباحا كانت تتراءى لي وتدعوني اليها .
فصاح جيلبر ، وهو ينظر الى ابنه فيما يشبه الذعر :
ـ ماذا تقول ؟

ـ انني حين كنت ارافق زملائي الى الغاب ابتغاء اللهو واللعب• يتفق لي في بعض الاحيان ان امعن بمفردي داخل الاشجار المتعانقة فاذا حـدث ذلك ، سمعت على مقربة مني حفيفا اشبه بحفيف الثياب • فاروح اتلفت حولي بحثا عن مصدر هذا الصوت ولكني لا ارى احدا •

ولشد ما يدهشني ويحيرني ان اسمع ذلـك الحفيف يتضاءل شيئـا فشيئا حتى اذا انعدم صوته تقريبا • يبتدىء الشبح في الظهور على هيئة بخار يهبط من الافق ، ويظل يتكاثف حتى يتخذ شكـل امرأة • تخترق الفضاء ، وتسبح في الهواء ، بعيدا عن سطح الارض •

وكلما ابتعد الشبح ازداد وضوحا • عند ذلك اشعر بقوة خفية لاقبل لي على مقاومتها تدفعني الى تعقب ذلك الشبح • فانطلق في اثره وقد مددت يدي في توسل وضراعة ، واحاول ان اسمعه صوتي في نداء الطفل لامه ، ولكن الكلمات تنحبس في حلقي •

وفجأة تبدأ المرأة في الاختفاء ، فتروح كما ظهرت ، ولا يلبث البخـار ان يتبدد ، ويضيع في الافق •

اما انا فيستولي علي الجهد والاعياء • فاسقط في مكاني فاقد الوعي وهناك يعثر على بيتو اما في اليوم نفسه او في اليوم الذي يليه •

راح جيلبر يرمق ابنه في نظرة قد تجلى فيها الجزع •• ثم سأل فـي لهفـة :

ـ خبرني يا بني •• كيف كانت هيئة تلك المرأة ؟

ـ ان لها هيئة الملكات يا ابت •

ـ وهل استطعت ان تتبين ملامحها ؟

ـ نعـم •

انتفض جيلبر •• وسأل :

ـ وهل عاودتك هذه الرؤيا بعد قدومك الى باريس ؟

ـ نعم •• فقد رأيت الشبح مرتين في هذه الحديقة •

ازدادت حيرة الطبيب وغمغم :

ـــ هذا مزعج•• اكبر الظن انك في حالة عصبية شاذة يا بني•• ولكن• اخبرني من تظنها تلك المرأة يا سباستيان ؟

ـــ انها امي !

امتقع وجه جيلبر •• وصاح : امك !!

وضغط يديه فوق قلبه ، كانما يحول دون انبثاق الدم من جرح فيه •• وهتف :

ـــ ولكن لا •• ان الامر لا يعدو حلما •

فلزم الصبي الصمت • وراح يرمق اباه في ذهول ودهشة •

ثم قال : من المحتمل ان يكون كذلك يا ابي •• ولكنه حلم غريب على كل حال لانه يتراءى لي في اليقظة •• فقد رأيت المرأة ذاتها تستقل مركبة انيقة تجرها اربعة جياد وكان ذلك في حديقة قصر فرساي عندما ذهبت مع رفاقي لتمضية النهار هنالك •

ـــ واي اثر تركت الرؤيا الاخيرة في نفسك ؟

ـــ لقد ايقنت وقتئذ ان تلك المرأة لم تكن امي •• لان امي ماتت منذ وقت بعيد •

فنهض جيلبر واقفا • وهو يضع يده فوق جبينه الملتهب •

ثم جذب ابنه الى صدره ، وقبله في جبهته ••

فسأل الصبي : هل كانت امي جميلة يا ابي ؟

فاجاب الدكتور في صوت يفيض بالعاطفة :

ـــ نعم •• انها كانت رائعة الجمال ••

ـــ وهل كانت تحبني كما احبك ؟

فصاح الطبيب في ذعر :

ـــ سباستيان • كفى • كفى لا تحدثني عنها مرة اخرى •

ثم هرول من الحديقة ، الى بناء المدرسة يتبعه الصبي •

الفصل الخامس عشر

مدام دي ستايل

وفيما كان الدكتور جيلبر يأخذ مكانه في العربة مع بيلو وبيتو •• سأل :

ـ هل حقا ان مسيو دي نكر غادر باريس ؟

فاجاب بيلو نعم يا سيدي •• واصطحب زوجته معه ••

ـ وهل رافقتهما ابنته مدام دي ستايل ؟

ـ لا ادري يا سيدي •• واكبر ظني انها لا تزال في سان كون ••

★ ★ ★

وفي الطريق الى سان كون عرج الدكتور جيلبر على حانوت لبيع الملابس حيث ابتاع لنفسه بزة جديدة •

وعندما وصلوا الى دار الوزير الفرنسي الكبير هبط الدكتور جيلبر من العربة ، ودق الجرس ••

واقبل احد الخدم ، فطلب اليه الدكتور ان يعلن سيدته بقدومه ••

وانصرف الخادم ، ثم عاد بعد لحظات •• وقال :

ـ يؤسفني ان اخبرك ان سيدتي ترتاض في الحديقة الان ، وليس في استطاعتي ان اعلنها بقدومك ، لانها امرت بالا نزعجها خلال رياضتها مهما كانت الظروف •

فاخرج الدكتور جيلبر لويسا ذهبيا من جيبه دسه في يد الخادم وهو يقول :

ـ اذهب بي اليها ، وقدمني باسم الدكتور جيلبر صديق لافايت .
ـ حسنا .. تفضل يا سيدي .
وقاد الخادم الدكتور جيلبر الى مكان منعزل في الحديقة وقال :
ـ انتظر هنا يا سيدي حتى اعود اليك .

ومضت عشر دقائق عند ما سمع الدكتور جيلبر حفيف ثوب نسائي يقترب منه ، ثم برزت امرأة طويلة القامة ، جذابة التقاطيع ، تبدو على وجهها دلائل النبل ، من بين الاشجار .
سألت في صوت موسيقي ساحر : هل انت الدكتور جيلبر يا سيدي ؟
ـ نعم يا بارونة ..
ـ الواقع انك تبدو صغيرا بالنسبة الى الشهرة الواسعة التي تتمتع بها ، حتى ليخيل الي انك لست الدكتور جيلبر الذي يتحدث عنه الناس كثيرا في هذه الايام .!

ـ لست اعتقد ان هناك جيلبر غيري يا سيدتي ، فاذا كان حقا ما تقولين، فهو شرف واي شرف ..
ـ انك توسلت باسم المركيز لافايت لمقابلتي .. والواقع ان المركيز طالما حدثنا عنك وعن علمك الغزير .

فاحنى جيلبر قامته .. واستطردت البارونة :
ـ وكثيرا ما ذكر المركيز انك لست قديرا في مهنتك كطبيب فحسب ، بل انك علم فرد في حل مشاكل علم الحياة .!
واستشهد المركيز على ذلك بما ابديته من مقدرة خارقة للعادة في صد الموت عن جرحى يئس الاطباء من شفائهم في المستشفيات الامريكية .!
فابتسم الدكتور جيلبر .. واجاب :

ـ اكبر الظن ان المركيز اذاع عني انني اتوسل بالسحر في عملي •

ـ هذا صحيح يا سيدي •• انه يقول انك تلجأ الى التنويم المغناطيسي في علاج الحالات المتأخرة ، فهل انت صديق للمركيز دي كاليوسترو ؟

ـ نعم •• انه صديقي واستاذي ايضا •

ـ اذن لماذا قضيت الشطر الاكبر من حياتك خارج فرنسا •• وقد كان في استطاعتك ان تتبوأ مكانا يليق بعلمك الغزير بين ابناء جلدتك ؟

فتخضب وجه الدكتور بحمرة الخجل •• واجاب :

ـ اين انا من جهابذة العلماء في فرنسا يا سيدتي •• ان امامي شوطا بعيدا حتى اصل الى تلك المرتبة •

فقالت البارونة : يؤسفني انك جئت متأخرا •• وكم كان يسرني ان اقدمك الى ابي ، فهو ممن يجلون العلماء ويحترمونهم ، بيد انه رحل عن باريس من منذ ثلاثة ايام •

فابتسم جيلبر •• وقال : سيدتي •• لقد قضيت ستة ايام في الباستيل بأمر البارون دي تكر •

فانتفضت مدام دي ستايل •• وقالت :

حقا ••! انه لامر غريب !! أكنت نزيل الباستيل • ولكن لماذا ؟

ـ هذا ما لا علم لي به •• ولكن اباك هو الوحيد الذي يعرف السر •

ـ ولكن كيف امكن ان يطلق سراحك ؟

ـ ذلك ان الباستيل قد اختفى من عالم الوجود ••!

فقالت مدام دي ستايل وهي تتظاهر بالدهشة :

ـ اختفى من عالم الوجود ؟!! انك تدهشني يا سيدي !!

ـ ألم تسمعي طلقات المدافع ؟

ـ نعم •• ولكن ما الصلة بين طلقات المدافع وسقوط الباستيل ؟

فنظر اليها الطبيب نظرة حادة وقال :

ـ سيدتي •• انا لا اعتقد ان فرنسيا واحدا لم يسمع بذلك الحدث العظيم الذي كان لوقوعه دوي هائل في جميع ارجاء المملكة •

فخشيت البارونة ان يفتضح كذبها • فآثرت تحويل الحديث الى ناحية اخرى •• سألت :

ـ واي شرف هذا الذي حملك على المجيء لمقابلتي يا سيدي ؟

ـ كنت ارجو ان تتشرف بمقابلة البارون دي نكر •

ولكنك تعرف ان البارون قد رحل عن فرنسا ؟!

ـ سيدتي •• لقد خيل الي ان رجلا سياسيا كبيرا كالبارون دي نكر لا يمكن ان يرحل في هذا الظرف العصيب • وهو يعلم ان المملكة تغلي كالبركان •• فارجو ان ترشديني الى المكان الذي يمكنني ان اجده فيه •

ـ سيدي •• ان البارون موجود في بروكسل ••

فحدجها الدكتور جيلبر بنظرة فاحصة •• وقال :

ـ شكرا لك يا سيدتي •• سانطلق اليه في بروكسل • فان لدي من الانباء الهامة ما يدعوني الى الاسراع بمقابلته مهما كانت الظروف ••

فترددت المرأة •• ثم قالت :

ـ انك تثير فضولي يا سيدي •• فلا شك ان هذه الانباء من الاهمية كما تقول •• فهلا تكرمت باطلاعي عليها ؟

ـ هذا من المحال يا سيدتي •• فان الامر جد خطير ، ويستلزم عملا سريعا • وكم كنت اود لو امكنني الاتصال بالبارون الان ، بدلا من ضياع عشرين ساعة قد تحدث فيها امور خطيرة ••

وتهيأ الدكتور للانصراف • ولكن المرأة استوقفته قائلة :

ـ مهلا يا سيدي •• انك تتحدث في لهجة من يؤمن بوقوع خطب سريع •• ولما كانت الحديقة مكانا غير مناسب للتحدث في امثال هذه الامور • فارجو ان ترافقني الى غرفتي ••

تردد الدكتور لحظة ثم قال : ليكن ما تشائين يا سيدتي .
وقادته الى غرفة مكتب انيقة في الطابق الارضي .. ثم واجهته قائلة :
ـ سيدي .. باسم الانسانية أسألك ان تطلعني على ذلك السر الخطير الذي يهم ابي والذي دفعك الى القدوم الى سان كون ..

فقال جيلبر : لو ان اباك استطاع ان يسمع صوتي .. وعرف انني الشخص الذي ارسل الى الملك تلك الرسائل السرية عن « تطور الافكار، ومدى نجاح تقدم العقل البشري » لاصغي الى حديثي بكل ارتياح ..

ولم يكد الدكتور جيلبر ينطق بهذه الكلمات . حتى انشق احد جدران الغرفة عن باب سري يؤدي الى دهليز طويل يسبح في ضوء قوي..
وبرز البارون دي نكر من داخل الدهليز .. وهو يقول :
ـ هأنذا قد جئتك يا مسيو جيلبر .. فتحدث .. فانا مصغ اليك ..
وعلى اثر ذلك غادرت البارونة الغرفة ، وحلفت الرجلين معا .
فقال جيلبر في دهشة : سيدي البارون ؟!

ـ نعم .. نعم .. ما الذي حملك على البحث عني يا سيدي ؟
فقال الطبيب : لا شك انك سمعتني الان وانا احدث البارونة منذ لحظة بذلك السر الخطير .. نعم .. فانني الشخص الذي ارسل الى الملك منذ اربع سنوات رسالة عن حالة اوربا العامة ، ومنذ ذلك الحين وانا ابعث اليه برسائل عن الاصلاحات الداخلية التي تشغل بال الفرنسيين جميعا ..

فاحنى الوزير السابق قامته للطبيب احتراما .. وقال :
ـ تلك الرسائل التي طالما حدثني جلالة الملك عنها في اعجاب .. ولو انه كان يبدي مخاوفه من المبادىء التي تتضمنها .
ـ نعم .. لانها المبادىء التي تقضي بها العدالة ، ولكن .. هل تفضل جلالة الملك باطلاعك على الرسائل كلها يا سيدي ؟
ـ كلا . فجلالته اطلعني على اثنتين منها فقط ، احداهما عن المسائل

المالية ، وهي التي تشاطرني فيها رأيي عن الاصلاحات التي اقترحتها لانقاذ فرنسا من الهاوية التي تتردى فيها •

ــ اذن فلم يطلعك على الرسالة الهامة التي تكهنت فيها بوقوع بعض الحوادث يا سيدي ؟

اية رسالة تعني يا سيدي ؟

ــ تلك التي ذكرت فيها ان جلالته سوف يقيلك من الوزارة لانه لـن يستطيع التوفيق بين مقترحاتك وبين الاتفاقات التي ابرمها مع الاخرين ••

ــ كلا فلم يطلعني عليها ، ولكن ماذا كانت تتضمن الرسائل الاخرى ؟

ــ كانت تتضمن التنبوء بسقوط الباستيل •

ــ وهل كنت تتوقع سقوطه يا سيدي ؟

ــ ان الباستيل كان رمزا للاستعباد ، وليس سجنا خاصا باعداء الملك، فلما آن للحرية ان تتنفس ، ويشع نورها ، كان مـن الطبيعي ان يكـون الباستيل اول من يسربله ذلك النور ، اما الباقي فستتكفل به الثورة •

ــ هل تدرك خطورة الكلمات التي تنطق بها يا سيدي ؟

ــ بغير شك ••

ــ الا تخشى عاقبة الجهر بنظرياتك تلك •؟

ــ ان انسانا زار الباستيل لا يخيفه شيء بعده ••

ــ اذن فقد زرت الباستيل •؟

ــ نعم •• واليكم يرجع الفضل في ذلك يا سيدي •

ــ الى •؟! وكيف ذلك •؟

ــ لا اخالك نسيت ذلك • ولما يمض على اعتقالي ستة ايام •

ــ هذا مستحيل ••

ــ وما رأيك في تلك الرسالة يا سيدي •؟

واخرج الدكتـور جيلبر الصفحة التي مزقها من سجـل الباستيل ، والرسالة المبصومة بامر القبض ، وقدمهما الى البارون دي نكر ••

فقال نكر بعد ان اطلع عليهما :

ــ هذا صحيح ، ولكنني لا ادري كيف حدث ذلك ، كل ما اذكره انهم طلبوا الي قبل اقالتي ان اوقع بضعة اوامر قبض بيضاء .. فلا بد ان امر القبض عليك كان بين تلك الاوامر ..

ــ هل تعني انك لست المسئول عن ذلك ..؟

ــ كلا بالطبع ..

ــ اذن هل تتكرم باطلاعي على اسم الشخص الذي تسبب في اعتقالي .؟

ــ بكل سرور .. فانا احتفظ عندي بنسخة من تلك الاوامر .!

وسار الى المكتب .. ثم فتح احد الادراج .. وبدأ يقلب في محتوياته ولم يلبث ان قال : هذا امر القبض يا سيدي .. لقد كانت الكونتس دي شارني هي التي طلبت القبض عليك وارسالك الى الباستيل .. وذيلت الملكة الرسالة بتوصية منها .. ولو انها لم توقع التذييل .

فهتف جيلبر : الكونتس دي شارني .! انني لا اعرفها يا سيدي .. ولا اذكر انني فعلت شيئا يغضبها حتى تأمر بايداعي الباستيل ..

ولكن من تكون الكونتس دي شارني يا سيدي البارون .؟

ــ انها صديقة الملكة الصدوق .. وزوجة الكونت دي شارني .

وبدا التفكير على وجه « نكر » .. ثم اردف :

ــ اكبر ظني انك كنت ضحية مؤامرة سياسية ..

هل انت من اصدقاء الكونت دي كاليوسترو .؟

ــ نعم .. انه صديقي .. بل واستاذي .

ــ اذن لا بد ان للبلاط النمساوي ضلعا في الامر .. لا سيما بعد ان اذيعت رسائلك المشهورة .. فقد حملت على الملكة النمساوية حملة عنيفة . فلم تجد هذه وسيلة للتخلص منك الا ان توعز الى صديقتها الكونتس دي شارني بان تأمر باعتقالك وايداعك الباستيل .. مبعدة بذلك الريبة عن نفسها .

فبدا التفكير على وجه جيلبر •• وكان يعلم ان الصندوق الذي سرق من بيلو لم يكن يحوي وثائق ضد الملكة او البلاط النمساوي •

قال : كلا يا سيدي • لا اعتقد ان ذلك هو السر في اعتقالي •• ومهما يكن من امر • فلنرجىء الحديث في ذلك الموضوع • ولنتحـدث في امر آخر •• اعني عنك انت ••

ــ عني انا !؟ ولكن ماذا يهمك من امري ؟

ــ يهمني •• ان امرك يهم كل فرنسي •• فلن تمضي ثلاثـة ايام حتى يستدعيك الملك اليه مرة اخرى • ويعهد اليك بالوزارة •• ويطلق يدك في شئون الحكم •

فابتسم نكر وقال : هل تعتقد ذلك ؟ حسنا •• وماذا ستكون النتيجة؟

ــ اصغ الي يا سيدي •• انك محبوب من الفرنسيين بل معبودهم •• الامر الذي تعمل له الملكة الف حساب •• وسوف يشاطرها الملـك هـذا الشعب لهما على حسابك •• وتكون النتيجة ان يتحول عنك الشعب •• ويطويك النسيان بين جناحيه •

ــ انا •• ينساني الشعب !؟

ــ تلك هي الحقيقة يا سيدي •

ــ وكيف ينساني يا صديقي ؟

ــ سوف يظهر حزب جديد ينادي بالدعوة الى الجمهورية • وعندئـذ تثور الافكار • وتتزلزل قواعد المجتمـع الفرنسي الحاضر •• وترتفـع الاصوات بالمطالبة بالغاء الامتيازات •• والقضاء على الاشراف •• ثم الغاء الملكية •

اما انت فستسير مع التيار في بداية الامر • ولكن تطور الحوادث نحو الغاء الملكية سيقعد بك في منتصف الطريق لانك تحب الملك •

ــ الواقع انني احب الاصلاح • ولكن ليس على حساب الملكية •

ــ انني ايضا احب الملك • • بل وكل فرنسي يحبه الان ••• ولكن •• الست عضوا في احدى الجمعيات السرية •؟

ــ كلا لقد سمعت عنها • ولكني لا انتمي لاحداها •

ــ اذن اعلم انني عضو في الجمعيات السرية الموجودة في فرنسا قاطبة •

وأؤكد لك ان لهذه الجمعيات خطرها ، لان عدد اعضائها يربو على الثلاثة ملايين من مختلفي الطبقات • ولن يكون ببعيد ذلك اليوم الذي تهب فيه هذه الجمعيات لتقلب اوضاع النظام الاجتماعي في فرنسا رأسا على عقب •

فبدا التفكير على وجه نكر ، وقال :

ــ الواقع ان الامر جد خطير ، فلماذا لا تتكاتف على حماية الملكية يا صديقي ••

فقال جيلبر : كلا ، لان تكاتفنا لن يجدي ، ولكن تفرق قوتنا يفتح سبيلين الى العمل ، وكل ما اطلبه اليك هو ان تقدمني الى الملك ليتخذ مني طبيبه الخاص ، حتى استطيع ان اعمل على حمايته والقضاء على سيطرة ماري انطوانيت عليه ، وبذلك توجد مجالا للاصلاح ، وتدارك البلاء قبل وقوعه ••

فقال نكر : وهل تعتقد ان الملك يرضي بان يتخذ له طبيبا خاصا ناهض الملكية ، وعمل على اظهار مساوئها •؟

ــ ان في ذلك العمل ما يزيد محبة الشعب له ، اذ معناه انه آمن بضرورة الاصلاح ، فاتخذ لنفسه من ذلك الرجل الذي القى به في الباستيل ، بسبب تلك المبادىء • طبيبا خاصا •

ــ وماذا تريد مني ان افعل ؟

ـ اريدك على ان تزودني بكلمة توصية الى الملك ، اما الباقي فاتركه لـــي ..

ـ حسنا ..

وجلس الوزير الى مكتبه ، وكتب الرسالة التالية :

« مولاي ـ انني واثق ان جلالتكم بحاجة الى رجل امين يستطيـــع امدادكم بكثير من الآراء القيمة ، وارى من واجبي ان اشير على جلالتكم باستخدام الدكتور جيلبر لانه ليس قديرا في عمله كطبيب فحسب ، بـــل هو مؤلف رسالات « الدولة والسياسة » التي ابديتم جلالتكم اعجابكـــم بها ..

« ولا زلت لمولاي الخادم الامين .

« البارون دي نكر »

ولم يؤرخ البارون رسالته ، بل اعطاها للدكتور جيلبر داخل مظروف غير مغلق ، وقال :

ـ تذكر انني في بروكسل ..

ـ بكل تأكيد يا سيدي ، وغدا سوف اتصل بكم ..

★ ★ ★

وبعد ان غادر الدكتور جيلبر منزل الوزير ، استأذن رفيقيه بيلو وبيتو في الانصراف .. واستأجر مركبة امر سائقها بالذهاب به الى قصر فرساي.

ولما وصلت المركبة الى ساحة القصر .. هبـــط الدكتور جيلبر منهـــا وحاول الاقتراب من الباب فاعترض سبيله احد الحراس ..

كان الملك قـــد اصدر امره بمنع الدخول لكائن مـــن كان ، فاضطر الدكتور الى ابراز رسالة نكر حتى سمح له الحارس بالدخول .

★ ★ ★

كان الملك وقتئذ مجتمعا بممثلي حرس باريس الوطني في قاعة الاجتماعات ..

وكان الممثلون قد قدموا ليطلبوا الى الملك حل الفرق العسكريةوانشاء حرس اهلي .. والذهاب الى العاصمة ..

واصغى لويس السادس عشر لممثلي الامة في برود .. ثم اجاب بانه لا يستطيع اجابة مطالبهم قبل ان يعرض الامر على مجلس شوراه .

وانتقل ممثلو الشعب الى ردهة القصر . ريثما يجتمع الملك بمستشاريه فلما ارفض الاجتماع اعلن ان الملك غاضب لما اقدم عليه الثوار وانه لا يرى اجابة مطالبهم .

★ ★ ★

وعاد الملك الى جناحه . حيث وجد الدكتور جيلبر في انتظاره .
سأل لويس : ماذا تريد يا سيدي ؟
وعندئذ تقدم ضابط الحرس من الملك واعتذر اليه من عدم تنفيذ الامر الصادر بمنع الدخول .. ثم اطلعه على الغرض من مجيء الدكتور جيلبر ..

والتفت لويس السادس عشر الى الدكتور جيلبر .. وقال :
ـ هل انت الشخص الذي يحمل الى رسالة مسيو نكر ؟
ـ نعم يا مولاي ..

فصاح الملك : حسنا .. اين هي ..
فاخرج جيلبر الرسالة من جيبه .. وقدمها الى الملك .
ولما فرغ لويس من قراءة الرسالة .. تحول الى ضابط الحرس وامره بالانصراف .
وقال وهو يصعد الطبيب بنظرة فاحصة :

ـ هل انت مؤلف تلك الرسائل التي تركت اكبر الاثر في نفسي يا سيدي ؟

ـ نعم يا مولاي ..

ـ وما سنك ؟

ـ اثنان وثلاثون عاما .. ولكن الدراسة وسوء الحظ يتقدمان بالانسان في السن ..

ـ ولماذا لم تأت لمقابلتي من قبل ؟

ـ لاعتقادي انني لن اجد في نفسي الجرأة على التحدث اليكم بما ذكرته في رسائلي .

فبدت الريبة على وجه الملك .. وسأل :

ـ أليس هناك سبب آخر ؟

ـ كلا يا مولاي ..

ـ مهما يكن من امر . فلا بد ان هناك ظروفا حالت دون ادراكك نواياي الطيبة من ناحيتك .

ـ لا شك ان جلالتكم تعنون الموعد الذي ضربتموه لي ، وانا لم انس يا مولاي انني طلبت الى جلالتكم ان تضعوا مصباحا في نافذة غرفتكم دلالة على رضاكم عن رسائلي .

والواقع انني رأيت المصباح في الموعد المحدد .. ثم قرأت تلك النبذة التي نشرت في جريدة الغازيت . فحواها : « على الشخص الذي طلب اضاءة النور ثلاث مرات ان يقدم نفسه ليستولي على المكافأة التي يستحقها » !!

فقال الملك : هذه هي الكلمات التي تضمنها الاعلان .. ولكنك قدمت في لحظة غير متوقعة .. على العموم .. انني ارحب بقدومك .. لانك وصلت في اللحظة المناسبة . كما يصل الجندي وقت اشتداد المعركة ..

ونظر الى جيلبر في حدة . ثم استطرد :
ــ الا تعلم انه ليس من عادة الملوك ان ينتظروا شخصا امروه بالحضور للحصول على مكافأة وعدوه بها ..؟

فابتسم جيلبر .. واردف الملك : اخبرني لماذا لم تأت ؟
ــ ذلك لانني لا استحق مكافأة يا مولاي ، فانا رجل فرنسي اعمل لخير فرنسا ، والمرء لا يستحق مكافأة على عمل يقدم عليه لمصلحته الشخصية .!
ــ هذا قول ظاهره غير صحيح يا سيدي .. ولا بد ان هناك سببا آخر .؟
ــ ربما كان استنتاج جلالتكم صائبا .
ــ يبدو انك شعرت بدقة الموقف ، فاحجمت عن الحضور .
ــ مولاي .. انني كنت اخشى امرا اخطر من ذلك .

فقال الملك في غضب :
ــ كن صريحا يا دكتور ، فانت كنت تتوقع سقوط الملك ، وآثرت الا تكون بقربه في تلك اللحظة العصيبة .!

ــ كلا يا مولاي ، فانا ما قدمت الان الا لاعتقادي بان الخطر قد بدأ يأخذ شكلا جديا ..
ــ نعم .. نعم .. لقد نسيت انك قادم من مقابلة « نكر » ، وانك تتشبه به في التحدث عن الخطر .! وبهذه المناسبة اين هو الآن .؟
ــ انه على استعداد لان يلبي اوامر جلالتكم .
فتنهد الملك وقال :

ــ الواقع انني ساحتاج اليه .. فالانسان ليس بمعصوم من الخطأ . فاذا اخطأ .. تعين عليه اصلاح خطأه .
وتنهد مرة اخرى .. فقال جيلبر :

ـــ مولاي •• لا ينفع الامم البكاء على الماضي • والافضل ان يحسب الانسان للمستقبل حسابه ويتخذ له عدائه •

فرفع الملك رأسه •• وقطب حاجبيه •• ولم ينطق بكلمة •!

واستطرد جيلبر :

ـــ عفوا يا مولاي ، فانا طبيب اعرف موطن الداء حق المعرفة •!

ـــ اذن فانت تعتقد ان مشاغبات اليوم ستتخذ شكلا جديا •؟

ـــ انها ليست مجرد مشاغبات •• بل ثورة ••

ـــ وتريدني على ان انظر في مطالب هؤلاء العصاة ، السفاكي الدماء ؟ لقد استولوا على الباستيل بالقوة ، ثم قتلوا دي لوناي ودي بلوسم ودي فليسي ، وهذه هي الوحشية بعينها يا سيدي •

ـــ ولكن الواقع غير ذلك يا مولاي ، فهناك ثغرة بين الحادثين ، فان غزاة الباستيل ابطال صناديد • اما قتلة هؤلاء الرجال فمجرمون •!

ـــ قد تكون على حق ، ولكن دعنا من ذلك الآن ولنعد الى موضوع المقابلة ، اذن فانت الدكتور جيلبر كاتب الرسائل التي وصلتني ••

ـــ مولاي •• ان لجلالتكم ذاكرة مدهشة وقد يكون مجيئي الان بسبب تلك الرسائل •• فمنذ ستة ايام قبض علي وزج بي في الباستيل •• فهل جلالتكم الذي اصدر الامر بذلك ؟

ففغر الملك فاه دهشة •• وصاح :

ـــ انت ! في الباستيل •! ولماذا ؟

فاخرج الدكتور جيلبر الورقة التي مزقها من سجل الباستيل من جيبه وقدمها الى الملك •

وقرأ لويس محتوياتها فبدت على وجهه امارات الدهشة • وسأل :

ـــ الواقع انني لا ادري شيئا عن ذلك •• ولكن يالله !• ماذا هنالك

بينك وبين الكونتس دي شارني •• لماذا تنقم عليك تلك المرأة الطيبة فتأمر باعتقالك ؟

فاجاب جيلبر :

ــ مولاي • انني لم أك اعرف شيئا عن صاحبة هذا الاسم حتى صباح اليوم ••

فصاح لويس في حيرة : لا بد من تحري الحقيقة ••

ودق الجرس •• وعندما اقبل احد الخدم امره باستدعاء الكونتس دي شارني •

ولم يكد جيلبر يسمع امر الملك الى خادمه حتى تراجع الى النافذة واحتجب وراء احدى الستائر •

واقبلت الكونتس بعد لحظات وهي تتهادى في مشيتها ، كأنها عروس تختال ليلة زفافها •

وتقدم الملك نحو الباب يستقبلها •• وقال :

ــ لقد اخبروني انك كنت على وشك الخروج يا كونتس ••

ــ فاجابت الكونتس في صوت عذب :

ــ هذا صحيح يا مولاي • كنت اتهيأ لركوب العربة عندما جاءني خادم جلالتكم •

ولم يكد جيلبر يسمع صوت الكونتس حتى ارتجف من رأسه الى اخمص قدميه •• وشعر بالعرق يتصبب على جبينه ، وتقدم خطوة الى الامام • ولكنه عاد فارتد الى مكانه وهو يغمغم : هي ! هي ! أندريه •

استطرد الملك : سيدتي •• انني طلبت اليك الحضور لسؤالك في امر هام ، اظنك تذكرين يا كونتس انك طلبت الى مسيو نكر من منذ ثمانية او عشرة ايام ••• امرا بالقاء القبض على شخص معلوم ••

وكان جيلبر يراقب الكونتس في اهتمام من وراء الستار ، فلاحظ انها انتفضت •• وان الدم قد غاص من وجنتيها •

وسأل لويس : ألا تسمعينني يا سيدتي ؟
ـ نعم يا مولاي ..
ـ اذن فاجيبي على سؤالي ؟
فقالت اندريه : انني احاول ان اتذكر ذلك يا مولاي .

ـ سأساعدك على التذكر يا كونتس ، انك طلبت من الوزير امرا بالقبض على هذا الشخص ، واوصت الملكة الوزير بالتنفيذ .. أليس كذلك ؟

بدت دلائل الفزع واضحة على وجه الكونتس .. وقالت في صوت اجش :

ـ هذا صحيح يا مولاي ، فانا كتبت الامر وذيلته جلالة الملكة .

فسأل لويس : اذن هل لك ان تطلعيني على السبب الذي حدا بك الى اصدار هذا الامر ؟

فقالت اندريه : هذا ما لا استطيعه يا مولاي . وكل ما في وسعي تقريره هو ان ذلك الشخص ارتكب جريمة عظمى .

ـ اذن ، ارى ان تواجهي المجرم بجرمه ، فيما انك رفضت اطلاعي على هذه الجريمة العظمى ، فلا اخالك ترفضين تقريرها امام الدكتور جيلبر .

فصاحت اندريه في فزع : الدكتور جيلبر .. يا الهي ! اين هو يا مولاي ؟!

فاشار الملك بيده الى الدكتور كي يتقدم .

ولم تكد الكونتس ترى الطبيب حتى تراجعت خطوة وترنحت كأنما مسها تيار كهربائي .

واحنى جيلبر قامته للكونتس . وقال في تهكم :

ـ سيدتي .. أتسمحين لي بان القي عليك نفس السؤال الذي طلب اليك جلالة الملك الاجابة عنه ؟

فتحركت شفتا اندريه •• ولكن دون ان يسمع عنهما صوت ••

واستطرد جيلبر : سيدتي •• ما هي جريمتي العظمى التي استحققت من اجلها ان القى في الباستيل ؟

فالقت الكونتس على الطبيب نظرة باردة كالفولاذ •• واجابت :

ـ انا يا سيدي ؟! لا اعتقد انني رأيتك قبل الان •

فحدجها جيلبر بنظرة صارمة ، فاطرقت برأسها الى الارض •

وقال الملك في غضب : انظري يا سيدتي كيف ادى الجهل الى تضحية رجل بريء •• انك تقولين انك لم ترى الدكتور جيلبر قبل الآن •• ومع ذلك فقد وقعت امرا بالقبض عليه وارساله الى الباستيل •• اكبر ظني انك حسبته شخصا آخر ••

فقاطعته الكونتس :

ـ كلا يا مولاي •• ان هذا الشخص ارتكب جرما لا يغتفر •

وقال جيلبر : مولاي •• ارجو ان تتنازل بسؤال الكونتس عن ماهية ذلك الجرم ؟

فالتفت الملك الى الكونتس ، كأنما يأسرها بالكلام • فقالت :

ـ مولاي •• ان جلالة الملكة تعرف الجرم الذي ارتكبه الدكتور لانها ذيلت الامر بخطها ••

فقال الملك :

ـ مهما يكن من امر فلا بد ان اعرف الحقيقة • فانا الملك هنا !!

ـ حسنا يا مولاي •• لقد ارتكب الدكتور جيلبر جريمة عظمى منذ ستة عشر عاما •

فقال الطبيب : هل تتنازلون جلالتكم بسؤال الكونتس عن عمر جيلبر هذا في الوقت الحاضر ؟

فاعاد الملك السؤال على مسامع الكونتس •• فاجابت :

ــ ان عمره يتراوح بين الثلاثين والثانية والثلاثين .

واستطرد جيلبر :

ــ معنى ذلك ان جيلبر كان صبيا طائشا حين ارتكب ذلك الجرم، ولقد قضى هذا الصبي ستة عشر عاما وهو يكفر عن جرمه ، افلا يستحق اذن ان يغتفر له ما فعل ابان طيشه ..؟

فقالت اندريه في حدة : حسب هذا الشخص انه غمص قلمــه بمداد سام ، وراح يكتب رسائل كلها هجو وطعن جارح يا مولاي ، فهل تعتقد ان الزمان كفيل بمحو تلك الاساءة ..؟

فقاطعها جيلبر : مولاي .. ارجو ان تسألوا الكونتس عما اذا لــم يكن الغرض الاساسي من القبض علي ، هو تمكين اعدائي من الحصول على صندوق معين يحوي وثائق معينة كانت تكفي لاصلاح ذات البين بيني وبين سيدة عظيمة في البلاط ..؟

فانتفضت اندريه من الذعر ، فسأل الملك :

ــ هل هذا صحيح يا كونتس ..؟

وادرك جيلبر انه اصبح سيد الموقف فقال :

ــ تكلمي يا كونتس ، فانا هو جيلبر الذي ارتكب الجرم .. وانــت هي السيدة العظيمة التي اشرت اليها ، ويقيني ان من الاوفــق ان نعرض قضيتنا على جلالة الملك ليحكم فيها بعدله ..

فاجابت الكونتس : قل ما تشاء يا سيدي .. اما انا فلن اتكلم ..

فقال جيلبر : حسنا .. اذن فسأرغمك على الكلام ..

ورفع يده امامه في مستوى كتفيه ، ثم حدج المرأة بنظرة ثاقبة جعلتها ترتجف وتتراجع الى الخلف وتسقط بين ذراعي الملك ..

ذعر الملك وحمل الكونتس الى احد المقاعد ومددها ، ثم تحول الــى جيلبر .. وصاح : ماذا تقصد بذلك يا سيدي ؟

ـ ارغامها على الكلام تحت تأثير التنويم المغناطيسي ..!
واقترب من الكونتس ، ولمسها باصبعه فانتفضت .

قال : اجيبي على اسئلة جلالة الملك ، فهذه ارادتي امليها عليك .
وتحول الى الملك وطلب اليه ان يلقي عليها اسئلته .. فقال لويس :
ـ اذن فقد كنت تريدين القبض على الدكتور جيلبر يا كونتس ؟
ـ نعم ..
ـ والصندوق ..؟
ـ عملت على الاستيلاء عليه .
ـ وكيف استطعت الوصول الى غرضك ؟
ـ عندما تأكدت ان الدكتور جيلبر زار فرنسا مرتين ابان الستة عشر عاما الاخيرة ، ادركت انه لا بد سيعود مرة اخرى ليقيم هنا نهائيا فلجأت الى مسيو دي كروسني ، فعلمت منه ان الدكتور قد ابتاع بعض الاراضي بالقرب من مدينة فيلير كوتيرث ، وانه يعتمد في ادارة مزارعه على رجل يدعى بيلو .. فارتبت في ان يكون الصندوق في حوزة بيلو هذا .

ـ وما الذي حملك على هذا الاعتقاد ؟
ـ الدكتور مسمر المنوم المغناطيسي .. فقد لجأت اليه وطلبت منه ان ينومني حتى ارى بنفسي مكان الصندوق ..

وبذلك استطعت ان اعرف ان الصندوق مخبأ في دولاب كبير في ردهة منزل بيلو هذا .. وعندئذ عهدت الى ولفسفوث ، وهو من اعوان مسيو دي كروسني ، بالاستيلاء عليه ..

فقاطعها جيلبر قائلا : انني اطلب اليك ان تقرري امام جلالة الملك ان الصندوق ملك للدكتور جيلبر ..
فقالت النائمة في غضب : اجل . انه ملك له ..
ـ واين الصندوق الآن ؟

ـ انه في منزلي في فرساي •• حيث ينتظرني ولفسفوث •• فقد ضربت له موعدا في الساعة الحادية عشرة ••

فقال جيلبر : يالله •• لنسرع بالحصول على الصندوق • فقد كان مقررا الا يعود مسيو دي شارني الى منزله قبل الغد •• ولكنه سيضطر الى العودة الليلة نظرا للتطورات الاخيرة •

والآن يا مولاي •• بعد ان سمعتم ان الصندوق ملك لي ، فارجو ان تأمروا باعادته الي ••

فقال الملك : بغير شك •

ودق الجرس •• فلما قدم احد الخدم • اصدر الملك اليه امرا بصوت هامس ••

★ ★ ★

ومن عجب حقا ان ينسى لويس السادس عشر عرشه الذي تصدعت اركانه ، والحوادث الدامية التي وقعت ، والدماء الغزيرة التي اريقت ، وينصرف الى مراقبة جيلبر وهو يجري تجربته في التنويم المغناطيسي •

★ ★ ★

ورأى الملك جيلبر وهو يقرب زجاجة صغيرة من انف الكونتس فتفتح عينيها ، ثم تعود فتغلقهما ، وقد بدا الاعياء جليا في وجهها •

ووقف لويس يرقب اندريه وهي تستعيد وعيها ، وهو في الوقت نفسه منصرف بكليته الى الاصغاء لشرح جيلبر عن التنويم المغناطيسي •
سأل :

ـ خبرني •• من الذي علمك هذا العلم ؟ اهو مسمر ؟

فابتسم جيلبر •• واجاب : كلا يا مولاي • فانا شاهدت اول تجربة في التنويم المغناطيسي ، قبل ان يعرف اسم مسمر في فرنسا بعشر سنوات •

ــ أكان استاذك دسلون ام بيسجور ؟

ــ لا هذا ولا ذاك يا مولاي •• فاستاذي اقدر من هؤلاء جميعا في ذلك الفن • ولطالما رأيته يجري تجارب لا يصدقها العقل ، فيما يتعلق بالجروح • فقد كان خبيرا بالطب المصري القديم ، عالما بالثقافات الاسيوية القديمة • طبية وروحانية وفلسفية •

فسأل الملك : وهل اعرف انا هذا الشخص ؟

فتردد جيلبر • وقال الملك : اجب يا سيدي •

ــ نعم يا مولاي •

ــ وما اسمه ؟

فقال جيلبر : لست ارى ما يدعوني الى تكدير جلالتكم بذكر اسمه وبخاصة في تلك الظروف التي يحاول فيها الفرنسيون الحط من شأن العرش • كلا يا مولاي •• انني اربأ بنفسي عن ان اكون مصدر مضايقات لجلالتكم •

ــ اذكر اسم الرجل يا دكتور ولا تخش شيئا •• فانا ايضا لي فلسفتي • وهذه الفلسفة تجعل صدري رحبا لتحمل الاهانة في الحاضر ، والتهديد في المستقبل •

وظل جيلبر على حاله من التردد •• فقال لويس ضاحكا :

ــ لكن ذلك الرجل « الشيطان » بعينه ، فانا لن اعدم وسيلة لدفع اذاه عني •• لانني رجل اؤمن بالله •• ومن كان يؤمن بالله ايمانا قويا ، أمن على نفسه تجاريب الشيطان •

ــ مولاي •• ان لك نفسا عالية •• ويسرني ان اكون موضع ثقة جلالتكم فهو شرف عظيم •

فقال لويس الجبان : سيدي •• لـو قرأ الفرنسيون صفحة قلبـي • وعرفوا عطفي عليهم ، وشعوري الطيب من ناحيتهم ، لما تمردوا ضد حكمي كما فعلوا اليوم •

ـ مولاي • ما دمت تريد ان تعرف اسم استاذي فاعلم انـه الكونت دي كاليوسترو •

فصعد الدم الى وجنتي لويس • وهتف :

ـ يا الهي ! كاليوسترو الدجال ؟!

ـ نعم • انه هو يا مولاي !

ـ لطالما كان كاليوسترو عدو الملوك يا سيدي •

فتذكر جيلبر حادث عقد الملكة •• قال :

ـ اكبر ظني ان جلالتكم تقصدون انه كان عدو الملكات ؟

كانت رمية صائبة ، جعلت الملك يرتجف كريشة في مهب الريح• وقال:

ـ نعم •• انه كان سبب نكبة الكردينال لويس دي روهان • ولكن ، يا الهي ! اننا نسينا الكونتس تماما ••

ـ اذا شئتم جلالتكم ايقظتها • بيد انني افضل ان تظـل نائمة حتى يأتي الصندوق •

ـ ولـماذا ؟

ـ لاكفيها مؤنة درس قاس •

فقال الملك : انني اسمع وقع اقدام تقترب •

والواقع ان الخادم الذي همس لويس في اذنه منذ وقت يسير كان قد عاد في تلك اللحظة •

ودخل الخادم الغرفة وكان يحمل صندوق الدكتور جيلبر ووضعهفوق المنضدة • وانصرف في هدوء •

والتفت لويس الى جيلبر • وقال : ما رأيك الآن ؟•

ـ مولاي •• هذا هو الصنـدوق المنشود ، وانا عاجز عـن شكـر جلالتكم ••

فقال الملك : اذن افتحه ••

ـ مولاي •• انني على استعداد لان افعل ذلك ، لو لم ار ان مـن واجبي ان احذركم من امر واحد ••

ـ وما هو ذلك الامر •؟

ـ هو ان هذا الصندوق يحوي وثائق تتعلق بشرف امرأة ••

ـ وهذه المرأة هي الكونتس •؟

ـ نعم يا مولاي •• على اني واثق ان شرف المرأة لن يتعرض للخطر ما دمت جلالتكم الشخص الوحيد الذي سيطلع على الوثائق ••

ومد جيلبر يده بالمفتاح الى الملك ، فقال لويس في برود :

ـ اذن خذه يا سيدي •• فلن امد اليه يدا ••

ـ شكرا لك يا مولاي ، ولكن ماذا سنفعل بالكونتس •؟

ـ حذار ان توقظها هنا ، فانا لا اريد ان ارى مناظر تثير الشجن وارى ان تنقل الى مخدع الملكة لتفيق هناك !•

ودق لويس الجرس ، فاقبل احد الضباط ، وعندئذ امره لويس بـان ينادي اثنين من اتباعه لنقل الكونتس الى مخدع الملكة ••

واقترب جيلبر من الكونتس ، ولمس رأسها باصبعه ، وقال :

ـ ستفيقين بعد ثلاثة ارباع الساعة •

★ ★ ★

واخيرا التفت لويس الى جيلبر وقال :

ـ هل من شيء آخر •؟

ـ مولاي •• لم يبق الا ان اسأل جلالتكم شيئا واحدا ، وهـو ان تضموني الى اطباء جلالتكم ، فانا اريد الحصول على هذا المنصب ولـو بصفة فخرية •

فقال الملك :

ـ لقد وهبتك ما تطلب ، فالى اللقاء ، وتحياتي الى مسيو (نكر) •

الفصل السادس عشر

في جنـاح الملكـة

ولم تكن ماري انطوانيت اقل لهوا من زوجها ، فبينما لويس السادس عشر يدرس كيف يقاوم الثورة بالفلسفة ، كانت الملكة تجمع حولها عددا كبيرا من اصدقائها والمعجبين بها ..

وفيما هم يتحدثون عن المعارك التي دارت خلال النهار والتي انتهـت بسقوط الباستيل ، اذ دلف دي لامبسك الى قاعة الاجتماع ، وهو اشعث اغبر ، ملطخ الملابس والحذاء بالاوحال .

واستقبلته الملكة قائلة : حسنا يا مسيو لامبسك .. هل عدت مـن باريس الان ؟ وماذا يفعل الشعب هناك ؟

ــ انهم يقتلون ويخربون يا مولاتي ..

ــ بدافع من غضبهم او حقدهم ؟

ــ بل بدافع من وحشيتهم ..

فبدا التفكير على وجه الملكة ، كانما كانت تشاطر دي لامبسك اعتقاده .. ولكنها عادت فهزت رأسها نفيا .. وقالت :

ــ كلا ايها الامير .. ان الشعب لم يقدم على تلك الافعال بدافع مـن

وحشيته . فلا تحاول ان تخفي عني الحقيقة . واخبرني .. اهو الغضب ام الحقد ؟

ـ اكبر ظني انه الحقد نتج عن الغضب يا مولاتي ..

ـ وعلى من يحقدون ؟ آه . اراك مترددا يا سيدي .. فحذار ان تخدعني والا ارسلت احد فرساني الى باريس ليأتيني بالحقيقة ..

فانبرى احد المتزلفين الى الملكة . وقال باسما :

ـ مولاتي .. ما الذي يدفع الشعب الى كراهيتك ؟ قد يكره الشعب الجميع ، اما جلالتك فهو ابدا يحبك ..

ولم تأبه الملكة بهذا التملق . واستطردت :

ـ تكلم يا مسيو دي لامبسك ..

ـ مولاتي انني لا اعدو تقرير الحقيقة اذا قلت انه مدفوع الي ما فعل بدافع من حقده ..

ـ حقده علي ؟

ـ بل حقده على الرؤوس الكبيرة جميعا .

فقالت الملكة في هدوء : تلك هي الحقيقة ولا شك .! فانا احسها .

ـ فقال الامير : مولاتي .. انني جندي قبل كل شيء ..

ـ اذن تحدث الينا كجندي .. ودعنا نسمع ما قررت اتخاذه من تدابير ..

ـ ليست هناك اية تدابير على الاطلاق يا مولاتي .

فصاحت الملكة في دهشة : ليست هناك تدابير ؟! كيف يمكن ان تقول ذلك لملكة فرنسا يا سيدي وانت ترى الرعاع يعملون القتل والتخريب في كل شيء .؟

فقال الامير : مولاتي . ان اتخاذ اية تدابير عدائية من جانبنا في الوقت الحاضر معناه القاء البترول فوق الاتون الملتهب ..

فبدا اليأس على وجه الملكة .. وهتفت :

ـ الا يوجد من يستطيع اسداء النصح الي .. حسنا سانصح نفسي..

فأحاط الحاضرون بماري انطوانيت .. واستطردت :

ـ لست اعتقد ان الباريسيين قساة القلوب .. فهم ولا شك يكرهوننا لانهم يجهلوننا ، فاذا ما عملنا على توثيق الرابطة بيننا وبينهم زال ذلك الحائل ..

فقال احد الحاضرين : ان من الواجب ان يعاقب الباريسيون لانهم خرجوا على سادتهم وشقوا عصا الطاعة ..

فالتفتت الملكة الى المتكلم .. وصاحت :

ـ هذا انت يا بارون دي بزنقال .. لقد اصبت يا سيدي .

وتحول البارون الى دي لامبسك . وسأل :

ـ الا توافقني على رأيي يا سيدي .. ان الرعاع ارتكبوا عدة جرائم يستحقون من اجلها ..

فقاطعه شاب كان بين الحاضرين قائلا :

ـ انهم يبررون ارتكابهم لتلك الجرائم بدعوى الحصول على الحرية .. والاخاء .. والمساواة .

فتحولت الملكة الى المتكلم فالفته شابا وسيم الطلعة يرتدي بزة ضابط في فرقة الهوسار ..

وأومأت اليه ان يقترب . فأفسح الجميع له الطريق ..

سألته الملكة في لطف : يبدو انك ملم بتطورات الحالة يا سيدي ؟

ـ نعم يا مولاتي .

ـ اذن فتحدث الي في صراحة .. فان الجميع هنا يخفون عني الحقيقة ..

فقال الشاب في حماس :

ـ مولاتي •• ان من ايسر الامور القضاء على ثورة رعاع باريس فان خمسين الف جندي بكامل اسلحتهم على استعداد لسحق هذه الثـورة بمجرد صدور الامر اليهم •

فتحولت الملكة الى البرنس دي لامبسك •• وسألت :

ـ هل هذا صحيح يا سيدي ؟

فأجاب القائد : نعم يا مولاتي ••

واستطرد الشاب :

ـ وفي استطاعة هذا الجيش تطويق باريس والقضاء على الثورة فـي مدى ساعات قلائل •

فاشرق وجه الملكة وقالت في اعجاب : انك شجاع يا سيدي ••

فقال الامير متهكما : أكبر ظني ان هذا الضابط يستحق منصبا رفيعا في الجيش ••

فقالت الملكة وقد لاحظت الغضب الذي استولى على الضابط الصغير:

ـ انه جندي شجاع على كل حال •

فاحنى الضابط قامته للملكة • وقال :

ـ شكرا لك يا مولاتي • انني لا اعرف ماذا سيكون قرار جلالتك ، ولكن ارجو ان تعتبريني خادما مخلصا ، على استعداد لان اضحي حياتي في سبيل العرش •

واحنى الشاب قامته للملكة مرة اخرى ، ثم حيا الامير الذي اهانه في احترام ، وتهيأ للرجوع الى مكانه •

واعجب الملكة سلوكه النبيل حيال الامير ، فاستوقفته قائلة :

ـ ما اسمك يا سيدي ؟

فاجاب الشاب : انني ادعى البارون دي شارني •

فاندفع الدم الى وجنتي ماري انطوانيت • وهتفت :

ـ دي شارني !! هل تربطك بالكونت دي شارني صلة القرابة يـا سيدي ..؟

ـ انني اخوه يا مولاتي .

فقالت الملكة في صوت منفعل وهي تتلفت حولها :

ـ كان يجب ان اعرف ذلك قبل الان .. فانك تشبه اخاك كل الشبه. ولكن كيف التحقت بفرقة الحرس ..؟

ـ لقد امرني اخي ان آخذ مكانه في فرقة الحرس بعد وفاة ابينـا . ومضى علي في هذا المنصب سبع سنوات .

فقالت الملكة : ولكن اخاك لم يخبرني بذلك من قبل .. حسنا ..

فاحنى الشاب قامته للملكة ثم عاد الى مكانه بين رفاقه مـن صغـار الضباط .

واستأنف الجميع حديثهم بعد ذلك عن الحوادث التي اقلقت باريس. وعن سقوط الباستيل وما احاط به من جرائم .. وافعال وحشية تدل على منتهى القسوة .

وفجأة فتح باب القاعة ، ودخل لـويس السادس عشر وعلى شفتيـه ابتسامة عريضة ..

وتحولت اليه الانظار في وجوم .

وهرولت الملكة صوبه ، وهي تتلهف الى معرفة الخطة التي اعتزم السير عليها ..

فقال لويس : سيدتي .. لقد انست حوادث اليوم الخدم واجباتهـم فلم يهيئوا لي الطعام في غرفتي الخاصة فهلا تكرمت بالامر ان يأتوني بـه هنـا ..؟

فقالت الملكة في دهشة : هنا ؟!

ـ نعم ، وفي استطاعتنا جميعا ان نتحدث اثناء ذلك ..

وظل الحاضرون في صمتهم العميق حتى ابدى الملك رغبته في تنـاول طعام العشاء معهم ، واستعـادوا حماستهـم عند ما نطـق الملك بكلمـة « تتحدث » .

★ ★ ★

وبدأ الملك يلتهم طعامه في شراهة مأثورة عن بيت بوربون ..وانصرف الجميع الى احاديثهم مرة اخرى ، فامرهم لويس بالتزام الصمت حتى يتمكن من تناول طعام العشاء بشهية !!

واغضب ذلك الملكة ، فحاولت اثارة حماسته ..

سألت : مولاي .. أليست لديك اوامر تصدرها .؟

فابتسم لويس السادس عشر وقال : كلا ، فانني لم اجتمع بمستشاري بعـد !.

وضحك ، ثم اقبل على الطعام يلتهمه في هدوء عجيب ، اغاظ الملكة .

وسرى بين الحاضرين شعور الاستياء ، فلم يلبثوا ان انسحبوا مـن القاعة في هدوء . ولم يبق فيها غير الملك والملكة والبرنس لامبسك والبارون بزنفال ..

ثم فتح باب القاعة في هدوء ، ودلفت منه احدى وصيفات الملكة .

واشارت ماري انطوانيت الى المرأة بالاقتراب ، فدنت منها الـوصيفة وقدمت اليها رسالة صغيرة ، ففضتها الملكة وقرأت :

« بحق السماء لا تتسرعي يا مولاتي .. انني في انتظار جلالتك » .

غمغمت الملكة في دهشة : هذا خطه .!

وتحولت الى وصيفتها .. وسألت :

ــ هل مسيو دي شارني في غرفتي ؟

ــ نعم يا مولاتي . لقـد وصل الان . ووجهه ملطـخ بالدماء معفر بالتراب .

فالتفتت الى القائدين •• وقالت :
ـ لحظة واحدة ايها السادة •
وهرولت الى جناحها •

★ ★ ★

وعندما دلفت الملكة الى غرفتها • فالفت الشخص الذي بعث اليها بالرسالة في انتظارها •
كان طويل القامة ، بادي القوة ، حديدي البصر ، انيق الهندام • تتراوح سنه بين الثانية والثلاثين والخامسة والثلاثين •
ولاحظت الملكة ان الشاب يرتجف • وان ملابسه الانيقة ممزقة وسيفه ملتو حتى لقد تعذر اعادته الى غمده •
وكان الشاب يذرع الغرفة جيئة وذهابا في خطى سريعة قلقة ، فلما رأى الملكة اقبل عليها في لهفة •
صاحت ماري انطوانيت :
ـ مسيو دي شارني ! مسيو دي شارني هنا !
فاحنى الشاب قامته احتراما • فتقدمت منه الملكة وقبضت على ذراعه بعنف •• ثم صاحت :
ـ لماذا جئت يا كونت ؟
فاجاب الشاب : لاعتقادي ان واجبي يقضي علي بالحضور ••
ـ كلا ، ان واجبك يقضي عليك بالابتعاد عن فرساي •• ولا اخالك نسيت اتفاقنا السابق •• نعم •• ذلك الواجب الذي يقضي عليك بالابتعاد عني الى الابد !
ـ هذا صحيح يا مولاتي •• ما لم يكن هذا الواجب يحتم علي الاسراع الى قصر فرساي من اجل العرش ••
فغطت الملكة وجهها بيديها •• وسألت :
ـ ومن اين انت قادم ؟

ـ من باريس •• تلك المدينة التي تغلي كالبركان الثائر !

فصاحت الملكة في جزع :

ـ يا الهي ! حتى انت تأتيني باخبار مزعجة ؟!

فصاح الشاب : مولاتي •• ان اعظم خدمة يؤديها المخلصون لجلالتك في الظروف الحاضرة • هي اطلاعك على الحقيقة •

ـ وهل الحقيقة ما ذكرت الآن ؟

ـ نعم يا مولاتي •

فقالت الملكة : اذن ارجو ان تكفيني مؤونة سماع الحقيقة المؤلمة يا صديقي ••

فقال الشاب في اصرار :

ولكن الظروف الحالية تقضي علينا جميعا بمجابهة الامر الواقع ومن العبث ان نخدع انفسنا • ونسير وراء امل زائف •

ان ثورة الشعب الحالية ، ليست نتيجة عامل طارىء ، وانما هي ثمرة تدبير عشرين عاما • فقد كنت انتمي الى احدى الجمعيات السرية التي لبثت تدبر المؤامرة وتحكم حلقاتها مدى هذه الاعوام •

فقاطعته الملكة قائلة :

ـ وهل لا زلت تنتمي الى هذه الجمعية يا سيدي ؟

ـ كلا يا مولاتي •• فعندما علمت باغراضها ، وكيف انها تسعى للقضاء على العرش ، انسحبت في هدوء •• بيد ان انسحابي هذا لم يؤثر في وجودها ، لانها كانت تتلقى مئات الطلبات يوميا من اناس يطلبون الانضمام اليها •

فقالت الملكة في جزع :

ـ رباه •• لقد اصبحت الحالة لا تطاق •• سيدي •• اذكر لي الحقيقة بحذافيرها •• ولا تخف شيئا •

فجثا الشاب عند قدمي الملكة •• ثم اخذ راحتها بين يديه وقبل اناملها الباردة بشفتيه الملتهبتين • وقال :

ــ مولاتي •• لقد سبق السيف العذل • واصبحت مقاومة الثورة امرا لا يدفع الضرر ولا يؤخره ، فان الباريسيين لن يقفوا عند اي حد للقضاء على الملكية وذبح الاسرة المالكة •

فقالت ماري انطوانيت في جزع :

ــ هل انت واثق مما تقول يا سيدي ؟

ــ لو ان مولاتي رأت غضبة الشعب حول الباستيل اليوم • لادركت انني لا اقرر الا الحقيقة •• مجردة عن كل زيف ••

انني خادمك المخلص ، وعلى استعداد لان ابذل حياتي في سبيل الدفاع عنك • بيد انني اعرف ان التيار الذي سيجرفنا في سبيله اولا لا بد سيجرفك بعدنا ••

لقد عول الشعب على سحق الاشراف ثم •• الاسرة المالكة •

فقالت الملكة في كبرياء : وهل نسيت جيش الملك يا سيدي ••

فاجاب الشاب في سخرية :

ــ لو ان مولاتي رأت حماسة الجماهير اليوم لايقنت عبث المقاومة •• حتى النساء والاطفال كانوا اكثر حمية الى القتال من الرجال ••

فقالت الملكة • وقد اطرقت برأسها الى الارض في يأس :

ــ اذا كان لا بد مما ليس منه بد ، فسأموت كما تموت اية امرأة تحافظ على كرامتها وكبريائها •• اما انت فعد الى تلك المرأة التي ذهبت ضحية صداقتها للملكة •• اعني كونتس دي شارني ••

فقال الشاب : مولاتي لقد قاسيت كثيرا من جراء تلك التضحية التي ارغمتني الظروف على الاقدام عليها •• ولكني اليوم •• سوف انفض عني

غبارها .. لاقف الى جانب جلالتك في تلك المحنة القاسية .. حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ..

فقالت الملكة : ان اندريه ملاك طاهر . وهي لا تستحق منــك غــير الحب ..

واغرورقت عيناها بالدموع ..

فقال الشاب في لهفة :

ــ مولاتي .. دعينا من هذا الحديث الان .. فان الموقف ادق واحوج الى علاج سريع حاسم من التشبث باشياء واهية .

فقالت الملكة : بل دعنا من الحديثين .. وخبرني . لماذا لم تقدم الــى اخاك الضابط في الحرس ؟

فقال الشاب : هل تعنين اخي جورج يا مولاتي ؟

ــ كان من الواجب ان تخبرني بوجوده من قبل ..

فقال الكونت : مولاتي .. ان اخي ما زال حديث السن . وانــا ان كنت قد حزت عطف جلالتك في يوم من الايام ، فليس من النبــل وشرف النفس ان استغل هذا العطف لمصلحة اقاربي واخوتي .

ــ اذن فلك اخوة آخرون ؟

ــ نعم يا مولاتي .. ان لي اخا آخر على استعداد لان يضحي بنفسه في سبيل جلالتك مثل اخويه الاخرين .

وساد الصمت بينهما .

وفجأة سمعت الملكة آهة عميقة صادرة من مخدعها .. فنهضت واقفة وقد بدا عليها الفزع .

واسرعت الى مخدعها وازاحت الستار .. وعندئذ افلتت من شفتيها صرخة حادة وارتدت الى الخلف .

صاحت في فزع : يا الهي ! لقد سمعت الكونتس حديثنا .
فقال الكونت : كلا يا مولاتي .. لا اظن ذلك ..
ثم قفز الى داخل المخدع ورفع زوجته بين يديه ..

★ ★ ★

وبدأت اندريه تستعيد حواسها بالتدريج .. بيد ان قواها العقلية لم تستطع التغلب على تلك القوة الخفية التي كانت تسيطر عليها ..

وحاول الكونت ان يعيد زوجته الى رشدها ، ولكنها قاومته في عنف .. فبدت عليه دلائل الدهشة .. والتفت الى الملكة قائلا :

ـ هذا عجيب يا مولاتي ، يبدو ان شيئا غير عادي قد حدث للكونتس، فانني لم يسبق لي ان رأيتها عرضة لمثل نوبة الاغماء هذه .!

فقالت الملكة في تردد : اكبر الظن انها تعاني ألما خفيا .!

فاجاب دي شارني : هذا مؤكد يا مولاتي .. ولذا استأذن جلالتك في نقلها الى جناحها الخاص في القصر .

فقالت ماري انطوانيت وهي تدق الجرس : كما تشاء يا سيدي ..

ولم تكد اندريه تسمع رنين الجرس ، حتى تحركت في مقعدها ، وغمغمت :

ـ يا الهي .! جيلبر .! جيلبر اللعين .!

ارتجفت الملكة حين سمعت ذلك الاسم . اما الكونت فقد ازدادت دهشته فمدد زوجته فوق احدى الارائك .

ودخل احد الخدم في تلك اللحظة ، فصرفته الملكة باشارة من يدها .!

وتحولت الملكة الى الكونت .. وقالت :

ـ جيلبر !.. ترى من يكون الرجل .؟

فقال الكونت : هذا ما يجب ان نعرفه يا مولاتي ..

فقالت ماري انطوانيت :

ــ اذكر انني سمعت الكونتس تنطق بهذا الاسم من قبل •!

وكأنما احست اندريه بفداحة الخطر المحدق بهـا ، ففتحت عينيهـا وبمجهود جبار استطاعت السيطرة على تفكيرها •• واستوت جالسة فوق الاريكة ••

فسأل الكونت : يالله •! اخبريني ماذا دهاك يا سيدتي •؟ انك ارسلت الذعر الى قلبي •

فقالت اندريه في صوت خافت :

ــ لا شك ان كان لتلك المعارك الدامية التي تدور رحاها الان فـي باريس ، اثرها في نفسي • فحدث لي ما حدث !

وتوقفت لحظة ثم استطردت :

ــ ولكن يالله •! هل استطعت ان تعود من باريس سالما •؟

فصاح الكونت في دهشة :

ــ وهل كان تعرضي للخطر سببا في اغمائك يا سيدتي •؟

فنظرت اندريه الى زوجها •• ثم الى الملكة •• ولكنها لم تجـب ••

فقالت ماري انطوانيت :

ــ اكبر ظني ان ذلك هو السبب الحقيقي يا كونت ••

ولاحظ دي شارني ان نبرات الملكة كانت تنطق بلهجة الغيرة •• فقال: اؤكد لك يا مولاتي ان خوف زوجتي على الملكية اكثر من خوفهـا على سلامتي ••

فقالت الملكة : دعينا من ذلك الان •• واخبريني كيف امكن ان اجدك هنا يا اندريه •؟

وبدا الذعر على وجه الكونتس •• ولكنها استجمعت اطراف شجاعتها وقالت : لست ادري يا مولاتي • فقد حدث انني ذهبت لمقابلة جلالة الملك، وكان اذ ذاك مجتمعا بشخص من ذوي المكانة العلمية يدعى جيلبر • يجاذبه اطراف الحديث •

وتشعب الحديث بينهما الى الحوادث التي اقامت باريس واقعدتها وعما ارتكبه اهلها من الفظائع والجرائم الوحشية التي اعقبت سقوط الباستيل • وكيف ذبح الرعاع مسيو دي لوناي ومسيو دي فليسي في لهجة القت الذعر في قلبي • وعندئذ لم اتمالك نفسي وسقطت مغشيا علي •• ولم استرد جميع شعوري الا الان • وطبيعي ان يكون لحديث الرجل المزعج تأثيره في نفسي • واكبر ظني انني رددت اسمه في اثناء اغمائي •

فقال الكونت :

ــ هذا محتمل •• ويؤسفني ان يكون لذلك الحديث هذا التأثير المؤلم •

فقالت زوجته : انني احسن حالا الآن •

وقالت الملكة تخاطب الكونت :

ــ دعنا من ذلك الآن •• واذهب الى الامير دي لامبسك واطلب اليه ان يستبقي جنوده في ثكناتها ريثما يقرر الملك خطة العمل غدا •

فاحنى الكونت قامته • ثم غادر الغرفة •

وشيعته اندريه بعينيها الى الباب بنظرة تفيض بالحب العميق • فلما اغلق الباب خلفه خانتها شجاعتها • وتهالكت فوق اقرب مقعد • وغطت وجهها بيديها •

ومضت عدة لحظات • عندما نهضت اندريه واقفة • وقالت :

ــ مولاتي • ارجو ان تسمحي لي بالانسحاب الى غرفتي •

ـ كما تشاءين يا اندريه • ولكن خبريني اولا •• أليس لديك ما تريدين قوله لي ؟

ـ كلا يا مولاتي • اذ ماذا يمكن ان اقول ؟

فاستطردت ماري انطوانيت وهي تحدج صديقتها بنظرة فاحصة :

ـ اليس لديك ما تقولينه عن ذلك المسيو جيلبر الذي تركت رؤياه مثل هذا الاثر القوي في نفسك ؟

فارتجفت اندريه •• وهزت رأسها نفيا • وعندئذ قالت الملكة :

ـ حسنا •• يمكنك ان تنصرفي يا عزيزتي •

فتحولت اندريه تريد الانصراف بعد ان احنت قامتها للملكة في احترام •• بيد انها لم تكد تضع يدها على المزلاج • حتى سمعت وقع اقدام تقترب من الغرفة واعقبها صوت لويس السادس عشر يصدر تعليماته الى خادمه •

فتراجعت الى الوراء • وهتفت : انه الملك يا مولاتي !

فاجابت الملكة في دهشة :

ـ وماذا في ذلك ؟! هل تزعجك رؤية الملك الى هذا الحد ؟

فصاحت اندريه :

ـ مولاتي •• بحق السماء ساعديني على تجنب طريقة هذا المساء • يا الهي •• لا شك انني سأموت خجلا •

ـ وهل تعدينني باطلاعي على الحقيقة بعد ذلك ؟

ـ اجل يا مولاتي •• اجل •

ـ اذن اذهبي الى مخدعي ريثما ينصرف الملك •

★ ★ ★

وفي اللحظة التالية دلف لويس السادس عشر الى الغرفة •

الفصل السابع عشر

سقطة اندريـه

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة فتح باب مخدع الملكة .. ووقفت اندريه تودع صديقتها ماري انطوانيت .

وانحنت اندريه على يد الملكة وقبلتها . وسارت في طريقها بخطى متثاقلة محمرة العينين من تأثير البكاء .

اما ماري انطوانيت ، فقد اغلقت الباب . وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وقد بدت عليها دلائل الهياج الشديد .

ثم جلست الى منضدة صغيرة وكتبت بضع رسائل .. ولما فرغت منها قصدت الى غرفة اطفالها حيث القت عليهم نظرة تفيض حنانا وامومة .

ثم عادت الى غرفتها .. واستلقت فوق فراشها .. وانصرفت الى التفكير .

ولكنها عادت فنهضت من فراشها .. اذ شعرت بحاجتها الى الهواء العليل تملأ به رئتيها بعد ذلك المجهود الجبار الذي بذلته في مقاومة الانفعالات المتباينة التي استولت عليها بتطور حوادث ذلك اليوم التاريخي.

وبدأت تستعرض الحوادث المثيرة التي مرت بها .. والتي جعلت دي شارني .. صديقها الصدوق .. وعشيقها الواله الذي قضى السنوات

الطوال وهو لا يردد على مسامعها غير آيات حبه ووجده ــ يبدو لاول مرة في حياته مكتئبا حزينا ينظر الى المستقبل بمنظار اسود .

ثم بدأت تتساءل كيف السبيل الى تفادي الكارثة .. بالالتجاء الى الاصدقاء امثال شارني وغيره . وهم قد برهنوا على ضعف وتردد ؟. ام بالالتجاء الى الاعداء ــ وهم افراد الشعب ــ وبذلك تضع نفسها تحت رحمتهم ، رغم ثقتها انهم يكرهونها لانها .. اجنبية متعجرفة على حد قولهم ؟

وراحت تمعن الفكر . محاولة ان تجد لها مخرجا من تلك الورطة .. حتى اعياها التفكير اخيرا . وهي تتخيل بعض الخواطر الجنونية التي تدل على الحمق ، والرعونة .

وخرجت من هذه المعركة الصامتة بحل واحد . ذلك ان تنشدالسعادة في ناحية اخرى غير ناحية الملك .. بعيدة عن ذلك الوسط الموبوء .. المملوء بالدسائس والمؤامرات .. وبين احضان حبيبها دي شارني ..

دي شارني !! ياالله .! ولكنه متزوج .. وزوجته التي ضحت بنفسها في سبيلها كملكة .. وكزوجة .. صديقتها ..

ولم لا ؟. ألم تصبح في قبضتها بعد ان باحت لها بمكنون سرها ؟. حقيقة ان الكونت يجهل كل شيء .. ولكن ماري انطوانيت امست عليمة بالزلة التي ارتكبها اندريه في حداثتها والتي كلفتها أثمن ما تحرص عليه عذراء وهو شرفها وطهارتها ..

ابتسمت الملكة عندما وصلت الى هذا الحد من التفكير .. وقالت لنفسها : ياالله ! كم هو عجيب ، ان يضع القدر الساخر صبي بستاني حقير من تريانون في طريق فتاة من اسرة عريقة ، اصبحت فيما بعد صديقة لاحدى الملكات !!

نعم •• من عجب حقا اذ تدور الايام دورتها ، ويصبح البستاني هذا — جيلبر — زعيم حركة خطيرة تؤذن عرش مملكة من اكبر ممالك اوروبا بالزوال ؟

من عجب حقا • ان تتوالى السنــون ، فيتساوى صبي البستــاني الحقير مع الفتاة التي تنتمي الى اسرة من اعرق الاسر الفرنسية •• والتــي سطا على عرضها ذات ليلة ، ثم خلفها حليفة الهم والنكد •

من عجب حقا •• ان يصبح جيلبر مستشارا لنكر العظيم •• وصديقا للملك فرنسا !

ارتجفت ماري انطوانيت عند بلوغها هذا الحد من التفكير •

ورأت بثاقب بصيرتها • ان جيلبر هذا الذي كان العامل المباشر فــي اذكاء حماسة الشعب •• بل الشرارة التي الهبت صدره •• وحملته عــلى اقتحام الباستيل •• ودك صرحه ، جدير بدراستها •• حقيــق بالاهتمام بامره ، فتعمل اما على ضمه الى حظيرتها فيصبح آلة طيعة كتلك الآلات التي تسيرها حسب مشيئتها •• او الى اقصائه •• والتحرز منه ، وبذلك يزداد اعداؤها واحدا •• واي واحد •

★ ★ ★

وكان الاعياء والنصب قد بلغا منها كل مبلغ •• فتهالكت فوق احــد المقاعد •• ولم تلبث ان اغمضت عينيها ، واستسلمت لسبات عميق •

ورأت ماري انطوانيت بعين الحالم انها تسير في تريانون ، حين بــرز لها حيوان هائل الحجم من وراء احدى الاشجار •

وكانت هيئة ذلك الحيوان المخيف • تشابه هيئة الدكتور جيلبر •

فافلتت من شفتيها صرخة حادة •• ثم استوت جالسة فوق مقعدها •

وكانت وصيفتها مدام دي ميزري قد دخلت الغرفة في تلك اللحظة فوقفت ترقب الملكة في فزع •• ثم قالت :

ــ يبدو ان جلالتك مريضة •• هل استدعى الطبيب ؟

فبدا التفكير على وجه ماري انطوانيت •• ثم اجابت :

ــ نعم استدعى الدكتور جيلبر !

فسألت الوصيفة في دهشة :

ــ ومن يكون الدكتور جيلبر هذا يا مولاتي ؟

ــ انه طبيب التحق بخدمة مولاك امس •

★ ★ ★

وبعد بضع دقائق دلف الدكتور جيلبر الى مخدع الملكة وعلى وجهه امارات الدهشة ••

وراحت ماري انطوانيت تصعده بنظرة فاحصة •• ولم تلبث ان بدت على وجهها دلائل الغضب والحنق ••

كانت تتوقع ان ترى شخصا دميم الخلقة ، عريض المنكبين ، له هيئة الوحوش ، فالفته شابا وسيم الطلعة ، ضاحك السن ، جذاب التقاطيع ، باسم الثغر ، انيق الهندام ••

وشعرت بالنفور منه منذ النظرة الاولى ، ولم تستطع كبت شعورها ، فتجلى في نظرتها الممزوجة بالغضب والصرامة ••

واما جيلبر فقد قابل نظرتها بمثلها •• وظل يحدق في وجهها كانما ينظر الى وجه دمية عجيبة ••

وخيم الصمت عليهما فترة طويلة • واخيرا ضاقت ماري انطوانيت ذرعا بنظراته النفاذة •• فهتفت في حنق :

ـ حسنا يا سيدي ٠! لماذا قدمت ٠؟ الكي تقف امامي وتحدق في وجهي بتلك النظرة الغريبة ، ام لتسألني عما اشعر به ؟٠

لم ينكمش جيلبر ٠٠ ولم ينزعج ٠٠ وانما اجاب في صوت هادىء :

ـ ان من واجب الطبيب ان يفحص مريضه بالنظر اولا ٠٠ فلئن قضيت وقتا طويلا في التحديق في وجه جلالتك ، فليس ذلك بدافع من فضولي او جرأتي ٠٠ وانما لانني طبيب يؤدي واجبه ٠٠

ـ وهل وجدتني مريضة ٠؟

ـ لست مريضة بمعنى الكلمة ، فانت فريسة لثورة عصبية عنيفة ٠

فقالت ماري انطوانيت في تهكم :

ـ حقا ٠! ولم لم تقل انني في ثورة غضب جائحة ٠؟

ـ معذرة يا مولاتي ٠٠ فما دمت قد طلبت الي ان أقرر رأيي ٠٠ فأنا افضل التعبير عنه بالاصطلاحات الطبية ٠٠

ـ ليكن ما تريد ٠٠ ولكن ما هو الباعث على تلك الثورة العصبيـة العنيفة ٠؟

ـ مولاتي ٠٠ انت تعرفين ان الطبيب لا يرى غير آلام الجسد ٠ اما آلام الروح والنفس فلا يعرفها الا المنجمون ٠٠

ـ ومعنى ذلك ان في استطاعتـك ان تخبرني ٠٠ ليس عن آلامـي الجسدية فحسب ، بل وعما يجول بخاطري من افكار ٠؟

فاجاب جيلبر في برود : هذا محتمل يا مولاتي ٠

فانتفضت الملكة من الغضب ، وكادت تثور وتصخب ، ولكنها قـادت ثورة غضبها الى التهكم الشديد ٠٠ قالت :

ـ من الواجب علي ان اصدقك ، فانت رجل مثقف !!٠

ـ لعله من كرم اخلاق جلالتك ان تطلقي علي لقب « رجل مثقف » دون علمك بالبراهين الدالة على ذلك ..

فعضت الملكة على شفتها قهرا .. واجابت :

ـ عفوا يا سيدي .. فانا انما اردد ما يقرره الجميع عنك ..

فاحنى جيلبر قامته احتراما ، وقال :

ـ مولاتي .. ان امرأة لها مثل ذكاء جلالتك يجب الا تأخذ بما يقوله السوقة قضية مسلمة ..

فسألت الملكة في قحة : هل تعني افراد الشعب ..؟

فاجاب جيلبر في لهجة صارمة جعلت الدم يغلي في عروق الملكة :

ـ كلا يا مولاتي .. انني اعني السوقة ..!

فاستطردت قائلة :

ـ دعنا من ذلك الان .. اخبرني اين تلقيت علومك ..؟

ـ في كل مكان يا مولاتي ..!

ـ اتعتقد ان ذلك جواب مقنع ..؟

ـ اذن فقد تلقيت علومي في مكان مجهول .

ـ انني افضل هذه الاجابة ، هل تلقيت علومك اذن في مكان مجهول..؟!

فأحنى الطبيب قامته ، وأجاب في برود : كما تشائين يا مولاتي ..

فبدا السخط على وجه الملكة ، وصاحت :

ـ سيدي .. ارجو ان تتوخى الدقة في اجاباتك ، فان كلمتي « كل مكان .. ومكان مجهول » لا تدلان على شيء ..

فاجاب جيلبر في برود : لقد قلت « كل مكان » لانني حقا تلقيت علومي في كل مكان : في الكوخ ، وفي القصر ، في المدن وفي البادية ، وأجريت تجاربي على الانسان وعلى الحيوان ، وعلى نفسي وعلى غيري ، فها انت

ترين انني تلقيت العلم حيث وجدت العلم ، اعني في كل مكان .!

فصعدته الملكة بنظرة احتقار ، ثم دارت على عقبيهـا ، فاصطـدمت بمنضدة صغيرة كان عليها قدح من الشيكولاته ..

وسقطت المنضدة فوق الارض ، وتحطم القدح ، فلم يتحرك جيلبر من مكانه كما تقضي بذلك التقاليد ، فزاد ذلك في هياج الملكة وسخطها .

وصاحت : وعلى من جهابذة العلوم تلقيت علومك يا سيدي ؟

ـ من الصعب الاجابة عن هذا السؤال دون اغضاب جلالتك ..

فصاحت الملكة في حدة : تغضبني ! انت تغضبني ؟! انك واهم ولا شك يا سيدي .. فان الملكات لا يغضبن ، وانما قد يتملكهن السأم والملالـة فقط .

فاحنى جيلبر قامته للملكة مرة اخرى . ثم تهيأ للانصراف .. فاسرعت ماري انطوانيت تحول دونه والباب .. فالتفت اليها .. وقال :

ـ ارجو المعذرة يا مولاتي .. فقد نسيت ان جلالتك قد استدعيتني كطبيب .

وعاد الى مكانه واستطرد : ان جلالتك تسيريـن بخطى واسعة نحـو ازمة عصبية حادة .. ونصيحتي اليك الا تستسلمي لهـواجسك حتى لا تسوء حالتك ، وبذلك تفقدين السيطرة على اعصابـك .. ونبضك الان بطيء ، والدم يتدفق الى قلبك بغزارة ..

انك تتألمين .. وتوشكين على الاختناق . وانا ارى من الحكمـة ان تنادي احدى وصيفاتك لتعنى بجلالتك ..

دارت الملكة حول نفسها .. وتهالكت فوق احد المقاعد ..

هتفت : هل اسمك جيلبر ؟

ـ نعم يا مولاتي ..

ـ هذا غريب ! انني اذكر حادثة وقعت ابان شبابي .. واكبر ظني ان هذه الحادثة لا بد تؤلمك لو انني اعدتها على مسامعك .. ولكني اعتقد ان ذلك لن يضيرك في شيء ، فانت قادر على شفاء نفسك ، لانك فيلسوف حكيم ، اكثر منك طبيب جثماني .

وابتسمت ابتسامة ساخرة ..

فقال جيلبر : يسرني انك تبتسمين يا مولاتي ، لان ذلك معناه تغلب السخرية على العصبية .. ولا يسعني الا ان ابدي اعجابي بمقدرة جلالتك في السيطرة على اعصابك الثائرة ..

واستطردت الملكة قائلة : اما الحادثة التي اعنيها فهي ..

وبمجهود جبار ركزت ماري انطوانيت ارادتها في عينيها .. وقالت :

ـ عندما كنت لا ازال ولية العهد اقمت في تريانون .. وتصادف ان رأيت صبي بستاني قذر فظ مثل جان جاك . يحفر الارض باصابعه ويلتقط الديدان .

وكان اسم هذا الصبي جيلبر .

فقاطعها الدكتور جيلبر قائلا : لقد كنت انا ذلك الصبي يا مولاتي .

فقالت ماري انطوانيت في حقد :

ـ انت ! اذن فلم اخطىء ! وعلى ذلك فانت رجل غير مثقف ؟!

فقال جيلبر : ما دامت ذاكرة جلالتك قوية هكذا .. فلا بد انك تذكرين ان تلك الحوادث وقعت عام ١٧٧٢ .. ونحن الان في عام ١٧٨٩ اعني انه قد مضت سبعة عشر عاما على تلك الحوادث .. وفي هذه الفترة اكثر من الكفاية كي يتحول انسان جاهل الى عالم جهبذ .. فان الروح والعقل ينموان سراعا في احوال خاصة كالزهور والنباتات اذا وضعت في مكان حار .

والثورات يا مولاتي ، هي المكان الحار الذي تصقل فيه العقول .. فانا ان كنت قد بلغت هذه المرتبة من التعليم ، فانما لاني تقلبت بين ثورات عديدة .

ـ انني لم اقل ان جيلبر هذا كان غبيا .. كلا . لقد كان ماهرا .

على العموم دعنا نتحدث عن جيلبر الرجل .. جيلبر العالم .. جيلبر الفيلسوف الذي اتحدث اليه الان .

ـ فقال جيلبر : على رسلك يا مولاتي .. خبريني . ما الباعث لـك على احضاري ؟

فقـالت :

ـ لقد عرضت نفسك على الملك كي يتخذك طبيبا .. فاعلم يا سيدي انني اهتم بصحة زوجي كل الاهتمام ، وان من المستحيل ان اعتمـد فـي هذا الشأن على رجل لا اعرف عنه شيئا .

فقال جيلبر :

ـ لقد عرضت نفسي حقا على جلالته ، ولكن كطبيبه السياسي بعد ان اطلع جلالته على توصية مسيو نكر .. اما عن الباقي ، فاؤكد لك انه اذا قدر يوما ان يكون الملك بحاجة الي كطبيب جثماني . فانني لن اتوانى عن تقديم عصارة عقلي ومعارفي الى جلالته .. كما يجب ان تعلمي انني لـم اتقدم الى جلالته كطبيب فحسب ، وانما كصديق كذلك .

فصاحت ماري انطوانيت في ازدراء :

ـ كصديق ! انت يا سيدي صديق للملك !؟

فاجاب جيلبر في هدوء : ولم لا يا مولاتي ؟

ـ يا لضيعة الامل .. لقد عدنا الى عصور الجهالة حين كان السحرة والمشعوذون يحكمون الممالك بالدجل والشعوذة .

فتخضب وجه الدكتور جيلبر بحمرة الخجل • وادركت ماري انطوانيت انها اصابت الهدف • فاستطردت :

ـ انني لم اقرر الا الحقيقة يا سيدي ، فانت من اولئك الذين يمارسون تنويم الناس ، ليعرفوا اسرارهم •

فصاح جيلبر في سخرية :

ـ لقد اصبت يا مولاتي •• فانا تلقيت علومي على كاليوسترو العظيم •

ـ نعم •• على يدي ذلك الرجل الذي اتخذ من الاعيبه الشيطانية حبائل يتمكن بها من سلب ارواح فريق من الناس • واجسام فريق اخر !!

فادرك جيلبر مرمى الملكة ، فامتقع وجهه • اما ماري انطوانيت فقد شعرت بقلبها يركض بين ضلوعها من الفرح •

واجاب جيلبر : مولاتي •• انك مخطئة في اعتقادك ••

وسلط عليها شعاع عينيه الحديديتين ، فتراجعت الى الوراء في ذعر وهتفت : لتحل اللعنة على كاليوسترو واتباعه •

فصاح جيلبر : اذن فلم يكذب كاليوسترو حين ذكر لي انه سنحت له الفرصة مرة ان يطلعك في حدائق قصر تريانون ـ اثناء ان كنت ولية للعهد ـ على برهان دامغ لعلمه • ولا بد انك تذكرين هذا البرهان ، اذ انه ترك في نفسك اكبر الاثر حتى لقد اغمي عليك وقتئذ •

كان جيلبر يهاجم الملكة في تلك اللحظة • وقد نجح في هجومه الى حد بعيد • اذ امتقع وجه الملكة وارتجفت اوصالها •

ثم اجابت :

ـ هذا صحيح • فقد جعلني ارى ـ وانا في حالة تقرب من النوم ـ آلة مخيفة • بيد انني واثقة ان لا وجود لمثل هذه الالة الجهنمية في الوقت الحاضر •

ـ لست ادري شيئا عن ذلك البرهان يا مولاتي • كل ما اردت ان اعني هو البرهنة لجلالتك على ان لهذا الرجل واضرابه سيطرة تامة على الخلائق • بما فيهم الملوك والملكات •

ـ انني ما زلت اعتقد ان ذلك الرجل وامثاله مجرمون يستحقون القصاص • ويقيني انك لو استعرضت ماضيك لوجدت فيه من المخازي ما يدفعك لان تنشد حياة الوحدة •

ونصيحتي اليك ان تهجر البلاد ، ولا تقرب الملك حين يمرض فانت نفسك في حاجة الى الشفاء •

فاجاب الدكتور جيلبر في هدوء :

ـ شكرا لك على نصحك يا مولاتي •• بيد انني تدبرت امري واستعرضت ماضي • وقررت البقاء في البلاط •

فقالت الملكة في لهجة ساخرة وقد بدت في عينيها نظرة تدل على التهديد : حقا ••!!

وتجاهل جيلبر كلماتها واستطرد :

ـ لقد فكرت في الامر جيدا •• وخرجت من تفكيري بنتيجة واحدة • وهي ان لكل انسان هفوات ، وبمقارنة هفواتي بهفوات الغير اتضح لي ان جرمي لا يقاس الى جانب جرائم هذا الغير ••

فقالت الملكة في تهكم : ومع ذلك فانت من العلماء !!

ـ مولاتي •• مهما يكن من امر • فانا رجل خبر بؤس البشر ••ودرس شقوته •• وتقلبت على المحن ، وتألبت على الاجن • حتى لقد أصبحت قادرا على الحكم بمجرد النظر ، فانا مثلا استطيع ان اقرأ ما يجول بخاطرك كأنني أقرأ في كتاب مفتوح •

ويكفي ان اركز ارادتي في عيني ، حتى استطيع قراءة رغباتك ، او رهباتك ، ومعرفة العواطف والانفعالات التي تستولي عليك .

وكان جيلبر يتكلم بلهجة صارمة ، وعيناه لا تتحولان عن وجه الملكة في نظرة حديدية ثابتة ، جعلت الرعب يتمشى الى قلبها ، فتراجعت الى الوراء وقد امتقع وجهها .

واستطرد الدكتور جيلبر : هل امنت الان بان في وسعي ان اطلع على ما تريدين اخفاءه عن الجميع ، حتى عن نفسك ؟ وهل اعتقدت ان في استطاعتي ان اسلبك ارادتك ، وامددك فوق هذا المقعد الذي اليه تستندين ، بنظرة واحدة من عيني ؟

فتأوهت الملكة .. ولزمت الصمت .

فاسترسل جيلبر : ويكفي ان انطق بكلمة واحدة ، لاجردك من شعورك واستولي على سرك . ولكني رجل مخلص لا يرجو لك الا الخير ، فلا تخشى شيئا فانا على استعداد لان اقتل نفسي على ان افضح سر مليكتي .

وشعرت ماري انطوانيت بخوار قواها .. فراحت تقاوم تلك الارادة القوية عبثا ، وتضرب الهواء بيديها في جنون .

ـ هذا مع علمي بانك دفعت بي الى الباستيل لغير ما جرم ارتكبته ، او ذنب جنيته ، ولعلك تأسفين الان لان الشعب استطاع ان يحطم الباستيل ويخرجني من جوفه .

انني ارى الحقد مجسما في عينيك .. ولست ادري لذلك من سبب ، وهأنذا اعرض عليك صداقتي .

فصاحت ماري انطوانيت في فزع :

ـ صداقتك ؟! لا شك انك مجنون يا هذا .

ـ مولاتي .. ان صداقتي اجدى لك من عداوتي .. فاذا طلبت

عداوتي فليس لي غير ان اغادر القصر مباشرة لانضم الى تلك الثورة التـــي باتت تهدد العرش بشر مستطير •• واذا اردت صداقتي ، فثقي انني سأكون اول جندي يذود عن حياض مليكه • وملكته •• ويدفع الاذى عن العرش من اجلهما •

فبدا التفكير على ماري انطوانيت ••

كانت تشعر برغبة شديدة في التخلص من ذلك الرجل الخطر •• ولكنها من ناحية اخرى كانت تخشى مناصبته العداء لتحديه واستهانته بها •

وفجأة •• سمعت الملكة وقع خطوات في الخارج •• فرفعت رأسهـــا وهتفت : الملك ••

فصاح جيلبر : أرجو ان تسرعي في اتخاذ قرارك يا مولاتي •• أأبقى ام ارحل ؟

فاجابت : بل ابق ••

★ ★ ★

دلف لويس السادس عشر الى غرفة زوجته في خطى متثاقلة •• وراح يجيل بصره في ارجاء الغرفة في ارتياب •• ثم قال :

ـ أمريضة انت يا سيدتي •؟ لقد ابلغت انك ارسلت فـــي استدعـــاء الطبيب •

فقالت الملكة • وهي تتقدم نحو زوجها :

ـ نعم •• كنت اشعر بوعكة خفيفة فاستدعيت الدكتور جيلبر •

فقال لويس في دهشة : لا بد ان في الامر سرا جديدا •• فانك بدلا من استدعاء طبيبك الخاص استدعيت الدكتور جيلبر ، وهو امر غير طبيعي كما ارى ••

وضحك •• ثم استطرد : ارى من واجبي ان احذرك • فان الدكتور جيلبر صديقي ومستشاري الخاص • وهو لن يخفي عني امرا من الامور••

فابتسمت الملكة •• وسألت : ولكن لماذا ارسلت في طاب الدكتـــور جيلبر في هذه الساعة المبكرة يا مولاي •؟

فاجاب لويس في اكتئاب : ذلك لانني اردت استشارته في بعض امور تخص العرش ••

وتحول لويس الى الدكتور جيلبر •• ثم قال : هيا بنا يا دكتور ••

فقالت ماري انطوانيت : كلا •• فلتتكلما امامي يا مولاي ••

ـ يؤسفني ان ارفض يا سيدتي •• فان الموضوعات التي ستتناولهـــا المناقشة مما لا يلذ لك سماعه ••

فقالت الملكة في غضب : الست الملكة ومـــن حقي ان اعرف الحقيقـــة والواقع •؟

وقال الدكتور جيلبر : مولاي • ما دامت جلالة الملكة تنشد الحقيقة فلست ارى ما يحول دون اطلاعها عليها ••

فبدا التفكير على وجه لويس • ثم قال : كما تشاءين يا سيدتي •• ثم جلس ••

وقالت الملكة : والآن •• ابدأ حديثك يا دكتور !•

فنظر جيلبر الى الملك كأنما ليستأذنه •• فقال لويس :

ـ تكلم يا سيدي ، ما دامت الملكة تريدك على الكلام ••

فقال جيلبر : حسنا يا مولاتي •• ساطلع جلالتك على الباعث في قدومي هكذا الى القصر مبكرا •• انني جئت لانصح جلالة الملك بالذهاب الـــى باريس ••

ولو ان قنبلة انفجرت في الغرفة ، لما كان لها مثل الاثر الذي احدثتـــه كلماته في نفس الملكة ••

فقد افلتت من شفتيها صرخة تدل على الهلع . واتسعت حدقتاها ووثبت واقفة على قدميها ..

ثم هتفت في ذعر : الملك يذهب الى باريس ؟! هل من المعقول ان يقترح رجل مثقف مثلك ذلك الاقتراح الاخرق ؟ لا اخالك تريد ان يعرض الملك نفسه لغضب رعاع باريس كـي يمزقوه اربا ، بعيدا عـن حرسه وجيشه الامين ؟!

ـ مولاتي .. انني انما اسعى لاصلاح ذات البين بين الملك وشعبه . فالشعب ثائر متمرد ، لانه يكره النبلاء وما يمت الى النبلاء بصلة .. فلو ان جلالته ذهب الى الشعب وقال « انني ملككم الذي يحب لكم الخير ، ويسعى الى ما فيه مصلحتكم » .. اقول لو ان جلالته فعل ذلك لهـدأت الخواطر وعادت المياه الى مجاريها ..

ان الشعب يحب المليك ويحترمه . كما احبه انا واحترمه .. ولكنـه مدفوع الى الثورة ، لما سمعه ويسمعه كل يوم عن الحرية التي يتمتع بهـا غيره من الشعوب ، فنهض يطالب بنصيبه من تلك الحرية ..

فقال لويس في هدوء : الواقع ان الدكتور جيلبر مصيب في رأيه وارى انه قد حان الوقت لان نتمشى مع رغبات الشعب ..

فصاحت ماري انطوانيت في حدة . كلا .. كلا .. مستحيل ..

واستطرد جيلبر : لقد كنت في باريس يا مولاتي .. فهل تعرفين علام عول اهلها ؟

فقالت الملكة في هدوء : كلا فمن اين لي ان اعلم ؟!

ـ ان اهل باريس يعتقدون ان هناك سدا منيعـا يحول بينهم وبـين ملكهم . ولذلك عولوا على اختيار رجال امناء من بينهم ينوبون عنهم في الذهاب الى قصر فرساي ومقابلة الملك .

فصاحت الملكة في مزيج من السخرية والفرح الوحشي :
ـ حقا ٠! اذن دعهم يأتون ٠! دعهم يأتون ٠٠ فسنعرف كيف نستقبلهم ٠!

فقال جيلبر : لحظة واحدة يا مولاتي ٠٠ فان هؤلاء المندوبين لن يحضروا بمفردهم ٠٠ وانما سيأتون في حراسة عشرين الفا من رجال الحرس الوطني ٠٠

فصاحت الملكة : الحرس الوطني ؟ وما هو الحرس الوطني يا سيدي؟

ـ خففي من غلوائك وسخريتك يا مولاتي ، فهذا الحرس هو القوة التي ستصبح عما قريب اليد المنفذة لاماني الشعب ٠٠

وهتف الملك في دهشة : عشرون الف رجل ٠!

فقالت الملكة : مهما يكن من امر ٠٠ اننا لا نخشى هؤلاء العشرين الفا، فدعهم يأتون لترى بعينيك كيف سيلقون جزاء جرأتهم واستهتارهم ٠

فهز جيلبر رأسه ٠٠ واستطرد :

ـ انك تخدعين نفسك يا مولاتي ، فانك بفعلتك هذه تدفعين بالمملكة الى اتون ملتهب ، وحرب اهلية طاحنة ، لن تبقى ولن تذر ٠

فصاح لويس : دعينا نسمع حديث الدكتور يا انطوانيت ، فان مجيء مثل هذا الجيش الجرار يستدعي اعمال الروية والفكر ، ومقابلته باللباقة والكياسة من جانبنا ٠

واستطرد جيلبر : وسيأتي المندوبون لمقابلة الملك ، ليطلبوا الى جلالته العودة الى باريس ، وما دام جلالته قد طلب الي ان امده برأيي فانا ارى ان يجيب المندوبين الى طلبهم ٠٠

فهز لويس رأسه دلالة على الموافقة ٠٠ فصاحت الملكة في حدة !

ـ لا شك انك مجنون يا هذا ٠٠ اتطلب الى الملك ان يذهب الى باريس وحيدا ، وفي هذه الظروف الدقيقة ٠؟

ان معنى ذلك موافقة الملك على جرأة الرعاع وقحتهم ، واعلانه لرضائه عن افعالهم المنكرة التي ارتكبوها .

ــ كلا يا مولاتي .. بل معناه ان الملك قد صفح عن المخالفات التي اقدم عليها الشعب .. وسيرى في هذا العمل الجميل ما يدعوه الى التعلق بالمليك والاخلاص لذاته .

وقال لويس : اكبر الظن انك اول شخص استطاع ان يواجهني بالحقيقة يا سيدي ..

فصاحت الملكة : الحقيقة !!

فاجاب جيلبر : اجل يا مولاتي .. تلك الحقيقة التي ستنير لنا السبيل لانقاذ الملكية مما يتهددها .. وينذر بمحوها .

فبدا التردد على وجه ماري انطوانيت . والواقع انها كانت تدرك تماما ان الطبيب لم يفه بغير الصدق ..

فرفعت رأسها .. وقالت : ومتى تريد جلالته على الرحيل ؟

ــ الان يا مولاتي ..

فبدا الذعر على وجه ماري .. وصاحت : ولم لا يكون غدا ؟

ــ ذلك لاننا لسنا على علم بما قد يحدث من تطورات في مدى الاربع والعشرين ساعة المقبلة .

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت في توسل :

ــ مولاي .. اتوسل اليك ان تنتظر الى غد .. انني لا انكر انك ابو الفرنسيين جميعا .. ولكنك زوجي ، واب قبل كل شيء .. فبحق الابوة لا ترحل قبل الغد ..

فاثارت تلك الكلمات الرقيقة عاطفة الحنان في قلب لويس .. فقال في لهجة حزينة : حسنا يا سيدتي .. ساتنظر الى غد ..

ونهض واقفا •• وتأبط ذراع الدكتور جيلبر •• وغادر الغرفة ••

وفيما كانا يسيران في الدهليز قال لويس :

ـ يبدو انك على وفاق مع الملكة يا سيدي ؟

ـ هذا شرف عظيم ادين لجلالتكم به يا مولاي ••

وفي هذه اللحظة ردد ارجاء القصر صدى اصوات الضباط والحراس وهم يهتفون بحياة الملك •

وسمعت ماري انطوانيت تلك الهتافات • فرددت مع القائلين :

« نعم • يحيا جلالة الملك !•• ان الملك سيعيش رغم انفكم ايها الباريسيون التعساء ! »

ثم نادت وصيفتها مدام دي كامبان • وامرتها بالا تسمح لاحد بدخول غرفتها مهما كان الامر •

الفصل الثامن عشر

الرحيـل

افاقت ماري انطوانيت من نومها في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي • وكانت قد ارسلت رسولا الى الملك يرجوه بالقدوم اليهـا عنـد استيقاظه من نومه •

وكان لويس قد آوى الى مخدعه متأخرا في تلك الليلة • فـاستيقظ بعد موعده المقرر في صباح اليوم التالي •

وفيما كان يرتدي ملابسه ، ابلغ رغبة ماري انطوانيت ، فرفع حاجبيه دهشة •• وقال : هل استيقظت الملكة من نومها في تلك الساعة المبكرة ؟

ــ بل قبل ذلك بوقت طويل يا مولاي •

ــ هل عاودها المرض •

ــ كلا يا مولاي ••

فغادر الملك جناحه ، وقصد الى جناح زوجته ، وقد بدت على وجهـه امارات التفكير العميق •

والقى الملك زوجته مرتدية ملابسها كأنما توشك على الذهاب لمشاهدة احدى الحفلات الملكية •

ورحبت ماري انطوانيت بزوجها ايما ترحيب واشارت الى وصيفتهـا بمغادرة الغرفة • ثم تقدمت بعد ذلك من دولاب انيق وفتحته • واخرجت من داخله قميصا مطاطا قد صنع من حلقات فولاذية •

وقدمت ماري انطوانيت القميص الى زوجها قائلة :

ـــ مولاي •• انني زوجة ، وتهمني حياة زوجي •• فارتد هذا القميص يحفظ عليك حياتك ، ويقك شرا قد يبيته لك الرعاع •

وقلب لويس القميص في يده •• ثم قال في اعجاب :

ـــ الواقع انه قميص مدهش •

ـــ اذن ارتده يا مولاي •

فهز رأسه نفيا •• وقال :

ـــ انني عاجز عن شكرك لما تبديه من العناية بامري • ولـــكن •• لا يسعني سوى الاعتذار اليك عن رفض الهدية •• لانه اذا كان لفـــرسان القرن الثامن عشر ان يذهبوا الـــى المبارزة وهم لا يرتدون غـــير قميص خفيف • فالاجدر بملك فرسان ـــ وهو اول فارس في المملكة ـــ ان يذهب لملاقاة شعبه ، دون الالتجاء الى حماية نفسه بقميص من فولاذ •

شكرا لك يا انطوانيت •! شكرا لك !

ودار على عقبيه وغادر الغرفة على الاثر •

ولكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات في الدهليز حتى احاط به عدد كبير من الضباط ، وكلهم متلهف على اوامر مليكه •

وكان الدكتور جيلبر بينهم ، فراح ينظر الى الملك في مزيج من الحب والولاء •

والتفت الملك الى المحيطين به •• وقال :

ــ سنرحل بعد تناول طعام الافطار مباشرة ايها السادة •

ووقع بصره على جيلبر •• فهتف :

ــ هوذا انت يا دكتور •• تعال معي ، فانك سترافقني في رحلتي• فقال الدكتور في غبطة : انني في خدمة مولاي •

★ ★ ★

ودلف الملك الى غرفته ، حيث قضى ساعتين في تصريف شئون الدولة ثم ذهب لحضور التشريفات •

ولما اضحت الساعة التاسعة جلس الى المائدة ليتناول طعام الافطار مع عائلته كالمعتاد •

وجلست ماري انطوانيت الى المائدة • وقد تورمت عيناها مـــن كثرة البكاء كان يخيل اليها انها لن ترى ذلك الزوج الطيب القلب مرة اخرى •

وصحبت الملكة اطفالها معها الى المائدة • فراح الاطفال يتعلقون بابيهم وقد بدت عليهم دلائل الجزع والقلق الشديد •

★ ★ ★

واخيرا فرغ الملك من تناول الطعام •• عندما دلف مسيو دي بيفو الى القاعة واعلن وصول مندوبي الشعب بحراسة عدد كبير من الحرس الاهلي•

فنظر الملك الى الدكتور جيلبر يسأله رأيه •• فهز الدكتور رأسه ولم ينطق بكلمة •

وعندئذ ابتسم الملك •• وقال :

ــ حسنا • قدموا لهم ما يشاءون من الشراب •• وابلغوهم اننا سنبدأ رحلتنا بعد ساعتين ••

وتأوهت الملكة آهة تدل على الحزن العميق •



واخيرا دقت ساعة القصر عشر دقات ، فنهض الملك واقفا وقال :

ـ هلموا بنا ايها السادة ..

فتعلقت ماري انطوانيت بعنق زوجها ، والدموع تنهمر من مآقيها .
وتخلص لويس من زوجته واطفاله الباكين في لطف ، وهو يغالب البكاء بمجهود جبار .

وصاحت الملكة تخاطب الضباط الذين سيرافقون الملك في رحلته :
ـ ايها السادة . انني اضع الملك رهينة بين ايديكم ..

فوضع الضباط ايديهم اليمنى على قبضات سيوفهم ، واليسرى على قلوبهم دلالة على الوفاء ..

ثم تحولت الى الدكتور جيلبر ، وقالت في ضراعة :
ـ سيدي .. لقد كنت انت الذي نصح الملك بالذهاب الى باريس فعليك تقع مسئولية المحافظة على سلامته ..

فاجاب جيلبر في برود : مولاتي .. انني على استعداد للمحافظة على سلامة جلالته ، ولو كلفني ذلك حياتي ..

فقالت في لهفة : وارجو ان توافيني بانباء الرحلة اولا باول .
فاحنى جيلبر قامته وقال :
ـ مولاتي .. اقسم انني ساطلعك على كل شيء في حينه ..
فقالت : اذن اذهب يا سيدي .. اذهب فان الركاب يوشك ان يتحرك.!
فاحنى جيلبر قامته مرة اخرى ، ثم شرع يهبط الدرج في تثاقل .

★ ★ ★

وفي ساحة القصر رأى الدكتور منظرا جعل قلبه يركض بين ضلوعه .

ذلك ان حشدا كبيرا من الناس كان يحيط بعربة الملك وهي تهتف بحياته في ايمان وحرارة .

وكان دي بيفو قد اعد مركبته الانيقة لركوب الدكتور جيلبر .. اما هو فقد رافق لويس في مركبته .

★ ★ ★

وبدأ الموكب يتحرك وسط هتافات الشعب الحماسية ..

وتلفت الدكتور جيلبر حوله .. فوقع بصره على بيلـو يسير وسط رجال الحرس الاهلي .

فناداه .. ولما اقبل بيلو .. قال في دهشة :

ـ يا للسماء ! ماذا تعني يا سيدي بركوب عربة احد الامراء ؟!

وصاح الدكتور جيلبر في دهشة : وما الذي جاء بك يا بيلو الى قصر الملك ؟

وكأنما لم يسمع بيلو سؤال صديقه فقال وهو يتيه في خيلائه :

ـ ان هذا المنظر من المناظر الفريدة التي يجب الا يخطئها الانسان !

فسأل جيلبر : واين بيتو ؟

ـ انه على مقربة منا يا سيدي .. وتحول الفلاح الى الخلف وصاح :

ـ بيتو ؟ أين انت يا بيتو ؟ تعال .! اسرع !

ولم يكد بيتو يسمع صوت الفلاح حتى هرول اليه ، وهو يشق طريقه بصعوبة . ولما اصبح بجانب صديقه ، ووقع بصره على الدكتور . هتف :

ـ طاب يومك يا سيدي .

ـ طاب يومك يا صديقي بيتو .

واسرع الدكتور جيلبر يهبط من المركبة ..

وسار الى جانب صديقيه • وراح يقص على مسامعهما الحوادث التي مرت به •• مشيدا بالملك وعطفه على شعبه ••

ولما فرغ جيلبر من حديثه •• صاح بيلو في صوت قوي :

« يحيا جلالة الملك » •

وفي الحال ، تصاعدت الهتافات الحماسية من افواه الالوف تشق طريقها الى عنان السماء •

ــ لا بد ان القي نظرة على هذا الملك ، فانني ما قدمت الا لهذا الغرض •

دعنا نقترب من العربة الملكية يا دكتور جيلبر •

فاجاب الدكتور جيلبر باسما : كما تشاء يا صديقي •

وبدأوا يشقون طريقهم الى العربة الملكية وسط الجموع الزاخرة •

★ ★ ★

واستطاعوا الوصول الى عربة لويس السادس عشر بعد لاي وكبير عناء ••

وكانت العربة تسير في بطء شديد ، رحمة بتلك الالوف التي كانت تتبعها مشيا على الاقدام •

ولما وقع بصر الملك على الدكتور جيلبر ناداه قائلا :

ــ هذا انت يا دكتور ! اي حماسة بالغة هذه ؟

فاجاب جيلبر : ألم اؤكد ذلك لجلالتكم يا مولاي :

فقال الملك وعلى شفتيه ابتسامة الرضاء :

ــ نعم •• نعم •• انك بعيد النظر يا عزيزي جيلبر •

وساد الصمت فترة من الوقت ، واخيرا التفت بيلو الى الدكتور جيلبر ، وقال :

ـ اعلم يا سيدي انني اصغيت الى كلمات الملك ، وانا امعن البصر في وجهه ، فخرجت من ذلك بنتيجة واحدة وهي : « ان الملك رجل طيب القلب ! » •

ونطق بيلو بالجزء الاخير من جملته في حماس ، وصل الى مسامع الملك •

وضحك الضباط ، اما الملك فابتسم •• وقال :

ـ الواقع ان ذلك المديح يملأني سرورا •

ونسي بيلو انه يخاطب الملك •• وقال وهو يتدفق حماسا :

ـ انك على حق يا مولاي ، فانا لا امدح الا من يستحق المديح •• فقال الملك ، وقد نسي علو منزلته :

ـ شكرا لك يا سيدي •

فصاح بيلو : « يحيا جلالة الملك ! يحيا ابو الشعب » !

وردد بيتو صيحة صديقه ، ثم رددتها من بعده الوف الحناجر في صوت كله حماس وايمان •

★ ★ ★

واخيرا وصل الموكب الى حدود باريس ، وكان الجنرال لافايت في انتظار الموكب مع عدد كبير من رجال الحرس الاهلي •

وظل جيلبر ملازما السير الى جانب باب العربة الملكية يحيط به بيلو وبيتو ورهط من الضباط •

ومحافظة منه على وعده للملكة ، كان يبعث بالرسل الى ماري انطوانيت يحملون اليها انباء سير الموكب في سلام •

ورحب لافايت بالملك ، ثم انضم برجاله الى الموكب في طريقهم الى مجلس بلدي المدينة •

ولاحظ بيلو ان لويس يزين قبعته بالشارة البيضاء ، فهمس في اذن الدكتور جيلبر • لماذا لا يحمل جلالته شارة الشعب يا سيدي ؟

فاجاب الطبيب :

ــ ذلك لان جلالته لا يعرف بان هناك شارة جديدة ؟

فصاح بيتو في حماس : اذن فيجب ان يعرف جلالته بذلك الان • نعم •• وسأقدم اليه احدى شاراتنا المثلثة الالوان •

فهمس جيلبر في اذن صديقه ، وهو يدفعه بمرفقه في صدره :

ــ ان شارة جلالته بيضاء تبعا للون العلم الفرنسي ••

فهتف بيلو : وماذا في ذلك ؟ لقد اتخذ الشعب لنفسه شارة خاصة ، فوجب ان يتخذها مليكه شعارا له ••

كان الملك يصغي الى ذلك الحديث في انتباه •• ولاحظ الدكتور جيلبر ان وجهه قد امتقع حتى حاكى وجوه الاموات • فالتفت الى بيلو • وقال غاضبا :

ــ أمجنون انت ؟ الا تدري انك بقولك هذا تتحدى الملك والملكية ، فكأنك بذلك تريد ارغامه على ارتداء رمز سقوطه وضياع سلطته ؟!

بيد ان هذه المناقشة لم تلبث ان انتهت بوقوف الموكب تماما ، امام باب المجلس البلدي •

ولم تكن العين لتقع امام الساحة الا على الامواج البشرية المتلاطفة من رجال وشباب ونساء واطفال •• وهم مشرئبو الاعناق •• متدفقو الحماس •• يردد الفضاء اصواتهم الداوية •• وهم يستقبلون مليكهم في تحيات حارة •• وهتافات من اعماق القلوب •

وقف بايلي ــ حاكم المدينة الجديد ــ ينتظر وصول الملك مع جماعة من اعضاء المجلس البلدي ••

فلما اقبلت العربة الملكية تتهادى الى الساحة ، تقدم حاكم المدينةمنها، ثم فتح الباب ، وقدم الى الملك مفتاحين ضخمين •• وقال :

ـ مولاي •• انني اقدم لجلالتكم مفتاحي باريس العظيمة •• وهما المفتاحان نفسهما اللذان قدما الى هنري الرابع •• الذي غلب الشعب على امره •• اما اليوم فقد دارت عجلة الزمن •• وغلب الشعب الملك على امره ••

وشعر لويس بالتهكم اللاذع الذي تتضمنه عبارة الرجل ، ولكنه كان امام امر واقع ، فهز رأسه مؤمنا ، وقد فاض الدم من وجنتيه •

وعلى اثر ذلك استأنف الموكب تقدمه الى دار المجلس ••

واستطاع الدكتور جيلبر ورفيقاه ان يحتفظا بامكنتهم بجوار المركبة حتى الساحة •

فلما اقتربت عربة لويس من دار المجلس •• سمع الجميع صوت طلق ناري •• ثم احس الدكتور بشيء صلب يصدمه في صدره ••

ورفع يده الى صدره وقد شعر بألم شديد ، ولكنه تمالك جأشه وظل محتفظا بمكانه •• وواصل السير •

وامتقع وجهه •• ادرك ان مخاوف الملكة كانت في موضعها •

ولا شك ان بعضهم اراد الاعتداء على حياة الملك فاطلق عليه النار ، ولكن الرصاصة اصطدمت بالدرع الفولاذي الذي كان يرتديه الدكتور، فتحولت عنه بقوة واصابت امرأة كانت تسير بجانبه وقتلتها لساعتها ••

وسمع الملك الطلق •• فاطل من نافذة المركبة ، وقال للطبيب باسما :

ـ انظر •• انهم يطلقون البارود احتفاء بمقدمي •!؟

فاجاب جيلبر : نعم يا مولاي •• وهو نعم الاستقبال •!

وكان بيلو قد رأى وسمع كل شيء •• فلم يلبث هو ايضا ان شعر بدقة الموقف •• فرفع عقيرته •• وهتف : « يحيا ابو الفرنسيين » •

وردد الجميع هتافه في حماسة متدفقة .

واخيرا .. وقفت المركبة ! فتقــدم اعضاء المجلس جميعا ، وفتحــوا الباب ..

وهبط لويس السادس عشر من المركبة وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة .

وكان اول ما لفت نظره تلك الجملة مكتوبة بخط عريض فوق واجهة البناء :

« الى لويس السادس عشر ابي الفرنسيين ، وملك الشعب الحر » !!

ابتسم . وهز رأسه . وسار الى الدرج ..

وعندئذ .. برز بيلو من مكانه . وتقدم من الملك .. ثم قال :

ــ مولاي .. باسم الشعب اقدم اليك شارة الشعب ..

اخذ لويس بهذه المفاجأة . والتفت الى بايلي كأنما يطلب رأيه ..

فصاح حاكم باريس : مولاي .. هذه شارة كل فرنسي .

فقال الملك وهو يأخذ الشارة من يد بيلو :

ــ في هذه الحالة لا يسعني غير قبولها .

وخلع قبعته . حيث رفــع الشارة البيضاء . ووضع الشارة المثلثــة الالوان مكانها ..

وهنا هتف بيلو : « يحيا جلالة الملك » !

فردد الجميع هتافه في صوت داو .. اما جيلبر فقد غمغم قائلا :

ــ لقد مات الملك .. فلم يعد هناك ملك على فرنسا ! يا الهي ! مــاذا ستقول الملكة الان ؟!

★ ★ ★

واستقبل اعضاء المجلس الملك في احتفاء .. وهتاف بحياته .

ثم دعي لويس للخطابة .. فارتج عليه القول .. ولكنه سرعان مــا تمالك جأشه .. ووضع يده على قلبه . وهتف :

ـ ايها السادة •• يمكنكم دائما ان تعتمدوا على حبي لكم وعطفي عليكم ••

وعندئذ تقدم منه الحاكم وبدأ يطلعه على احوال مدينته •

★ ★ ★

وما استقر الملك داخل المجلس حتى شرع بيتو في صنع عدد كبير من الشارات المثلثة الالوان •

فلما فرغ من اعداد كمية كبيرة منها ، تقدم صوب المركبة الملكية في هدوء ، وبدأ يزينها بتلك الشارات ••

وحاول لافايت ان يمنع بيتو من الاقدام على ذلك العمل ، ولكن الشعب قاومه في عنف ، فارتد عنه وهو يصخب ويلعن •

★ ★ ★

وغادر الملك دار المجلس في تلك اللحظة ، ووقع بصره على بيتو وهو منهمك في عمله ، فهز رأسه في يأس ، وسكت •

ثم راح يتلفت حوله كانما يبحث عن شخص معين ، فلما استقرت عيناه على الجنرال لافايت أومأ اليه ان يقترب •

وهمس الملك في اذن القائد قائلا :

ـ مسيو لافايت ، انني كنت ابحث عنك لابلغك موافقتي على تعيينك في منصب رئيس الحرس الاهلي ••

فاحنى القائد قامته احتراما للملك •• الذي ارتقى المركبة ، وسط هتافات الشعب الحماسية ••

★ ★ ★

وكان جيلبر قد آثر التخلف بالمجلس بعد ان وثق من سلامة الملك ••

فلما سمع الهتافات التي انطلقت مـن حناجر الشعب خارج الـدار ، اقترب من النافذة واطل على الساحة .

وفجأة .. وقع بصره على فارس انيق يقترب من العربة الملكية وهـو يشق لنفسه طريقا وسط تلك الجموع الزاخرة بمجهود جبار ..

فابتسم الطبيب ، ولم يشك في ان القادم رسول من قبل الملكة انفذته للاطمئنان على سلامة الملك .

ولم يكن هذا الفارس غير الكونت دي شارني ..

★ ★ ★

وصاح لويس عند ما رأى الكونت : هذا انت يادي شارني ؟!

ثم خفت بصوته وسأل : كيف حال الملكة ؟

فاجاب دي شارني في همس :

ــ مولاي .. انها قلقة على جلالتكم كل القلق ..

ــ هل ستعود الى فرساي ؟

ــ نعم يا مولاي ..

ــ اذن عد اليهم .. وادخل الطمأنينة على قلوبهم فكل شيء على مـا يرام ..

فاحنى شارني قامته .. ثم امتطى صهوة جواده وعاد من حيث اتى..

وبدأ الموكب الملكي سيره في بطء عائدا الى فرساي .

★ ★ ★

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله . حينما سمعت ماري انطوانيت اصواتا وهتافات خارج القصر ..

كانت الملكة قد قضت يومـا من اتعس ايامهـا ، يتنازعهـا عامـلان متناقضان من الامل واليأس ..

فلما سمعت تلك الهتافات ، قفزت واقفة على قدميها •• في اللحظة التي اندفع فيها بعض الخدم الى غرفتها ، وهم يصيحون في فرح :

ــ لقد وصل رسول من باريس يا مولاتي !!

وبعد دقائق ، دلف الى الغرفة ضابط صغير ، قد تلوثت ملابسه ووجهه بالاوحال ••

وكان هذا الضابط رسولا انفذه دي شارني الى الملكة ليطمئنها على سلامة زوجها ••

سألت ماري انطوانيت في لهفة : ماذا حل بالملك ؟

فاجاب الضباط :

ــ انه في طريقه الى فرساي يا مولاتي ••

فاشرق وجهها وزال عنه اكتئابه •• واطمأن قلبها •• وقالت :

ــ شكرا لك يا سيدي •• ارى ان تأخذ نصيبك من الراحة بعد تلك الرحلة الشاقة ••

وهرولت خارج الغرفة ، حيث نادت اطفالها •• وقادتهم الى باب القصر الخارجي ••

ورأت الملكة امرأة تتدثر بوشاح ابيض تنظر مع المنتظرين وهي تحملق في طريق باريس في لهفة وقلق ••

وعرفتها الملكة في الحال •• كانت صديقتها الكونتس دي شارني •

فهزت رأسها ••• ادركت ان اندريه تنتظر عودة زوجها بفارغ الصبر •

وتعالت الهتافات في تلك اللحظة وازدادت كلما اقتربت الاصوات •

ثم لم تلبث ان برزت فرقة الحرس الملكي من منعطف الطريق تتبعها العربة الملكية •

وشعرت ماري انطوانيت بدموع الفرح تظفر من عينيها ، وهرولت تستقبل الملك في لهفة وقلق •

وهبط لويس من المركبة ، فاحاطته الملكة بيديها وتهالكت عليه بقبلاتها، وقد نسيت دقة الموقف •

وقدمت الملكة اطفالها الى ابيهم ••• فعانقهم وقبلهم في حرارة وحنو ابوي •

ورأى ولي العهد الشارة التي اعطاها بيلو للويس في قبعة ابيه• فهتف: ما هذا يا ابت ؟ انني ارى دما في شارتك !

فخلع لويس قبعته ، ووقع بصر الملكة على الشارة المثلثة الالوان فاستولى عليها الغضب ، وانقضت عليها تمزقها وتطأها بقدمها •

وهز لويس رأسه في اسى •• ولزم الصمت ••

وبدأ الملك والملكة يرتقبان الدرج عندما وقع بصر انطوانيت على الكونت دي شارني وهو يسير خلف الملك كالحارس الامين •

والتفتت الملكة الى الكونت •• وقالت :

ــ شكرا لك يا سيدي • شكرا لك •

فسأل الملك : من تشكرين يا سيدتي ؟

فقالت في شجاعة : الكونت دي شارني يا سيدي •

فقال : مسكين دي شارني • فقد تكبد مشاق الرحلة ليطمئن على سلامتي •

وتوقف لويس في حديثه فجأة •• ثم تلفت حوله وقال :

ــ ولكن اين جيلبر ؟

فصاحت الملكة تغير مجرى الحديث :

ــ اذهب يا كونت واستدع زوجتك لتتناولا معنا طعام العشاء •

الفصل التاسع عشر

مـذابح

كان بيلو في حالة تشبه الذهول بعد تلك الحوادث العجيبة التي مرت به والتي لم تخطر له ببال من قبل ، فهو قد استولى على الباستيل ، واعاد للدكتور جيلبر حريته ، واصبح من اصدقاء الجنرال لافايت قائد الحرس الاهلي . كما شاهد الاحتفال بدفن جثة فولون .

وكان فولون هذا وزيرا سابقا ، ممقوتا من الشعب لغطرسته ، وكـان زوج ابنته ــ مسيو برثييه دي سافيي ــ يشاطره شعور الشعب من نحـوه

ولعله من حسن حظ الاثنين ان مات فولون غداة سقوط البـاستيل وهرب زوج ابنته من باريس .

ويرجع مقت الشعب لاولهما انه قبل الوزارة بعد اقالة نكر ، وبـدأ يهدم اصلاحات وزير الشعب .

وقد بلغت هذه الكراهية حدا حمـل بعض الرعاع على ان يحاولـوا اخراج الجثة من صندوقها ليمثلوا بها اشنع تمثيل تشفيا منهم وانتقاما .

بيد ان بيلو استطاع ان يصرف الرعاع عن هذه الوحشية ، مذكرهم بان للاموات حرمة تجب مراعاتها .

وووريت جثة الميت التراب اخيرا وسط سخرية الغوغاء وشماتتهم .

★ ★ ★

واما بيتو فقد اضحى بطلا صنديدا ، صديقا لمسيو ايلي ومسيو هلن، اللذين احباه لشجاعته وبطولته .

وكان بيتو سعيدا .. فخورا .. لانه تمكن من ان يصبح موضع ثقة بيلو ، ذلك الرجل العظيم صديق لافايت احد اقطاب الثورة .

★ ★ ★

واما جيلبر فكان على اتصال دائم باعضاء الجمعية الوطنية ، وهمزة الوصل بينهم وبين الوزير الفرنسي الكبير البارون دي نكر .

وعهدت الجمعية الى الدكتــور .. بدراسة التعليــم الفرنسي ووضع برامج تتناسب مع الانقلاب الاخــير .. فانهمك فيما انيط بــه .. ونسي صديقيه بيلو وبيتو اللذين القيا بانفسهما وسط ميدان السياسة .

★ ★ ★

وحدث ان كان بيلو منهمكا مــع بعض اعضاء الجمعية الاهلية فــي التحدث عن افضل وسيلة لتموين باريس . حين جاءه بيتو . وعلى وجهه دلائل الهياج الشديد .

صاح الشاب : انني احمل اخبارا مدهشة يا مسيو بيلو .

فسأل بيلو في دهشة : اذن تكلم !

فاستطرد بيتو قائلا في حماس : اظنك تعلــم انني ذهبت الى نــادي « الفضائل » عند حصن فوتنبلو .

ــ نعم .. نعم .. تكلم وقل ماذا حدث ؟

ــ لقد سمعت الجماهير هناك تتناقل احاديث عجيبة .

فضاق بيلو ذرعا بثرثرة بيتو . فزمجر قائلا : الا تتكلم ، وتذكر كل شيء ، بدل هذه الثرثرة الجوفاء والاسلوب الملتوي ؟

ـ فلم يأبه بيتو بغضبة صديقه .. واستطرد :

ـ لقد عثروا على فولون حيا يرزق .

ـ لا شك انك مجنون تهذي ، فقد مات الرجل ودفن امام اعيننا !!

ـ كلا يا سيدي .. انه لا يزال حيا يرزق .. ولقد رأيته بعيني رأسي .. اما الذي مات ودفن فهو احد خدمه .

انني تركتهم في منتصف الطريق . وهم قادمون بـه الى المجلس .. وجئت عدوا لاطلع مسيو بايلي على الخبر .

فقال بيلو في ذهول : انك تدهشني يا بيتـو .. ولكن قص على مـا تعلمه تماما ..

فاجاب بيتو : بكل ارتياح .. فعندما عرف فولون اللعين انـه مكروه من الشعب ، وان الدائرة ستدور عليه ، انتهز فرصة موت احد خدمه .. فاوعز الى بقيتهم ان يعلنوا ان الميت هو سيدهم ، كما امر بان تشيع جنازة الخادم بالاحترام اللائق بمكانته كسيد ، ثم لاذ بمكان مجهول لم يكـن يعرفه غير خادم واحد من خدمه . بيد ان هذا الخادم وشى بسيده بعد ان استولى منه على مبلغ كبير من المال لقاء صمته .

والواقع ان احدا لم يصدق الخبر حين سمعه ، وانا ايضا لم اصدقـه بادىء الامر ، ولكن .. لم يسعني غير الرجوع عن رأيي عند ما رأيته رأى العين .

واقبل بايلي في تلك اللحظة ، فهرول بيلو اليه واطلعه على خبر القبض على فولون في فوتنبلو .

ولم يصدق بايلي اذنيه •• فلما اكد له بيلو صدق الرواية ، بدت على وجهه دلائل الدهشة الشديدة وسأل بيتو :

ــ واين هو الان •؟

ــ في طريقه الى هنا •• فقــد استطاع الشعب ان ينتزعه من ايــدي الحراس ، ويقوده امامه وسط مظاهر السخرية ، والاستهزاء •

امتقع وجه بايلي •• وسأل : وهل الجمع الذي يحيط به عديد •؟
فاجاب بيتو في حماس : اكثر من عشرين الف شخص يا سيدي ••
فصاح بايلي في اسى وحزن : مسكين هذا الرجل ••
وهرول الى قاعة المجلس •• وبدأ يقص على الاعضاء ما سمعه من بيتو
واصغى الجميع لحديثه باهتمام ثم اعربوا عن تألمهم في كلمات تدلعلى الفزع والاستنكار •
وفجأة سمع الجميع قرقعة عجلات •• فاطل بايلي من النافذة ورأى كتلة بشرية هائلة تحيط بمركبة عتيقة يجرها جواد هزيل ••

ووقفت المركبة اخيرا امام باب المجلس ، فهبط منها مسيو فولون، وقد بدا عليه الاعياء والجهد الشديد •

والواقع ان الرجل التعس كان قد لاقى من عنت ولكمات الجماهير ما ناء به جسمه الضعيف ، فلم يستطع ان يقف على قدميه ، وعندئذ اشفــق عليه بعض الحراس وجاءوا له بعربة عثروا عليها في الطريق وحملوه اليهــا واخذوه الى دار المجلس البلدي ••

وكان نفر من المتحمسين قد استطاع اللحاق بالعربة • بيد ان الحراس نجحوا في ادخال فولون الى بناء المجلس ، ثم اغلقوا الابواب •
وتصاعدت صيحات التهديد من الجمهور الحانق •• يطلبونه :

« فولون •! فولون •! »

واستقبل اعضاء الجمعية الاهلية الرجل عند قمة الدرج • •وهتفوا • قائلين :

ـ شكرا لله •! لقد تمكنا من انقاذه اخيرا ••

وصاح فولون وهو يرتجف من الخوف : انقذوني ايها السادة •!

فتنهد بايلي •• وقال : لقد شططت يا سيدي ••

فاستطرد فولون قائلا في غضب :

ـ ومع ذلك فانني ارجو ان تدفع العدالة عني الاذى ••

وتضاعفت صرخات الشعب •• وازداد ثورانا •• فالتفت بايلي الى من حوله •• وصاح : اسرعوا باخفائه •• والا •••

ثم تحول الى فولون وقال : اصغ الي يا سيدي •• ها انت ترى خطورة الموقف •• فهل لك ان تنفذ من البوابة الخلفية وتنقذ رأسك •؟

فصاح فولون في يأس : كلا يا سيدي •• اخشى ان يعرفني بعضهم فيمزقني اربا •!

ـ على رسلك اذن •• بيد انني لا استطيع ان اعدك بحمايتك ••وكل ما يمكنني ان امنيك به هو ان احاول المحافظة عليك ما امكن •

واشتد حنق الغوغاء •• وازداد ضجيجهم •• وصخبهم ، في زئيرمخيف دونه زئير الوحوش الضارية ••

واهتزت جدران البناء ، فقد تدافع الرعاع نحو الباب •• وبدأوا ينقضون عليه في عنف •• حتى استطاعوا تحطيمه ••

واسرع حراس المجلس يقفون فوق قمة الدرج •• كي يحولوا دون وصول هذه النمور الظمأى الى الدماء الى الضحية التعسة •

وراح ضباطهم يحاولون تهدئة الجماهير بالحسنى • اما بايلي فقد اسقط في يده •• وحار في امره •• فلم يدر ماذا يفعل كي يدرأ الخطر عن فولون •!

وصاح يخاطب رفاقه : الا من ناصح فينقذنا من هذا المأزق ..

فقال بعضهم : ليس من سبيل غير محاكمته .. ونعلن ذلك على الملأ .. لنخدر الاعصاب مؤقتا حتى نجد المخرج .

فقال بايلي : لا اظن اننا نفلح .. فمن المستحيل ان تجري محاكمة تحت تهديد الرعاع ..

فصاح بيلو في غضب :

ـ يا للشيطان ..! أليس لديكم من الرجال من يستطيعون الدفاع عنكم .؟

ـ ان عدد حراسنا يقل عن المائتين .

ـ اذن فلا بد لكم من مدد .!

ـ آه .. لو اننا استطعنا الاتصال بمسيو لافايت .. لقضى الامر ، وانقذنا .

ـ اذن ارسلوا من يستصرخه ..

ـ ومن الذي يجرؤ على شق طريقه بين هذه البراكين الثائرة .؟

فقال بيلو في حماس : أنا يا سيدي .. سأذهب اليه بنفسي .

وانطلق من الغرفة كالسهم .

★ ★ ★

وظل هياج الشعب يشتد لحظة بعد اخرى .

كانوا يطلبون الثأر من فولون بالقصاص منه عاجلا ، حتى بدأ اعضاء الجمعية الوطنية يخشون على انفسهم من تلك الغضبة المخيفة .

والواقع ان كثيرين ممن لا يطمئنون الا الى الولوج في الدماء .. راحوا يثيرون حماسة الباقين ، بنشر الاشاعات الكاذبة بينهم ، كأن يتهموا اعضاء الجمعية بالتهاون مع الاسير وتسهيل سبيل الفرار له .

وطبيعي ان يزداد الاتون التهابا . فطفق الرعاع يطالبون الحراس بافساح الطريق لهم . فلما رفض هؤلاء اقتراح بعض الغوغاء ان يشعلوا النار في المجلس .

وادرك بايلي خطورة الموقف ، ولم يجد مخرجا الا ان يطلب من اعضاء الجمعية الوطنية ان ينزلوا الى الغوغاء ويحاولوا تهدئة ثائرتهم .

بيد ان بايلي عاد فعدل عن رأيه ، حين بدأ الرعاع الهجوم على الدار متحدين الحراس وضباطهم بل واعضاء الجمعية الوطنية ايضا .

ولم يجد بايلي مفرا من حمل الاسير على اظهار نفسه للثائرين حتى يطمئنوا على وجوده في الدار . فجاء محمله ضغثا على اباله . اذ لم يكد الرعاع يلمحون فولون في النافذة . حتى انفجرت مراجلهم ، فتخطوا الحراس بالقوة . وانقضوا على اعضاء الجمعية ونحوهم عن الطريق . وصعدوا الى الاسير .. وتلقفوه كما تتلقف الوحوش الجائعة فريسة سهلة .

وكان لافايت قد وصل الى دار المجلس في تلك اللحظة ، فحاول ان يثني الغوغاء عن عزمهم . ولكنهم زمجروا في وجهه . فلم يسعه غير التقهقر ، واحاط الغوغاء بالفريسة احاطة السوار بالمعصم خشية ان يهرب او يحاول احد انقاذه .

وكان فولون في حالة يرثى لها ، ولم يستطع التحامل على قدميه . فحمله الرعاع فوق اكتافهم ، وهم يصيحون : « الموت للخائن ! الموت للخائن ! » .

وادرك التعس انه هالك لا محالة ، فراح يستعطف القلوب المتحجرة الصماء ، ويتوسل اليهم مستعطفا .

ولكن .. لو ان للصخر ان يجيب لصوت النائح الباكي .. لاجابت

قلوب الرعاع لاستعطافه . وماذا تنفع الضراعة في قوم اسكرتهم نشوة الانتصار . وتغلبت عليهم غرائزهم الوحشية . فتنكروا للانسانية ، وللشفقة وللرحمة بل وللعطف الذي يحسه الحيوان الابكم لاليفه ونحو جنسه .

وبجانب احد اعمدة النور ، وقف موكب الموت .

وصعد عدة رجال الى اعلا العامود . وربطوا فيه حبلا عتيقا ، وتركوا طرفه الاخر لرفاقهم الذين تلقفوه في لهفة ، واحاطوا به عنق الاسير ..

ورفعوا التعس الى اعلا ، ولكن الحبل لم يتحمل ثقله ، فانقطع به وهوى المسكين فوق الارض وهو يتلوى من فرط الالم .

وهتف في يأس : اقتلوني مباشرة ايها الاوغاد ولا تعذبوني .

وزاد ذلك من هياج الرعاع . فجاءوا بحبل متين ، ربطوه اليه .

واعادوا الكرة .. وهوى التعس جثة هامدة .

وكأنما لم يكفهم ازهاق الروح .. فأقبلوا على الجثة كالوحوش الكاسرة يمزقونها اربا .. ويمسحون بها عرض الطريق .

وبعد لحظات ، ارتفعت رأس الرجل على احدى الحراب .. وسط هتافات الرعاع وضجيجهم .

وآب اعضاء الجمعية الوطنية الى الدار . وهم يرتجفون من الفزع.. وادركوا ان قياد الرعاع قد افلت من ايديهم . وان عهدا جديدا من الفوضى والاجرام قد فتحت اولى صفحاته .

اما بيلو فكان يرمق ذلك المنظر الوحشي وهو يضرب الارض بقدمه في غضب وسخط .

واما بيتو فلم يحتمل رؤية ذلك المنظر البشع . فاسرع الى شاطىء النهر . وقد اغمض عينيه . ووضع اصابعه في اذنيه كيلا يسمع او يرى شيئا مما يدور حوله .

★ ★ ★

وللمرة الثانية تعالت صرخات الرعاع تشق الفضاء •• بينما كان احد الرسل يشق طريقه الى دار المجلس البلدي في صعوبة وجهد •

ولم تلبث ان راجت بين الثائرين اشاعة بالقبض على مسيو برثييه دي سافني •

ولما استطاع الرسول ان يصل الى مكان اجتماع الجمعية الوطنية • اطلع الحاضرين على سبب قدومه •

وعندئذ قال لافايت : نعم اننا على علـم بامر القبض عليه •• وقـد اصدرنا اوامرنا بابقائه في كامباي ••

فصاح الرسول : ابقائه ؟!

ــ بلا شك •• فقد ارسلت رجلين وثلة من الحرس للقيام بهذه المهمة•

وقال احد الاعضاء :

ــ وقوامها مائتا رجل من رجال الحرس الاهلي •• اكبر الظن انهـا اكثر من الكفاية •

فابتسم الرسول ابتسامة مريرة وقال : ايها السادة •• لقـد استطاع الشعب الوصول الى الاسير رغم الحراس •• وهم في طريقهم الى باريس •

واخذ المجتمعون بهول هذه المفاجأة •• وارتجفوا ذعرا •

غمغم بايلي : قضي الامر الذي فيه تستفتون ••

والواقع ان صرخات الغوغاء تعالت في الفضاء في تلك اللحظة ايذانـا بوصول موكب دي سافني التعس •

واخفى بايلي وجهه بيديه •• وشعر بقلبه يكاد يتمزق ، وغمغم :

ــ رباه •• رحماك •• فقد طفح الكيل •

ثم تقدم نحو النافذة واطل منها •• فرأى الساحة والشوارع المؤديـة اليها تموج بطلاب الدماء •• وهم يصرخون ويصخبون •• ويلوحـون بايديهم ، تهديدا ، ووعيدا •

★ ★ ★

واستقبل الرعاع موكب برثييه كما استقبل فولون التعس •• وقـد استولت عليهم نوبة من الجنون الذي يسيطر على النفوس الثائرة عندمـا ترى الدم يسيل تحت اقدامها انهارا •

واقبلت مركبة فاخرة يجرها جواد اصيل من شارع سان مارتن ، وقد احاط بها الرعاع ، وارتقوا جانبيها ، وهم يسبون راكبيها ويلكمونهما في قسوة ووحشية •

وكان برثييه يتحدث الى مسيو رفييه ـ المندوب الذي ارسله لافايت للحيلولة دون وقوع الاسير في قبضة الرعاع ـ في هدوء واطمئنان •• وهو ينظر الى الصاخبين من حوله في هزء واحتقار • كأنما الامر لا يعنيه ••

وكانت كلما تقدمت المركبة ، كلما اشتدت حماسة الرعاع وهياجهم •• ولعل الابتسامة الساخرة التي ظلت شفتا ذلك الشاب النبيل تفتر عنها ، ما اهاج الرعاع وزاد من سخطهم •

وفي تلك اللحظة برز الذين يلوحون برأس فولون فوق الهامات • ثـم ادنوه من شفتي برثييه كانما يطلبون اليه ان يقبل شفتي القتيل •• فأشاح الشاب بوجهـه في هدوء •• وعندئـذ انقض الرعاع عليه وعلى رفيقـه يشبعونهما ضربا ولكما ••

ولما بلغت المركبة باب المجلس البلدي ، شرع الحراس يبعدون الغوغاء عنها •• وافسحوا لبرثييه ورفيقه طريقا الى الباب ••

وثار الرعاع وماجوا ، ثم انقضوا على المركبة فحطموها ، ومن ثم بدأوا يهيئون آلة الاعدام ••

اما برثييه فسار الى قاعة اجتماع اعضاء الجمعية الوطنية بخطى ثابتة وراح يتحدث الى الاعضاء في صوت هادىء عميق ••

كان اغلبهم من اصدقائه ، فلم يستطيعوا احتمال هذا الموقف المؤلـم

فبدأوا يتسللون من القاعة واحدا بعد الاخر ، حتى اصبح الشاب وحيدا مع بايلي ولافايت ..

وطلب برثييه من بايلي ان يقص عليه ما حدث لفولون ..

ولما فرغ بايلي من قصته قال برثييه : انني ادرك كل شيء ، فهم انما يكرهوننا لاننا الآلات التي استخدمتها الملكية في تعذيب الشعب ..

فقال بايلي في هدوء : انهم يتهمونك بارتكاب جرائم شنيعة يا سيدي.

فاجاب الشاب : سيدي ان القضاء كفيل باظهار كل شيء .. فانا لا اطلب سوى ان يأخذ العدل مجراه ..

لقد استولى الغوغاء على اوراقي ، وفيها دليل براءتي ، ولكنني واثق ان التحقيق لن يلبث ان يكشف الحقيقة بحذافيرها ..

فقال بايلي : اذن فلنستدع اعضاء الجمعية لاجراء المحاكمة ..

★ ★ ★

ولم يكد بايلي ينطق بهذه الكلمات ، حتى ارتفعت صرخات الرعاع من الخارج يطلبون تعجيل القصاص .

وادرك لافايت ان ثورة الرعاع لن تهدأ او تتمخض عن جريمة وحشية جديدة ، فطلب الى اعضاء الجمعية ان يوافقوا على نقل الاسير الى مكان اخر امين ريثما تجري محاكمته تبعا للقواعد المألوفة . فوافقوا على الفور.

ولاحظ لافايت ان من المستحيل نقل الاسير الى مكان اخر . دون ان يتعرض الى اذى الغوغاء وتطاولهم . فطلب الى بايلي ان يخرج الى الساحة ويحاول اقناعهم بافساح السبيل لنقل برثييه الى مكان اخر ريثما تتم محاكمته ويأخذ العدل مجراه .

ولكن الرعاع لم يعجبهم الرأي .. وصمموا على تنفيذ عدالتهم .. الوحشية .. فعاد الحاكم الى الدار ممتقع الوجه بادي الاضطراب .

وثارت نخوة لافايت واخـذه الحماس • فخرج الى الساحـة وراح يناشد الغوغاء ان يثوبوا الى رشدهم ، وان يدعوا العدالة تأخذ مجراهـا ولكنهم صموا آذانهم ، ولم يكفوا السنتهم عن التطاول على رئيس الحرس الاهلي • وصاحوا مطالبين بتسليم الاسير لينال جزاءه على ايديهم •

وعبثا حاول لافايت اقناعهم بالاخـذ برأيه • وعندئذ استولى عليـه الغضب فصرخ فيهم متوعدا •

وكان هياج الغوغاء قد بلغ اشده • فتألبوا على لافـايت • وشهروا مديهم وخناجرهم في وجهه مهددين : منذرين • وتهيأوا للفتك بزعيم الثورة

وركع لافايت على ركبتيه • وكشف عن صدره في شجاعة • جعلـت أكثر الغوغاء حماسة يرتدون ناكصين واجمين •

وعاد لافايت الى الدار كاسف البال ، نهبة للالم والحزن ولم يتـوان الرعاع عن تنفيذ ما اعتزموا ، فهاجموا الدار ومن فيهـا • واستخلصوا الاسير من بين اعضاء الجمعية الوطنية • وخرجوا به الى الساحـة وسط مظاهر التهليل والسخرية •

★ ★ ★

ومضت دقائق ، عندما عاد احد الثائرين ووضع قلبا بشريا حارا فوق منضدة الاجتماع •

واشاح الحاضرون بوجوههم ، وقد اغرورقت اعينهم بالدموع •

واستولى الهياج على لافايت •• فقد ادرك ان تلك الفعلة اهانة بالغة لشخصه • فاخرج سيفه من غمده • وحطمه فوق ركبته •

واما بيلو فلم يطق رؤية هذا المنظر البشع • فاستند الى الجدار وهو يشعر بما يشبه الاغماء •

فهرع بيتو صوب صديقه • ورفعه بين يديه وسار به الى ضفة النهر حيث أخفاه في مكان امين •

★ ★ ★

بدأ بيلو يدرك ان الحالة تتطور سريعا نحو خاتمة مؤلمة •• وان تلك الحوادث لا بد ستنتهي بمأساة مفجعة •

وكان قد استرد بعض هدوئه باستنشاق نسيم البحر العليل •• وراح يجيل بصره فيما حوله في اشمئزاز واسف •

وقال بيتو : الا تعلم يا مسيو بيلو انني بدأت آسف على مغادرة فيلير كوتريث ؟•• افلا تشعر بالحنين اليها مثلي ؟

فقال بيلو : انك على حق يابني •• فهيا بنا لمقابلة الدكتور جيلبر اولا •• ثم نعود الى قريتنا بعد ذلك •

★ ★ ★

وتقابل بيلو وبيتو مع الدكتور جيلبر في فرساي ، وكان الطبيب وقتئذ منهمكا في اعداد مشروعات اصلاح الحالة المالية • تلك المشروعات التي عهد اليه نكر بدراستها بعد ان عاد الى رئاسة الوزارة •

وبدأ بيلو الحديث قائلا : لقد قررت العودة الى مزرعتي يا سيدي •

فسأل جيلبر باسما : يبدو انك لم تعد تزكي الثورة يا صديقي •

ـ بودي لو استطعت وضع حد لها •

فهز جيلبر رأسه في أسى •• وقال :

ـ اننا ما زلنا على الابواب يا عزيزي بيلو ••

فصاح بيلو في دهشة :

ـ ان هدوءك هذا يدهشني يا سيدي •

فتجهم وجه الطبيب وقال :

ــ انني واثق ان الثورة ستنتهي الى خاتمة سيئة يا بيلو .

فصاح بيلو في ذعر : وكيف ذلك يا سيدي ؟

فاجاب جيلبر : اصغ الي يابيلو فسأطلعك على كل شيء .. انظر الى هذه الورقة واخبرني ماذا افعل ؟

ــ انك تكتب .

ورفع بيتو رأسه في خوف .. ونظر الى الورقة الموضوعة امام الطبيب. ثم قال : ان الورقة تحوي ارقاما .

فقال جيلبر : هذا صحيح .. وهي ارقام ستؤدي حتما الى خراب فرنسا .. وغدا ستصل هذه الارقام الى قصر الملك ، ومنازل النبلاءواكواخ الفقراء ، مطالبة كلا منهم بالتنازل عن ربع دخله .

فصاح بيلو في ذهول : حقا !

فاستطرد جيلبر قائلا : فما رأيك في ذلك يا صديقي : ان الشعب يدبر الثورات . فعليه اذن ان يدفع ثمن تدبيره .

فهتف بيلو في حماس : تلك هي العدالة ولا شك .. وما دام الامر كذلك فلا بد ان يدفع كل نصيبه .

واسترسل جيلبر : انك شخص تؤمن بان مصلحة المجموع فوقمصلحة الفرد . ولكن هناك من لا يؤمنون بذلك .. وهؤلاء سيقاومون الفكرة ومن هنا سينشأ الانفجار المروع .

بدا التفكير على وجه بيلو .. ولم تلبث ان انفرجت اساريره .. فقال الطبيب : لقد ادركت ما يدور بخلدك ، فانت تريد ان تقول ان النبلاء ورجال الكهنوت هم اصحاب الاملاك في فرنسا وان عليهم ان يقدموا التضحية اللازمة للمملكة في محنتها .

فاجاب بيلو :

ــ ان النبلاء لا يؤدون شيئا من الضرائب يا سيدي . وحسبك ان احد جيراني من صغار المزارعين ادى ما عليه من ضرائب بلغت ضعف ما دفعه الاخوة دي شارني الذي يبلغ مجموع دخلهم مائتي الف جنيه في السنة !!

فقال جيلبر : مهما يكن من امر فان النبلاء والكهنة فرنسيون قبل كل شيء . وهم يمجدون وطنهم كما يمجده الشعب ايضا .

قد لا تصدقني ، ولكن تلك هي الحقيقة يا بيلو .. واؤكد لك انه لن تمضي ايام ثلاثة حتى يصبح الرجل الفرنسي خاوي الوفاض ، هو اسعد اهل فرنسا ..

فصاح بيلو في شجاعة : اذن فسأكون انا ذلك الشخص .!

فضحك جيلبر ضحكة مغتصبة .. وقال : نعم .. تلك هي الحقيقة .

وسأل بيلو : ولكن كيف السبيل الى ذلك يا سيدي .؟

فأجاب الدكتور : اصغ الي ، وسأوضح لك كل شيء .. فهؤلاءالنبلاء الذين كانوا يستخفون بكل حركة يأتيها العامة ، وقد بدأت تنتقل اليهم عدوى الوطنية التي لن تلبث حتى تعم الشعب الفرنسي بأسره !.

اقول ان دعوى الوطنية قد وجدت سبيلها الى قلوب الاشراف ، فاجتمعوا كالخراف حول حافة هاوية .. ينتظرون من يبدأ منهم بتخطيها ليعبروها جميعا من بعده .

فقال بيلو في دهشة : الواقع انني لا افقه حرفا مما تقول ..

ــ اعني ان هؤلاء النبلاء لن يلبثوا ان يحرروا فلاحيهم ويتنازلوا عن ممتلكاتهم ، وعن الاجور المستحقة لهم على المستأجرين ..

فصاح بيلو ، وقد ادرك مرمى الطبيب : يالله .. هل حقا ما تقول ؟. تلك هي الحرية بكامل معناها .

فسأل جيلبر : حسنا . ولكن ماذا ترانا جميعا فاعلين بعد ان نصبح احرارا ؟.

فهتف بيلو في دهشة : من عجب حقا انك تبدو كئيبا لمجرد التفكير فيما سيحدث بعد ذلك .. بالطبع سيصبح الجميع اخوانا .. وعندئذ يعم الرخاء .

فهز جيلبر كتفيه .. واستطرد بيلو : اذا كان يخالجك شك في ذلك فلماذا رفعت علم الحرية ، وحاربت في العالم الجديد اذن .؟

فاجاب جيلبر : انت نطقت بالقول الصواب يا بيلو ، فان مجرد اشتراكنا في حرب استقلال امريكا سيكلفنا غاليا .

كنا نحارب في امريكا لانه لم يكن هناك نظام اجتماعي ثابت ، وموارد امريكا لا تزال عذراء في حاجة الى الاستغلال والايدي العاملة ، والسكان قليل عددهم .. اما هنا في فرنسا ، فالحال على عكس ذلك . نظام اجتماعي وطيد ، وموارد كثر استغلالها حتى كادت تنضب . والارض تضيق بساكنيها . ولذلك وجب الهدم . والبناء من جديد .

اجل .. اننا نسعى لقلب النظام الاجتماعي والاقتصادي لانهما اصبحا لا يوافقان العصر الحاضر .. ولكن ذلك سيكلفنا غاليا .

فقال بيلو : من عجب حقا انك كنت تأخذ على كرهي للثورة منذ عدة لحظات . وها انت تتحدث الي عنها كشيء مخيف .

فاستطرد جيلبر قائلا : مهما يكن من امر الثورة ومساوئها يا بيلو .. فانني اعتقد ان خاتمتها ستكون اروع مما تتوقع . ولعلها لن تنتهي الى حرية فرنسا ومساواة افرادها فحسب وانما ستنتهي الى تحرير العالم اجمع

والمساواة بين الشعوب • ومن المحتمل ان يكون الطريق طويلا ممتنعا • والكفاح داميا عنيفا قد يجرفنا في سبيله ولكن ليس ببعيد ذلك اليوم الذي يسير فيه امثال بيتو فوق اشلائنا في طريقهم الى الحرية والاخاء والمساواة•

فالى الامام اذن ! الى الامام !

فهتف بيلو : تكلم يا سيدي •• تكلم •• انك تهز مني المشاعر •• فكم اود ان اعود الى مزرعتي وقد برىء قلبي من سقامه • لاجد العزاء والسلوى فوق ارضي •• وتحت سمائي •

فهز جيلبر رأسه •• وقال : حقلك ! اصغ الي يا بيلو •• ان آمالنا كلها متوقفة على الريف •• ذلك الريف الذي لا يثور الا مرة كل الف عام • ولكنها وثبة الاسد • لا تبقى ولا تذر •

اننا بحاجة الى تلك الوثبة في الوقت الحاضر ، كي نطهر المجتمع من ادرانه ، ونشيد على انقاضه • نظاما جديدا من العدالة والمساواة •

فسأل بيلو في لهفة : اذن بماذا تنصحني يا سيدي ؟

ــ اذا شئت ان تكون نافعا لوطنك ، وللانسانية وللعالم قاطبة ، فابق هنا يا بيلو ، واحمل مطرقتك فوق كتفك ، ثم شارك الجميع في الاصلاح لنتم ذلك العمل العظيم الذي بدأناه •

فصاح بيلو في ذعر : اتريدني على ان ابقى هنا لاشاهد تلك المذابح الوحشية • ولاتعلم كيف اذبح اخواني في الانسانية كما تذبح الطيور الضعيفة ؟!

فتلاعبت على شفتي جيلبر ابتسامة خفيفة •• واجاب :

هل تعني انك ستتحول الى قاتل سفاك ؟

فصاح بيلو وهو ينفتض من الغضب :

ــ لو اني قبلت البقاء هنا كما تطلب الي •• فانا اؤكد لك انني سأقتل اول رجل اراه يربط حبلا لشنق رجل اخر في احد اعمدة النور ••

فهز جيلبر رأسه في اسى • وقال : اذن فستصبح قاتلا يا بيلو ••

نعم •• وقاتل هؤلاء السفاكين التعساء ••
فقال جيلبر : اخبرني ماذا كان الثوار يطلقون على ضحاياهم عند تنفيذ حكم الاعدام فيهم • ؟
ـ لقد كانوا يطلقون عليهم كلمة « التعساء » •
فقال الدكتور : ما دام الضحايا هم التعساء ، فلا ارى غير انـك محق في قولك بان الثوار تعساء •• بيد انني اخشى امرا واحدا ، وهو انك قد تصبح الضحية التعسة في يوم من الايام •
فأطـرق بيلو برأسه ، كانما انقضت عليه صاعقـة من السماء ثم رفع رأسه وقال في كبرياء :
ـ وهل تعتقد ان هؤلاء السفاكين ذابحي الضعفاء الذين يعتمدون على شرف القتلة •• هم اعرق فرنسية مني ؟!
فاجاب جيلبر : هذه مسألة اخرى يا عزيزي •• نعم •• فالارومـة في فرنسا تختلف باختلاف طبقات الشعب •• فهناك الفريق الذي ينتمي اليـه بيتو وانت وانا •• وهناك الكهنة • ثم النبلاء •• اعني ان هنـاك ثلاث طبقات في المجتمع الفرنسي • وكل طبقة من هؤلاء تعتز بفرنسيتها • وتسعى الى مصلحتها الخاصة •• وكل هؤلاء لا يحسبون للملك حسابا •• مع انه اول فرنسي في المملكة ••
ولتباين وجهات النظر بين هذه الطبقات ، انفجر بركان الثورة •• وكل طبقة تعتقد انها مصيبة في كل ما ترتأيه ••
والان انظر الى هذه الورقة واقرأ ما فيها ••
فقال بيلو : ولكنك تعرف انني لا اقرأ •
ـ اذن اقرأ التوقيع اولا يا بيتو ••
فمد بيتو عنقه •• واطل على التوقيع •• ثم قال :
ـ ان التوقيع يتكون من حرفين هما « بت » فما معنى كلمة « بت » هذه يا سيدي ؟!

الفصل العشرون

الفلاح السياسي

قال الدكتور جيلبر : ان بت هذا هو ابن بت !!

فقال بيتو : معنى ذلك ان هناك بت الاكبر ــ وهــو الاب ــ وبــت الاصغر ــ وهو الابن ــ كما ورد في الانجيل ..

فاجاب جيلبر : نعم .. والان اصغيا الي . .

منذ ثلاثين عاما ، وبت الاكبر عدو فرنسا اللدود .. فلما استقال مــن الوزارة بسبب المرض خلفه ابنه في المنصب ولما يكتمل الثلاثين من عمره ..

وكان بت الاكبر قد وضع نصب عينيــه ان يقضي على نفــوذ فرنسا ويجردها من مستعمراتها تماما .. ونجح في ذلك الى حد بعيد ، فاستطاع ان يضعف النفوذ الفرنسي في اوروبــا . . وان يستولي علــى مستعمرات فرنسا ، الواحدة تلو الاخرى .. ولم يكفه ذلك بل سلخ مائة فرسخ من الاراضي الفرنسية في كندا .

ولما ادرك الوزير الداهية ان فرنسا قد حل بها الخراب او كاد، اعتزل منصبه بسبب المرض كما قلت .. تاركا لابنه اتمام العمل الاجرامي الــذي بدأه ..

فصاح بيلو في فضول : اذن فبت الصغير هــو رئيس وزارة انجلترا الان ؟

ــ تماما يا عزيزي بيلو •• ولقد مضى على بت الصغير سبع سنوات في منصبه هذا ، ولكنه لم يضيع وقته عبثا لانه صرفه في العمل على اتمــام ما بدأه ابوه بهمة لا تعرف الكلل •

فقال بيلو : وعلى ذلك فان الكفاح بيننا وبين بت الصغير سيطول امده بالنسبة لصغر سنه ؟

فاجاب جيلبر :

ــ هو ذاك • فان آل بت لا يتراجعون مطلقا في امر وضعــوه نصب أعينهم •• بدليل انه في عام ١٧٧٨ كان بت الاكبر يعــاني سكرات الموت وكان الاطباء قد يئسوا من شفائه •

وكــان البرلمان الانجليزي قد حدد احــدى جلساته للمناقشة في امر انسحاب انجلترا من امريكا تحقيقــا لرغبة المستعمرات الامريكيــة فــي الاستقلال ، وحقنا للدماء التي قد يهدرها عناد الاولى ، لا سيما وان فرنسا كانت قد عولت وقتئذ على ان تنزل الى الميدان بجانب الامريكيــين ضد الانجليز ••

ورأى الانجليز ان يدخلوا مع واشنجتــون مباشرة في مفاوضات •• فاتفقوا على الاعتراف بالامة الامريكية •• وعلقوا هذا الاتفاق على شرط واحد ، وهو ان يتحالف واشنجتون معهم ضد الفرنسيين ••

ولم يرق ذلك في عين اللورد شاتهام (بت الاكبر) ، ذلك الرجل الذي كانت حياته معلقة في خيط اوهى من خيط العنكبوت •• فاعتزم الــذهاب الى البرلمان لحضور الجلسة التي ستطرح فيها هذه المسألة عــلى بساط البحث ••

فلما كان اليوم المنشود ، استمد الرجل من ضعفه قوة •• وذهب الى

البرلمان حيث وقف يخطب في الاعضاء منددا بالمشروع ثلاث ساعات كاملة ..

ومن عجب حقا ان ذلك الرجل المتهدم الفاني ، استطاع بقوة حجته ، وبلاغة منطقه ، ان يؤثر في اعضاء البرلمان التأثير المطلوب .

فلما انتهى من خطابته سقط على الارض بادي الاعياء ، منهوك القوى ، فحملوه الى منزله حيث قضى نحبه بعد بضعة ايام ..

فصاح بيلو وبيتو معا : يالله ! اي رجل كان هذا الرجل ؟!

ــ انه ابو رئيس الوزارة الانجليزية الحالي .. ولما كان اللورد شاتهام قد مات في السبعين من عمره ، فاكبر الظن ان ابنه سيحذو حذوه .. اعني ان الصراع بيننا وبينه سيمتد الى اربعين سنة ..

ذلك هو الرجل الذي يعمل على خراب فرنسا واذلالها متوسلا في ذلك بشتى الاساليب .. ذلك هو الرجل الذي لن يهدأ له بال حتى يرى فرنسا ضعيفة معدمة لا تملك شروى نقير ..

واشار الدكتور جيلبر الى بيتو ان يقترب . ثم طلب اليه ان يقرأ الكلمات القلائل التي كانت تتضمنها رسالة « بت » .

وقرأ بيتو هذه الكلمات : لا تعبأ بالمال !!

واستطرد جيلبر : أتدريان ما معنى هذه الكلمات .؟ ان «بت» يتوسل الى هدم فرنسا بسلاح قوي خطير .. ذلك هو ارشاء حثالة الفرنسيين من الغوغاء والرعاع كي يضيفوا الى الثورة الفرنسية التي هبت للاصلاح عاملا هداما خطيرا . هو احلال الفوضى محل النظام .

وليس ادل على ذلك من تلك الجرائم البشعة التي ارتكبها بعض المأفونين عند مهاجمة الباستيل ومحاصرة دار المجلس البلدي .

فصاح بيلو : هذا صحيح .. ولكن ماذا سيفيد « بت » من ذلك ؟

فضحك جيلبر ضحكة رقيقة . ثم اجاب :

ــ ان الجواب على ذلك من ابسط الامور .. فمثلا انت قد سرتك

الثورة لانها مكنتك من هدم الباستيل واطلاق سراحي •• كما انـك لـم تكن تعبأ بالدماء التي اريقت في سبيل تحقيق ذلك الغرض •• ولكن هـا انذا قد بدأت تعرب عن اشمئزازك من الجرائم الوحشية التي اقدم عليهـا الغوغاء من قتل دي لوناي ومساعده •• الى فولون وزوج ابنته • ولـم يقتصر الامر على الاشمئزاز •• بل تعداه الى انك قررت العودة الى فيلير كوتريت •• حتى تبتعد عن تلك المناظر المفزعة •!

ولما كنت من افراد طبقة العامة •• اي من افراد الطبقة التي يطلقـون عليها اسم « سواد الشعب » فلا بد ان افراد هذه الطبقة سيشعرون مثلك بالاشمئزاز من تلك الاعمال الدموية •• وعندئذ يأتي دور «بت» فيرسل اليكم جنوده مدعيا انه يرجو اعادة الامن الى نصابه •• متخذا مـن روح النفور والاشمئزاز التي تسود سواد الشعب ذريعة للتدخل •!

هذه هي خطة « بت » يا عزيزي بيلو •• وهي كما ترى خطة تدل على بعد النظر والذكاء الوقاد •

فهز بيلو رأسه في حزن وقال : اذن فلماذا لا ينسحب العقلاء من المعركة حتى يفوتوا على ذلك الشيطان غرضه •؟

فاجاب جيلبر : على العكس •! لان انسحاب العقلاء من الميدان يمكن « بت » من توجيه الغوغاء الى الناحية التي يعمل لها • اما اذا بقي هؤلاء في الميدان ، ففي استطاعتهم توجيه الثورة الى الناحية الاصلاحية التـي تتطلبها حالة فرنسا في الوقت الحاضر •

فقال بيلو :

ــ مهما يكن من امر ، فانني ساعود مع بيتـو الـى مزرعتي لنحرث الارض ونبذرها • بعيدا عن تلك المذابح الوحشية •• وكم كان بودي ان ترافقنا الى فيلير كوتريت لتكفي نفسك مئونة كفاح لا يعلم الا الله كيف سينتهي ••

فهز جيلبر رأسه نفيا • واجاب : هذا مستحيل يا صديقي •• فان لوطني علي حقا يجب وفاؤه •• فاذا اخطأت فان الله كفيل بتقويم الخاطئين
فسأل بيلو :
ـ وماذا تريدني علي ان افعل اذن يا سيدي ؟
فاجاب جيلبر في حماسة : اريدك على البقاء الى جانبي •• تشاطرني انتصاري وهزائمي •
قف الى جانبي • ودعنا ندفع عن فرنسا التعسة • كل ما يبيت لها من مكائد ودسائس •• فهل انت فاعل ؟
كانت لهجة الطبيب زاخرة بالتوسل والضراعة • فلم يسع بيلو الا ان يجيب : انني على استعداد لان افعل كل ما تطلب مني يا سيدي •
وسأل بيتو : وماذا بشأني انا ؟
فحدجه جيلبر بنظرة حادة •• ثم اجاب :
ـ اما انت فستعود الى فيلير كرتريث لتعزي اسرة بيلو •• ولتشرح لزوجته المهمة السامية التي حدت برأس العائلة الى البقاء في باريس •
طغى الفرح على قلب بيتو • عندما ادرك انه سيعود ثانية الى كاترين •• وهتف : حسنا •• سارحل على الفور •
قال جيلبر : ولكن قبل ان ترحل ساعهد اليك بمهمة •• وهي ان تنطلق من فورك الى مدرسة لويس العظيم حيث تحضر سباستيان الي • وبعد ان اودعه ، تصطحبه معك الى فيلير كوتريث لتضعه بين يدي الاب فورتيه ليتم ثقافته وعلمه • وعليك ان ترافقه في ايام الاحاد والخميس الى الغابة للتريض •
فقال بيتو وهو يكاد يطير من الفرح • فسيعود الى كاترين ورفيق صباه سباستيان : لقد فهمت كل شيء يا سيدي •
فتحول جيلبر الى بيلو •• وقال : دعنا الان نبدأ عملنا •

الفصل الحادي والعشرون

فرقة الفلاندرز

ساد الهدوء النسبي فرساي بعد عودة لويس السادس عشر من رحلته الى باريس ٠

وانصرف نكر الى اعداد الاصلاحات العظيمة التي وضعها لانقاذ فرنسا من الوهدة التي تردت فيها ٠

اما الاشراف فقد انصرفوا الى دراسة الخطط الملائمة لمقاومة مشروعات نكر ٠

واما الشعب فقد اخلد الى السكينة انتظارا لتطورات الموقف ٠

★ ★ ★

وكانت ماري انطوانيت قد ادركت ان حقد الشعب عليها كان احد العوامل التي دفعته الى الثورة ٠٠ ولذلك اعتكفت في جناحها ، فلم تكن تخرج الا غرارا ٠

واتفق ذات يوم ان كانت في طريقها الى زوجها الذي اعتكف بمخدعه بسبب وعكة خفيفة ألمت به ، عندما التقت مصادفة بالدكتور جيلبر ٠

وبدأته الحديث قائلة :

ـ طاب صباحك يا سيدي . هل انت ذاهب الى الملك ؟
وابتسمت .. ثم اضافت في لهجة ساخرة :
ـ وهل ستذهب اليه كطبيب او كمستشار ؟
فاجاب جيلبر : بل كطبيب يا مولاتي .
فأومأت اليه ان يتبعها . ثم دلفا الى غرفة مجاورة لمخدع الملك ..

وتحولت اليه وقالت في صرامة : هل رأيت كيف انك كنت تخدعني عندما اكدت لي ان الملك لن يتعرض لسوء عند ذهابه الى باريس ؟

فصاح جيلبر في دهشة : انا خدعتك .. وكيف ذلك يا مولاتي ؟!
ـ بغير شك فقد اطلق بعضهم الرصاص على الملك .
ـ ومن قال ذلك ... الذين شاهدوا المرأة المسكينة تسقط جثة هامدة عندما اخترقتها الرصاصة .
ـ مولاتي !!
ـ وكان من المحتمل ان تصيب تلك الرصاصة الملك . لو لم تصطدم بزردك الفولاذي وترتد عنه الى المرأة البائسة فتصرعها .
فقال جيلبر :

ـ مولاتي .. انني درست اخلاق الشعوب ابان الثورات وخبرت نفسياتهم . واستطيع ان اؤكد لجلالتك انه لو اراد احد افراد الشعب بالملك سوءا ، لما اطلق عليه النار ، بل لاقتحم عليه مركبته وسط غليان النفوس واستعمل يديه في ارتكاب جريمته .

فقالت الملكة : هذا محتمل يا سيدي ..

واحنى جيلبر قامته للملكة وتهيأ للانصراف . ولكنها استوقفته باشارة من يدها .. وقالت في لهجة رقيقة : مهما يكن من امر فقد انقذت حياة الملك . لا بصفتك كطبيب ولكن بجسدك كوطني مخلص .
وللمرة الثانية احنى جيلبر قامته للملكة فاستطردت قائلة :

ـ وكان من الواجب علي ان اشكرك منذ وقت بعيد .

ـ مولاتي . انه شرف عظيم .. واي شرف .

ـ انك متواضع يا سيدي .

ـ لكم كنت اود الا اكون كذلك يا مولاتي .

ـ ولـــم ؟

ـ لانني لو لم اكن متواضعا . لما صرت الى هذه الحالة مـــن الجبن ولاصبحت اكثر نفعا لاصدقائي . واشد بطشا باعدائي .

ـ ولم هذه التفرقة الكبيرة بين الاعداء والاصدقاء يا سيدي .؟

ـ ذلك لانه لا اعداء لي .. او انني على الاقل لا اعادي من يناصبونني العداء .

فنظرت اليه الملكة نظرة تنطوي على الدهشة الشديدة .

واستطرد جيلبر : مولاتي .. قد يدهشك قولي . ولكني اؤكد لك انني لا آبه لبني جنسي . بقدر ما تهمني مصلحة وطني ورفعتـــه . واقرر لجلالتك صراحة ، انني لا اقف عند اية تضحية في سبيل نصرة هذا الوطن العزيز ..

فتأوهت الملكة وقالت : واأسفاه .. لقد ولى ذلك الوقت الذي كـــان يجب على الفرنسيين جميعا ان ينطقوا بمثل ما نطقت به في ايمان وحرارة .

نعم .. ولى ذلك العهد وأدبر .. يوم ان كان الانسان لا يحب وطنه دون ان يقرنه بحب ملكه وملكته ..

فصعدت حمرة الخجل الى وجه جيلبر ، فقد ادرك ما ترمي اليه ماري انطوانيت من معنى .. واحنى قامته للملكة ، وهو يشعر بمثل ذلك الاغراء الذي طالما شعر به الكثيرون ممن اوقعتهم ماري انطوانيت في حبائلها ..

سألت : ألا تجيب ؟!

ــ مولاتي •• اريدك علي ان تعتقــدي ان كــل ما يطلبه الملــك او الملكة •••

فقاطعته قائلة : يجب ان يجاب ولا شك ••

ــ تماما يا مولاتي ••

فقالت ماري انطوانيت في كبرياء :

ــ وهل ذلك بدافع من تأدية الواجب •• ام بدافع آخر ؟

ــ لقد حان الوقت الذي سيستحق فيه خدمك شيئا اكثر من التقدير لو انهم ادوا واجبهم •• ففي هــذه الايام العصيبة لن تجدي جلالتــك اشخاصا يعتمد عليهم •• فاضرعي الى الله ان يرسل اليك اصدقاء يمكنك ان تركني اليهم وقت الضيق ••

فسألت : وهل تدري شيئا عن هؤلاء ••

ــ مولاتي •• انني كنت بالامس عدوا لك ••

ــ عدوي !! ولماذا كنت كذلك ؟

ــ لانك امرت بالقائي في الباستيل •

ــ واليوم ؟

ــ واليوم خادمك المخلص الامين •

ــ وما غرضك مــن ذلك ؟ ما الغرض الذي حملــك على ان تصبــح خادمي ؟• فانت من اولئك الذين لا يغيرون مبادئهم بسهولة ••

فابتسم جيلبر ابتسامة خفيفة واجاب : لانني اعتقد ان سلامة فرنسا تقتضي المحافظة على الاسرة المالكة ••

فاغضبتها هذه الاجابة ، وهرولت تغادر الغرفة وهي تغمغم :

ـ الواقع ان هذا الرجل من اعجب من قابلت •!

ويقول جيلبر لنفسه : لا بد ان الملكة تفكر في مشروع معين •

★ ★ ★

عاد جيلبر الى مقابلة « نكر » بعد ان ادى واجبه نحو الملك •

وكان لويس منهمكا في الاطلاع على مشروعات قوانين الاصلاح التي اقترحها « نكر » وهو يأمل ان تؤدي تلك الاصلاحات الى استقرار الحالة واعادة الامور الى نصابها •

وكان جيلبر يعطف على الملك لطيبة قلبه •• بقدر ما كان ينظر الى الملكة كامرأة اما ان يحبها الانسان الى درجة الجنون ، او يكرهها كما يكره الموت •

★ ★ ★

وعندما عادت ماري انطوانيت الى جناحها •• كانت تشعر بكابوس ثقيل يجثم فوق صدرها •

وزاد حنقها وغيظها ان الجميع بدأوا يشيخون بوجوههم عنها ، حتى ان بعضهم بدأ يحزم متاعه استعدادا للمهاجرة الى خارج فرنسا •

وحتى اندريه صديقتها الصدوقة كانت تتحاشى مقابلتها •

واما « دي شارني » فقد هجرها هجرانا تاما ، بعد اذ اعرضت عنه وامعنت في تعذيبه •

ولم تجد ماري انطوانيت وسيلة لاذلال الشاب ، واعادته الى حبها سوى ان تقرب الزوجة المسكينة اليها وتحتقر الزوج نكاية فيه •

ولكن هذه الخطوة من جانب الملكة اتت بنتيجة عكسية ، اذ انها جعلت دي شارني يتقرب الى زوجته حتى توثقت بينهما الصلة .

ولما ادركت ماري انطوانيت انها فشلت في اخضاع الشاب ، برح بها الحزن والهم ، ولولا انهماكها في تتبع الحالة السياسية لاصابها السقم والمرض .

★ ★ ★

كانت الملكة تعتقد ان لويس قد تمادى في الاغضاء عن زلات الرعاع . ولذلك عولت على استدعاء فرق الجيش التي تدين بالولاء للملك الى فرساي لتتمكن من اعداد حملة تسيرها الى باريس لتسحق الثورة في مهدها .

وانتهزت فرصة خلاف نشأ بين الملك والجمعية الوطنية عندما حاول الملك ان يستعيد سلطته .. وقاومه في ذلك ميرابو واعوانه من اعضاء الجمعية .

ومما زاد في حرج الموقف ان ماري انطوانيت علمت ان عددا كبيرا من الاسر الارستقراطية ، قدمت طلبات للحصول على تصاريح بالهجرة . وخطر لها ان تحذو حذو هؤلاء . فتهجر فرنسا الى وطنها الاصلي . ـ النمسا ـ مع زوجها واولادها .

ولو انها فعلت ذلك لما اعترض احد سبيلها ، فقد كان الباريسيون لاهين عن فرساي باعمال العنف والارهاب التي كانت تسود باريس وقتئذ .

ولكن الشيطان عاد فوسوس للمرأة بالبقاء فهي كانت تأمل ان تستعيد الاسرة المالكة قوتها وسطوتها ، ويعاود الباريسيون احترامهم لمليكهم . وبذلك تسير الامور وفق هواها ..

بيد ان هذا التردد من جانبها فضح امر مؤامرتها . فبات الشعب لهـا بالمرصاد . ولكنها ـ مع ذلك ـ نفذت الشطر الاول من خطتها ، اي انها جعلت الملك يصدر امره باستدعاء فرقة الفلاندرز ، وكانت من اقوى فرق الجيش واتمها عدة وعددا .

★ ★ ★

ولما كان اليوم المحدد لوصول فرقة الفلاندرز جمع الكونت دستانج عددا كبيرا من ضباط الحرس ، وخف لاستقبال القادمين .

★ ★ ★

ومرت الايام سراعا .. والموقف يتطور من سيء الى اسوأ .. الى ان كان يوم دعا رجال الحرس الملكي افراد فرقة الفلاندرز الى وليمة اقاموها لهم .

وكان الغرض من تلك الوليمة ان يتعارف افراد الفرقتين .. ولـم لا يتعارف جنود الملك ، ويقيمون لبعضهم البعض ولائم ينعمون فيها باللقاء ؟

★ ★ ★

وكان رجال الحرس قد طلبوا الى ماري انطوانيت ان تسمح لهم باقامة الوليمة داخل القصر نفسه . فسمحت لهم باستعمال المسرح الملكي لهـذا الغرض .

وتصادف ان خرج الملك للصيد وحيدا في ذلك اليوم . بينما اعتكفت المرأة في جناحها وقد جمعت حولها اندريه وولي العهد وبقية اطفالها .

وبدأ رجال فرقة الفلاندرز يتوافدون على القصر زرافات ووحدانا في ملابسهم الرسمية الانيقة وعلى وجوههم دلائل المرح والغبطة .

★ ★ ★

وبدأت الوليمة وسط مظاهر الابتهاج والسرور ..

ووقف مسيو دي لوسيان — كولونيل فرقة الفلاندرز — واقترح ان يشرب الجميع اربعة انخاب .. نخب الملك ، والملكة ، وولي العهد، والعائلة المالكة ..

ووقف الجميع مهللين هاتفين ، ورفعوا كؤوسهم استعدادا لشرب الانخاب ..

وعندئذ وقف احد الضباط ممن عرف عنهم ولاؤهم للاسرة المالكة واعرب عن ضرورة اضافة نخب جديد هو « نخب الشعب » الى هذه الانخاب الاربعة ..

وصاح الحاضرون جميعا في صوت واحد له قصف الرعد: كلا ! كلا .

وهكذا اسقط الحاضرون المملكة باسرها من حسابهم ، وشربوا الانخاب الاربعة وسط الصياح والتهليل ..

وعمت الفوضى ، وبدأ الحاضرون يجرعون الخمر بلا حساب .. وسقطت الكلفة ، فراح الجنود يتحدثون الى ضباطهم حديث الند للند ..

وكان الجميع لا يفتأون يهتفون : « يحيا الملك !. تحيا الملكة » !

ثم بدأوا يتهامسون : « لم لا يشاطر الملك رجاله المخلصين سرورهم ليتبين مقدار ما تكنه له قلوبهم من حب واخلاص » ؟

وغادر البعض القاعة .. وذهبوا الى جناح ماري انطوانيت وقصوا على مسامعها ما كان من حماسة الضباط والجنود ..

ولم يلبثوا ان الحوا عليها بالذهاب الـى القاعة لترى بعينيها مبلـغ استعداد الجميع للتضحية بانفسهم في سبيل الاسرة المالكة ..

وهزت ماري انطوانيت رأسها في اسى .. واجابت :

ـ ان الملك متغيب بالخارج .. وانا لا استطيع الذهاب بمفردي .

فقال بعض الحاضرين : ولكن ولي العهد موجود .. وهو يقوم مقـام جلالة الملك ابان غيبته ..

وسمعت ماري انطوانيت صوتا يهمس في اذنها بضراعة :

ـ مولاتي ! مولاتي ! ابقي هنا .. اتوسل اليك ان تبقى هنا !

دارت ماري انطوانيت على عقبيها .. فالفت نفسها وجها لوجه امـام الكونت دي شارني ..

صاحت : ما هذا .. ألم تشاطر الضباط وليمتهم ؟

فاجاب شارني هامسا : لقد حضرت شطرا من المأدبة يا مـولاتي .. وارى من واجبي ان اطلب الى جلالتك عدم الذهاب الى الوليمة لان هياج رجال الفرقة قد بلغ اشده .

فالقت عليه الملكة نظرة تحوي كل معاني الاحتقار والازدراء .

وتهيأت للمسير عندما سمعت بعضهم يصيح قائلا :

ـ جلالة الملك !.. لقد عاد جلالة الملك ..

فهرولت الى الخارج .. واستقبلت زوجها وهي تقول في حماس :

ـ مولاي .. تعال معي لنشهد وليمة الضباط حتى تثق جلالتكم مـن ان في المملكة قلوبا عامرة بالاخلاص لذاتكم الكريمة ولعرشكم المفدى .

★ ★ ★

واستقبل الضباط رئيسهم الاعلى بعاصفة من التصفيق والهتاف حتى اهتزت جدران القصر ..

ولم تدر ماري انطوانيت انها بذلك قد وضعت اول مسمار في نعش الملكية الفرنسية ..!

★ ★ ★

لما دلف الملك والملكة وولي عهدهما الى قاعة المسرح الملكي . دوى المكان بالتصفيق والهتاف .

وعلى اثر ذلك بدأت الموسيقى تعزف السلام الملكي.. وراح الحاضرون ينشدون نشيدهم الملكي في حماسة بالغة .

وشعرت ماري انطوانيت بالحماس يسري الى قلبها . فنسيت انها محاطة بقوم ثملوا من فرط الشراب ..

اما الملك ، فشعر بالدهشة بادىء الامر .. ورأى من الحكمة الا يبقى وسط هؤلاء السكارى ضنا بكرامته كملك عن ان تهبط الى حد اعلان الرضاء عن قحة ضباطه وجنوده .

بيد ان ضعف لويس المأثور عنه . جعله يتناسى كرامته بالتدريج فلم تلبث ان بدت عليه دلائل الارتياح . بل .. والحماس .!

وكان شارني قد رفض مشاطرة اخوانه الضباط الشراب . فلما رأى ان الملك والملكة توجها مع ولي عهدهما الى قاعة الوليمة ، شعر بقلبه يغوص بين جنبيه . اذ ادرك ان امورا هامة لا بد ستقع . وان هذه الامور ستكون نقطة سوداء في تاريخ الملكية الفرنسية .

ومما زاد رعبه . انه رأى أخاه جورج يقترب من الملكة ، ويسر اليها

شيئا . وعندئذ هزت ماري انطوانيت رأسها مؤمنة . ومدت يدهـا الى قبعتها ، فخلعتها .. ثم اخذت الشارة التي تزينها واعطتها للشاب .

ولم تكن تلك الشارة شارة البلاط الفرنسي البيضاء ، او شارة الثورة المثلثة الالوان ، وانما كانت شارة البلاط النمساوي السوداء !!

فاية خيانة عظمى تلك التي اقدمت عليها الملكة ؟! فهي كانت تعلـم ان الشعب الفرنسي انما يمقتها لانها اجنبية عنه . ولكنها ـ بدلا من ان تعمل على مرضاته ـ تستفزه باعمالها الجنونية التي تدل على الحماقـة وقصر النظر .

وكأنما كان مسجلا في لوح القدر منذ الخليقـة ، ان تطمس اعـين الحاضرين . فلا يدركون مغبة عملهم . ويخلعون شاراتهم البيضاء ويقذفون بها فوق الارض ، ليتخذوا لانفسهم شعار دولة اجنبيـة معادية للشعـب الفرنسي ايما عداء .

بل ولقد تعدى الامر الى ما هو ادهى وامر . ذلك ان بعض الضبـاط كانوا يرتدون شارة الثورة المثلثة الالوان . فخلعوها ثم القوا بهـا فوق الارض ووطئوها باقدامهم .

واثار ذلك العمل استياء رجال الحرس الاهلي الذين كانوا قد دعـوا لحضور المأدبة . فحاولوا الاعتراض ، ولكن صيحاتهم ضاعـت وسـط الهتافات الداوية التي كانت تهز جدران القاعة .

ومما زاد الطين بلة . ان اقترح البعض ان يقوموا بتمثيل معركةوهمية. ولكن ضد من ؟.. ضد الشعب !!

وبدأت الموسيقى تعزف الحانا حزينة تلهب الاعصاب وتثير الحمـاس وانقض المهاجمون على الالواح يمثلون هجومهم الوهمي .

ولم تلبث انباء الوليمة وما دار فيها ان وصلت الى آذان الشعب المحتشد في ساحة القصر . فبدا عليهم الاستياء وسادت بينهم همهمة تـدل عـلى السخط .

★ ★ ★

وآوت الملكة الى مخدعها في تلك الليلة وهي تعتقد انه لا يزال فـي فرنسا رجال يدفعون عن مولاهم الاذى ..

ولكن حدث ان ذهب الملك الى مخدع زوجته قبل ان يأوي الى فراشه .. وعندما تهيأ للانصراف القى بتلك القنبلة التي اطارت النوم مـن عيني زوجته طول الليل ..

قال : سوف نرى غدا .!!

وكأنما ردت هذه الكلمات الملكة الى وعيها فادركت انها اقدمت على حماقة قد تكلفها وتكلف هؤلاء الشجعان ثمنا غاليا ..

وبدأت تستعرض حوادث الثورة . فادركت انها كانت دائمـا مصدر حقد الشعب على الملكية ..

هتفت في يأس : دائما انا !.. انا ..! انا التي ستحول فرنسا الى اتون من لهب !! رباه !.. رباه !.. اعني ..

★ ★ ★

وفي الصباح . اقبل رجال الحرس الاهلي ــ الـذين حضروا وليمـة الامس ــ الى قصر فرساي مطرقي الرؤوس بحالة تدعو الى الرثاء ..

كانوا قد جاءوا ليعربوا للملكة عن شكرهم وتقديرهم لعطفها عليهم .

ولكن العين الخبيرة لم تكن لتخطىء ان هؤلاء الشجعان لم يكونوا راضين عما حدث ابان الوليمة ..

★ ★ ★

ولما وصلوا الى ساحة القصر . كانت تحيط بهم جمهرة كبيرة من الرعاع حفاة الاقدام . انصاف عراة عن الملابس .

وكان من الممكن ان تتفادى الملكة الكارثة . كأن تعلن عن عدم رضائها عما حدث ابان الوليمة . او تتنصل من المسئولية معتذرة ولو بحجة واهية .. ولكنها لم تفعل شيئا من هذا . وانما وقفت تخطب الذين ذهبوا ليعربوا عن شكرهم لها في لهجة حازمة لا تدع مجالا للشك في انها تعني ما تقول .!

قالت : ايها السادة .. انني شاكرة لكم ما بدا من ولائكم نحو العرش والجالس فوقه .. فان الشعب والجيش من واجبهما اظهار حبهما للملك والملكة اللذين يحبان الشعب والجيش بدورهما .

واني انتهز هذه الفرصة كي اعرب لكم عن ارتياحي لكل ما حدث ابان الوليمة .

سادت بين الحاضرين همهمة . هي مزيج من التأييد والاستنكار ..

فقال الضباط والجنود : ان الملكة تشد ازرنا .

وقال الشعب : ان الملكة تخدعنا ..!

وهكذا اوقدت ماري انطوانيت الشعلة الاولى في ذلك الاتون الذي لم يلبث ان اندلعت نيرانه فاتت على الحرث والنسل .

الفصل الثاني والعشرون

غضبة النساء

كان السائر في باريس يرى مناظر تفتت الاكباد وتستدر شفقة وعطف اقسى القلوب الآدمية .

فمذ سقوط الباستيل . بدأت المجاعة تنشر جناحيها على باريس . واشتد اثرها في اجسام اهلها حتى بدوا نحافا عجافا ..

وكان دعاة السوء لا يفتأون يثيرون الباريسيين . ويشجعونهم على الذهاب الى فرساي لمطالبة الملك بالخبز ..

ولكن الرجال كانوا اكثر احتمالا للمغبة من النساء .. وعدلوا عن سفك الدماء بعد قتل فولون وصهره .. سأما .. وضجرا .

اما النساء فلم يحتملن آلام الجوع . ومن ورائهن اطفالهن يطالبونهن بالخبز .

وحدث ان كان الدكتور جيلبر ورفيقه بيلو يجلسان في مقهى ديفوي في صباح يوم ٥ اكتوبر عندما اقبلت احدى النساء مهرولة الى داخل المقهى وقد بدا عليها الهياج ..

وراحت المرأة تقص على الحاضرين الانباء التي وصلت من فرساي عما حدث ابان الوليمة التي اقيمت تكريما لافراد فرقة الفلاندرز .

واضفت المرأة على كلماتها لهجة التأثر محاولة بذلك اقناع السامعين بان الشعب قد اهين اهانة بالغة .

وادرك الدكتور جيلبر ان هياج النساء اشد وانكى من ثورة الرجال، فاشار الى بيلو ان يتبعه الى خارج المقهى .. وهمس قائلا :

ـ هلم بنا الى المجلس البلدي .

ولما وصلا الى سوق الغلال .. التقيا بفتاة عجفاء تقرع « طبلة » كانت تحملها .

وذهل الرجلان ولبثا يتبادلان النظر بضع لحظات في دهشة شديدة .

وقال الدكتور جيلبر : سل هذه الفتاة عما تبغي من ذلك يا بيلو ..

فصاح بيلو :

ـ ماذا دهاك يا فتاتي الحسناء .. ولم تقرعين « الطبلة » .؟

فاجابت الفتاة في صوت ضعيف ولكنه حاد : انني جائعة .!

ثم استأنفت سيرها وهي تقرع طبلتها في حماس .

فهتف جيلبر : يا الهي .! لقد اصبح الموقف خطيرا ..

وسارا في اثر الفتاة .. وكانت كلما امعنت في سيرها كلما انضمت اليها اخواتها بنات جنسها وهن يترنحن من الضعف والجوع .

وكن يصحن معا : الى فرساي .. الى فرساي ..

وعلى مبعدة من هذه الفئة .. رأى بيلو رجلا طويل القامة . يضع يديه في جيوب بنطلونه .. يسير في اثر النساء .

وكان الرجل نحيف الجسم •• ممتقع الوجه •• يرتدي معطفا رمادي اللون •• وصديرية سوداء •• ويضع فوق رأسه قبعة عتيقة • • ويتدلى من منطقته سيف طويل يحدث قرقعة كلما اصطدم بالارض •

فصاح بيلو : يالله •! انني اعرف صاحب هذا الوجه جيدا •• فهو في كل مظاهرة التابع الامين •

فقال جيلبر : انه ميلارد الحاجب •

ـ هذا صحيح •• وهو نفسه الذي نجح في عبور الخندق عندما هويت الى المستنقع •

ولما انعطف موكب النساء في احد الشوارع المؤدية الى دار المجلس البلدي اختفى ميلارد •

وحاول بيلو ان يحذو حذوه ، ولكن جيلبر منعه من ذلك • وقاده من يده الى دار المجلس البلدي •

وكان اعضاء الجمعية الوطنية على علم بما يدور بباريس ، ولكنهم لم يتوقعوا ان تحمل امرأة « طبلة » تقرعها في شوارع المدينة ، فتجمع حولها اكثر من ثلاثة الاف امرأة ، وهن يصحن في صوت اشبه بصلصلة السيوف الحادة •

★ ★ ★

ولم يمض اكثر من نصف ساعة حتى اربى عدد النسوة على العشرة آلاف امرأة ، وكلهن من بائعات الزهور ، وعاملات المحال والعاهرات •

ووقفن في ساحة قصر دي جريف يتدبرن امرهن ، وكانت اصوات نقاشهن اشبه بطنين النحل ، اذا اجتمع في خليته •

وقر الرأي بينهن اخيرا على امر لم يتوانين في تنفيذه على الفور ، وهو

يقضي باحراق دار المجلس البلدي ، لان منها صدر القانون الجائر الــذي يحول دون حصولهن على الخبز •!

★ ★ ★

وحاولت النسوة حرق الدار ، ولكنهن رأين اولا القاء اعضاء الجمعية الوطنية في نهر السين عقابا لهم على اغفالهم شأن باريس الجائعة •

بيد انهن لم يلبثن ان ادركن صعوبة هذا العمل ، فعدلن عنه الى احراق الدار بمن فيها •

وبدأن في البحث عن مشاعل لهذا الغرض •

وجيء بالمشاعل •• وتقدمت النسوة الى الدار • وعندئذ برز اليهــن رجل طويل •• وبدأ يضرب المشاعل مــن ايديهن فتسقط فــوق الارض وتنطفىء •

واثار هذا العمل استياء النسوة •• فأحدقن بالرجل مهددات متوعدات والقين حبلا غليظا حول عنقه وقد عولن على شنقه فوق العامــود الاثري الخالد •

وكدن ينجحن في مهمتهن ، لولا ان اسرع بيلو ، يحول دونهن وهــذه الوحشية وقطع الحبل وصاح : ألا تعرفن مسيو ميلارد ايتها التعيسات ؟

ولم تكد النسوة تسمع اسم ميلارد ، حتى هتفن : غازي الباستيل ؟

ــ نعــم •

فارتفعت من عشرة آلاف حنجرة صيحة واحدة حادة مرددة : « يحيــا ميلارد » ••! ثم احطن به يسألنه المعونة والنصح •

فقال : لست ارى في التجائكن الى العنف ، حصولكن على الخبز •

فصحن في صوت واحـد : ولكننا نريد الـذهاب الى فرساي مصدر الشر •

واتخذت النسوة قرارا يقضي بتنصيب ميلارد قائدا لجيش النسوة ، كما نصب من قبله لافايت قائدا للحرس الاهلي •

★ ★ ★

وتحركت تلك الكتلة البشرية الناعمة تحت قيادة ميلارد في طريقها الى فرساي •

وكانت النساء يدفعن امامهن مـدفعا عتيقا استولين عليـه من دار المجلس البلدي ، بينما حمل اغلبهن بنادق معطلة او سيوفا محطمة او حربا قصيرة ••

وكان ميلارد يدرك ان من العبث ان يثني النسوة عمـا اعتزمن مـن الذهاب الى فرساي ، فرأى ان يجاريهن فيما اردن • على ان يحاول دفـع اذاهن عن الاسرة المالكة مهما كلفه ذلك ••

وبعد نقاش طويل ، استطـاع ميلارد ان يقنع تابعاتـه ان ينتخبن من بينهن وفدا مكونا من اثنتي عشرة امرأة على رأسهن مدام مادلـين دي شامبري ــ « حاملة الطبلة » ــ لعرض طلباتهن على الملك في فرساي •

ولما اتفقت كلمة النساء على قبول ذلك الاقتراح •• امر ميلارد الجميع بالسير ••

★ ★ ★

ولنترك النسوة في زحفهن البطيء الـى فرساي • ولنعد الى ساحـة

مجلس بلدي باريس • حيث اجتمع جيش من الجنس الخشن يربو على عشرة آلاف رجل • على صوت النسوة وقرع الطبول ••

كان لافايت يمتطي صهوة جواده في ذلك اليوم وهو يجول في انحاء المدينة يتفقد شئونها عندما بلغت مسامعه صيحات النساء متصاعدة من ميدان المجلس البلدي •

فاسرع بجواده صوب الساحة •• ولكن فارسا استوقفه في شارع بيتلير ••

ولم يكن هذا الفارس سوى الدكتور جيلبر وهو في طريقه الى فرساي لينذر الملك والملكة بما تبيته لهما النسوة ، وليضع نفسه تحت امرة جلالتيهما ••

وقص الطبيب على لافايت ما حدث باقتضاب ثم لكز جواده في بطنه فانطلق كالسهم الى فرساي •

وسار لافايت نحو ساحة المجلس البلدي ، وكانت تموج بعدد كبير من الحراس والرعاع الذين هرعوا على قرع الطبول ، ودوي اجراس الكنائس ••

وشق لافايت طريقه وسط الامواج المتلاطمة من البشر •• حتى وصل الى باب الدار • فترجل عن جواده ، ودلف الى غرفته حيث بدأ يكتب الى الملك رسالة يشرح فيها ما وقع من حوادث ••

وفيما كان منهمكا في الكتابة •• اذا اقبل احد الحجاب ، واعلنه بأن وفدا من المحاربين القدماء يطلبون مقابلته ••

وسمح لافايت للوفد بالدخول •• فخرج من بينهم رجل بدأ حديثه قائلا : لقد جئنا نيابة عن جميع المحاربين القدماء لنطلب اليك ان تعمل على

تأليف لجنة جديدة تتولى الاشراف على توزيع الخبز ، فقد برهنت اللجنة الحالية على قصر النظر والاهمال •• ونحن لا نستطيع ان نترك النساء يتضورون جوعا لما في ذلك من جبن وقسوة ••

ان الشعب في حالة بؤس يا سيدي الجنرال •• ومصدر هذا البؤس موجود في فرساي •• ومن الواجب ان نذهب لاحضار الملك الى باريس كي يتلمس بنفسه مبلغ شقاء اهلها •• كما اننا نطالب بتسريح فرقة الفلاندرز والحرس الملكي بعد ما بدر منهم ليلة الوليمة المشؤومة •• ودل على ضعف الملك ••

اننا نرى ان الواجب يقضي على ملك فرنسا بالتنازل لولي عهده عن العرش • على ان ينادي بالامير ملكا تحت اشراف مجلس وصاية ••

حملق لافايت في المتكلم في دهشة شديدة •• ثم هتف :

ـ ما هذا ايها السادة •• هل قررتم ان تناصبوا الملك العداء،وترغموه على التنازل عن العرش ؟

فاجاب الخطيب : اننا نحب الملك ونحترمه •• وكم هو مؤلم لنفوسنا ان يفارق شعبه ، ولكننا نرى ان مصلحة هذا الشعب فوق كل اعتبار •• وما دام ولي عهده سيتوج بدلا عنه ، فان في ذلك ارضاء للطرفين ••

فصاح لافايت : حذار ايها السادة •• انكم تهاجمون التاج •• ومن واجبي ان احول دونكم وهذه الحماقة ••!!

فاحنى الخطيب قامته ، واسترسل : اننا على استعداد لان نضحي بآخر قطرة من دمائنا في سبيلك •• ولكن الشعب شقي ، ومنبع شقاوته موجود في فرساي • فوجب اذن ان نذهب الى فرساي لنستقدم الملك الى باريس••

تلك هي ارادة الشعب •!

وادرك لافايت عبث المقاومة ، فنهض عن مكتبه ، وسار مع الوفد الى الساحة .. حيث استقبله المتجمهرون صائحين :

ـ الى فرساي ! الى فرساي !

تردد لافايت .. ولكنه عاد ففكر في انه بذهابه الى فرساي قد يستطيع ان يخفف من حماسة الشعب ويحول دون امتداد الايدي الى الملك ..

فامتطى صهوة جواده ، وتهيأ للسير مع الثائرين ، عندما اقبل احد الحجاب من داخل الدار وسلمه مظروفا مغلقا ..

وصاح الثائرون يطلبون من لافايت ان يقرأ عليهم محتويات الرسالة فنزل عند ارادتهم وقرأ عليهم ما يلي : ـ

« بالنسبة للظروف الحاضرة .. ولما ابداه الشعب من رغبة ، قرر اعضاء الجمعية الوطنية ان يعهدوا الى الجنرال لافايت بالذهاب الى فرساي مع خمسة من اعضاء الجمعية .

فامتقع وجه الرجل . فهو لم يكن يدري شيئا عن هذه الرسالة او عن اجتماع اعضاء الجمعية » .

ولم يجد بدا من الاذعان فسار وسط ذلك الموكب الحاشد في طريقه الى فرساي .

★ ★ ★

ولا شك ان سكان فرساي كانوا يجهلون مدى تطور الحوادث التي تتوالى على باريس ..

وكانت ماري انطوانيت قد بدأت تشعر بشيء من الاطمئنان بعد الوليمة لما اظهره جنود فرقة الفلاندرز من ولاء واخلاص ..

اعتقدت انها بولاء هذه الفرقة حصلت على القوة التي تمكنها من الثأر لحادث يوم ١٤ يوليو ، الذي اهان الرعاع فيه الملك اثناء رحلته الى باريس بارغامهم له على ارتداء الشارة المثلثة الالوان .

★ ★ ★

وكانت ماري انطوانيت قد امعنت في احتقار الكونت دي شارني فلم تكن لتتحدث او تنظر اليه الا اذا ارغمت على ذلك ارغاما . كأن تضطر الى اصدار احد الاوامر اليه فيما يتعلق بمهام عمله الرسمي .

وفي صباح اليوم الذي وثبت فيه النساء وثبة اللبؤة الغاضبة ، كانت الملكة منهمكة في الحديث مع جورج دي شارني .

سألته : الى اين انت ذاهب يا سيدي ؟

ــ مولاتي .. انني منطلق الى تابع الملك في الصيد لابلغه رغبة مولاي باعتزامه الخروج الى الصيد اليوم .

فصاحت الملكة وهي تنظر الى سحابة سوداء تجمعت في افق باريس في تلك اللحظة : هل سيذهب جلالة الملك للصيد اليوم ؟ انه مخطيء ولا شك .. ثان الجو لا يشجع على ذلك . اليس كذلك يا اندريه ؟

فاجابت الكونتس دي شارني ذاهلة : نعم يا مولاتي .

وسألت الملكة . وانت يا سيدي .. الا توافقني على رأيي ؟

ــ بغير شك يا مولاتي .. ولكن تلك ارادة الملك .

ــ هل لك ان تخبرني اين سيصطاد الملك يا سيدي ؟

ــ في غاب ميدون .

ــ اذن رافقه واحرص على سلامته .

ودلف الكونت دي شارني الى الغرفة في تلك اللحظة ، وابتسم الى زوجته في حنان •• ثم قال ردا على الملكة : هذه وصية لن ينساها اخي • ليس في وقت لهو جلالة الملك فحسب • بل وفي اوقات الخطر كذلك •

فتحولت اليه •• وقالت في احتقار :

ـ لكم تدهشني كلماتك هذه يا سيدي •

ـ ولماذا يا مولاتي •؟

ـ لانها نذير شؤم •!

فامتقع وجه اندريه عند ما لاحظت ان الدم قد غاض من وجه زوجها على اثر تلك اللطمة القاسية •

واما الكونت فقد احنى قامته للملكة • ثم نظر الى زوجته • وقال :

ـ الواقع انني سيء الحظ •• فلم أعد أعرف كيف أتحدث الى جلالة الملكة دون ان اغضبها •

وقبضت اندريه على ذراع زوجها • وتهيأت لان تصحبه الى الخارج ولكن الملكة حدجتها بنظرة صارمة جعلتها تجمد في مكانها •• ثم قالت : ماذا يريد زوجك ان يقول لي •؟

ـ لقد كان يرجو ان يطلع جلالتك على انه شخص بالامس الى باريس بأمر الملك ، فوجد المدينة تغلي غليانا مخيفا •

فصاحت الملكة مرة اخرى : ولماذا •؟ ألم يستول الباريسيون على الباستيل •• واعملوا فيه الهدم •؟ فماذا يريدون الان •؟ اجب يا مسيو دي شارني •؟

فاجاب الكونت : هذا صحيح يا مولاتي •• ولكنهم لا يستطيعون اكل الحجارة ••

فهزت الملكة رأسها دلالة على الامتعاض •• ثم تقدمت صوب احدى النوافذ واطلت على الساحة ••

ولكنها لم تلبث ان ارتدت عنها في فزع •• فقد رأت فارسا مقبلا من ناحية باريس ينهب الارض بجواده •

واشارت الملكة الى اندريه كي تذهب اليه •• ولم تكد الكونتس ترى القادم حتى صاحت في صوت اجش : يالله •! انه الدكتور جيلبر ••

واستندت الى ذراع زوجها خشية السقوط ••

وساد الصمت فترة طويلة عندما دخل احد الخدم ليعلن ان الدكتور جيلبر يرغب في مقابلة جلالة الملكة •• لان لديه اخبارا هامة كان يريد ابلاغها لجلالة الملك لولا انه غادر القصر منذ ساعة •!

فقالت ماري انطوانيت : دعه يأتي ••

وفي اللحظة التالية دلف الدكتور جيلبر الى الغرفة •!

★ ★ ★

اجال الدكتور بصره في الغرفة • ثم احنى قامته للملكة وبدأ يقص على مسامعها ما يتراءى في الافق من نذر السوء • وكيف ان مظاهرة نسائية تتألف من اكثر من عشرة آلاف امرأة في طريقها الى فرساي للمطالبة بالخبز •

وختم جيلبر حديثه بقوله : وعلى ذلك فانا ارى ضرورة اطلاع جلالة الملك على هذه الانباء •

فاجابت الملكة : وكيف السبيل الى ذلك وجلالته يصطاد في غاب ميدون ؟

فقال دي شارني : سأذهب لاطلاع جلالته على الحالة يا مولاتي •

ولم ينتظر حتى يسمع جواب الملكة • بل اندفع نحو الباب كالسهم •

★ ★ ★

وعلى اثر خروج دي شارني اقتربت الملكة من النافذة واطلت منهـا ولكنها لم تلبث ان ارتدت عنها وقد امتقع وجهها • وارتجفت اوصالها •

كانت قد رأت طلائع مظـاهرة النساء ، وهن يتقـدمن شطر فرساي كالسيل الجارف •

ولـم يلبث جيشهن ان زحف على القصر متثاقـلات الخطى يجرون اقدامهن جرا ، فاسرع الحراس يعترضون طريقهن •

★ ★ ★

وكان ميلارد قد استطاع اقناع النسوة بتجريد انفسهن من السلاح في الطريق اظهارا لنواياهن الطيبة من ناحية الملك والملكة •

ومن عجب حقا ان هاته النسوة الجائعات وقفن امام القصر الملكي وهن ينشدن النشيد الملكي : « يحيا هنري الرابع » في صوت حزين • بدلا من الصياح والمطالبة بالخبز •

وكان لويس السادس عشر قد عاد الى القصر عن طريق باب الحظائر الملكية عندما خرج مسيو دي سان برست منتدبا من قبل ماري انطوانيت لسماع شكاية النساء •

وبدلا من ان يعمل المندوب على الترفيه عن تلك النسوة الجائعات راح يهزأ منهن ويسخر ••

واثار ذلـــك ثائرة النسوة فارتفعت صيحـــاتهن في الفضاء منـــذرات متوعدات ..

★ ★ ★

وبلغت صيحات النسوة مسامع الملك فسأل : ما معنى ذلك ؟

فاجاب جيلبر . وكان قد دلف الى القاعة في تلك اللحظة :

ـ مولاي .. ان حرس جلالتكم يعتدي على النسوة . لانهن يطلبن السماح لوفد منهن بمقابلة جلالتكم ..

فصاح لويس السادس عشر في لهجة رقيقة :

ـ يا الهي : افتحوا الابواب .. وجيئوا بهن الي .

فصاحت الملكة معترضة :

مولاي !!

فهتف لويس في غضب : لقد امرت بفتح الابواب . لان قصور الملوك بيوت الشعب وقت الشدة .

★ ★ ★

فاسرع جيلبر والكونت دي شارني بمغادرة القاعة لينفذ امر الملك .. ولكنهما وصلا متأخرين .. فقد كان مندوب الجمعية الوطنية الذي قـــدم مع المظاهرة قد جرح في المعركة التي نشبت بين النسوة وبين الحرس الملكي برئاسة جورج دي شارني ..

وتقدم دي شارني وجيلبر من المتظاهرات وراحا يهدئن من ثائرتهن ..

وامرا بفتح الابواب ، فتدفقت النسوة الى ساحة القصر كالماء المنهمر..

وصاح جيلبر : لتتقدم اعضاء الوفد . فان جلالة الملك في انتظارهن .

فتقدمت اثنتا عشرة امرأة على رأسهن مسيو مونييه مندوب الجمعية الوطنية ومدام شامبري « حاملة الطبلة » .

★ ★ ★

وعندما مثل الوفد في حضرة لويس السادس عشر .. تقدم مونييه من الملك والقى بضع كلمات اعرب فيها عن ولاء المتظاهرات للعرش . ثم قدم « حاملة الطبلة » الى جلالته .

وتقدمت مدام شامبري خطوتين نحو الملك .. وارادت ان تتكلم ولكن الكلمات انحبست في حلقها .. ولم تزد على قولها :

ــ مولاي .. اعطني خبزا .

ثم سقطت فوق الارض مغمى عليها .

فصاح الملك يطلب الى حراسه .. نجدة المسكينة .

فأسرعت اندريه تقدم للملك قنينة تحوي سائلا منعشا ..

اما الملكة فقد غادرت الغرفة حانقة .. بعد ان امرت احد الضباط باعداد معدات الرحيل حيث قد عزمت على مغادرة فرساي الى رامبوليه مع الملك .

وفتحت مادلين شامبري عينيها اخيرا .. فألفت نفسها بين ذراعي الملك .. وهو يدللها كطفلة صغيرة ..

وبدرت من شفتيها صرخة تدل على الخجل .. وهمت بتقبيل يده ، ولكنه منعها من ذلك في لطف وقال : مسكينة انت ايتها المرأة .

فقالت مادلين في صوت خافت : مولاي .. لقد جئنا لنطلب الى جلالتك اصدار امرك بارسال القمح الى باريس حتى تخف المجاعة .؟

فقال الملك في رقة : اطمئني يا سيدتي • فسأبعث اليكن بالخبز •
ونهض الى مكتبه •• وبدأ يكتب الامر ••

وفجأة •• سمع طلقا ناريا بالخارج •• اعقبته طلقات سريعة متتابعة ، فرفع رأسه ، وهتف : يالله ، يالله •! ترى ماذا حدث •؟ اذهب وتحر الامر يا مسيو جيلبر •

★ ★ ★

كان رجال الحرس الملكي قد حاولوا اخلاء ساحة القصر عندما اطلق احد الغوغاء بندقيته على احد رجال الحرس فكسر ذراعه •

واثار ذلك الحراس فاطلقوا النيران على النسوة فقتلوا واحدة وجرحوا كثيرات •

وعندئذ هاجت النسوة ومجن •• وانقضضن على الحراس يجذبنهم من فوق الجياد ، وبدأن في تأديبهم •

وتعالت في الفضاء صيحات الرعاع بقيادة لافايت وكانوا قد وصلوا في تلك اللحظة الى فرساي •

وفيما كان جيلبر يحاول تهدئة ثائرة النسوة •• اذ سمع صوتا يهمس في اذنه قائلا : ان مسيو لافايت على رأس فريق من الرعاع كبير •• في طريقهم الى القصر •• وهم على بعد نصف فرسخ من هنا •

كانت هذه الانباء من الاهمية بمكان •• فتلفت جيلبر حوله ورأى جوادا يقف على مقربة منه •• فامتطاه وانطلق به كالسهم •• يتبعه جواد آخر •

ولما كان الجواد الثاني بغير راكب فقد تخلف في منتصف الطريق وعندئذ انقض عليه الرعاع •• وذبحوه ليأكلوا لحمه عوضا عن الخبز •

وكان الملك قد احيط علما بقدوم لافايت •• وهو بالرغم من كراهيته لقائد الحرس الوطني لم يسعه غير الترحيب بقدومه في تلك اللحظة الدقيقة •

وفيما كان لافايت وجيلبر يستحثان جواديهما على الاسراع نحو القصر •• قابلتهما النسوة عائدات الى باريس • وهن يصحن :

« يحيا الملك ••! يحيا الملك ••! »

والتفت لافايت الى الدكتور جيلبر • وسأل في دهشة :

ـ اذن فكيف تقول ان الملك في خطر ؟

فصاح جيلبر يستحث رفيقه على الاسراع :

ـ اسرع ! اسرع ! فان الوقت ضيق والخطر داهم ••

★ ★ ★

ودخل لافاييت بحرسه ساحة فرساي • وهم يقرعون الطبول • ويرفعون الاعلام ••

وعندما سمع لويس السادس عشر قرع الطبول • التفت الى الكونتس دي شارني وسأل : ماذا تفعل الملكة ؟

ـ لقد ارسلتني جلالتها لاتوسل اليكم ان تغادروا فرساي • والا تنتظروا وصول الباريسيين ••

فتحول لويس الى الكونت دي شارني •• وسأل :

ـ وهل ترى هذا الرأي يا سيدي ؟

ـ مولاي •• اذا كنتم ترون مغادرة فرنسا • فالافضل ان تأخذوا بهذا الرأي • اما اذا كنتم تريدون مغادرة فرساي الى مكان اخر داخل الحدود، فانني اعترض على ذلك •

هز الملك رأسه نفيا •• وهتف :

ــ لا اريد ان يقال عني « ملك هارب » :

ثم التفت الى اندريه وقال : اذهبي واخبري الملكة ان ترحل وحدها •

فغادرت اندريه الغرفة •• ومضت عشر دقائــق عندما اقبلت الملكــة لمقابلة الملك ••

وسأل لويس : لم قدمت يا سيدتي ؟

فاجابت ماري انطوانيت في هدوء : كي اموت مع جلالتكم يا مولاي •

ودخل جيلبر الغرفة في تلك اللحظة • واعلن قدوم الجنرال لافايت •

وساد الصمت •• ثم لم يلبث ان دلف لافايت الى القاعة وقد خلــع قبعته احتراما ••

وسمع الجميع الملكة تقول في تلك اللحظة : هاكم كرمويل !!

فابتسم لافايت •• وقال : ما كان كرمويل ليقدم نفسه الى الملك شارل الاول وحيدا يا مولاتي !!

فتلفت لويس حوله في غضب •• ادرك ان الملكة ارادت الاساءة الــى الرجل الذي خف لانقاذه في ساعة الخطر •

ثم قال يخاطب شارني : سأبقى هنا يا سيدي بعد ان قدم مسيو لافايت للمحافظة علي •• فمر فرقة الفلاندرز بالانسحاب الى رامبوليــه • ودع حراس مسيو لافايت يأخذون مكانهم •

ثم تحول الى لافايت وقال : تعال معي يا سيدي •

وانطلقا من الغرفة ، وبرفقتهما الدكتور جيلبر •

وتنهدت الملكة في حزن .. وهمست قائلة : اذا اضعنا اليــوم فرصة الفرار .. فان غدا ..

وهزت كتفيها . وسكتت على مضض .

★ ★ ★

وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله . فهجع الثائرون ، وافترشوا الغبراء طلبا للراحة .

وعادت الملكة الى جناحها فوجدت جورج دي شارني واقفا بالبــاب فسألت : هذا انت يا سيدي ؟! من الذي طلب اليك البقاء هنا ؟

ــ انه اخي يا مولاتي .

ــ واين اخوك ؟

ــ مع جلالة الملك .

ــ ولمــاذا ؟

ــ لانه رأس العائلة ، ولذلك فمن حقه ان يموت في خدمة الملك الذي هو رأس المملكة .

ــ هذا صحيح .. ولذلك فمن حقك انت كذلك ان تموت من اجــل الملكة ! ولكن اخبرني اين اندريه ؟

ــ لقد جاءت الكونتس الى مخدع جلالتك منــذ عشر دقائق وامرت احدى الوصيفات باعداد فراش لها في الغرفة المجاورة لمخدع جلالتك .

فعضت الملكة على شفتها قهرا .. فكلما حاولت ان تتعثر بما تــؤاخذ عليه افراد عائلة دي شارني . الفتهم احرص من ان يمكنوها من بغيتهــا

وهزت رأسها للشاب تحييه ثم دلفت الى مخدعها .



كان كل شيء هادئا في فرساي حتى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم .. وكان لافايت والدكتور جيلبر قد قررا ان يأويا الى مخدعيهما بعد ما لاقيا من عناء ..

والتقى جيلبر ببيلو مصادفة .. وكان الاخير قد جاء الى فرساي مع رجال الحرس الاهلي بقيادة لافايت .. واستبقى الدكتور الفلاح معه لعلمه انه لا بد سيحتاج الى معونته .

★ ★ ★

وكانت فئة كبيرة من اعداء الملك والملكة قد غادرت باريس الى فرساي عندما بدأ الظلام ينشر جناحيه على الكون .

وكانت هذه الفئة بزعامة ثلاثة رجال ممن اشتهروا بعدائهم للملكية ، وهم : مارا .. وقربيه .. ودوق داحيلون .

ووصل اعداء العرش الى فرساي حوالي الساعة الرابعة صباحا ، وهم مسلحون بالبنادق والحراب .

وقسموا انفسهم الى قسمين .. قسم قصد الى جناح الملك ، والقسم الاخر الى جناح الملكة .!

اما القسم الذي قصد الى جناح الملك فلم يجد امامه غير حارس واحد يقف بالباب . ولما رأى الحارس القادمين صرخ يطلب النجدة .

وعلى اثر تلك الصرخة خرج ضابط انيق من غرفة مجاورة لمخدع الملك، وهو يحمل حسامه في يده .

ولما نادى الحارس القادمين ثلاث مرات ولم يجيبوا ، رفع بندقيته وصوبها نحوهم .. وادرك الضابط عاقبة اطلاق النار بالقرب من مخدع الملك .. فضرب البندقية من يد الحارس . ونادى القادمين قائلا :

ماذا تريدون ايها السادة ؟

فاجاب بعضهم لا شيء •• فدعونا نمر فاننا اصدقاء جلالة الملك •

ــ انتم اصدقاء الملك •• وتعلنون الحرب عليه •؟

فلم يجب القادمون ، بل قهقهوا ضاحكين ، وتقدموا نحو الدرج وبدأوا يرتقونه ••

وانقض الضابط على اول المهاجمين وضربه بسيفه ففصل رأسه عن جسده •

وهرول الحارس الى غرفة الحرس •• وناداهم بقوله :

ــ هيا ايها السادة لتؤدوا واجبكم الى جانب مسيو دي شارني •!

وهرع الحراس لمساعدة الكونت ، وكان قد استطاع ان يرغم القادمين على التقهقر الى الوراء •• بعد ان اثخنتهم بالجراح •

وفتح باب الغرفة المجاورة لمخدع الملك في تلك اللحظة •• وهتف احد الحراس يخاطب اخوانه : ادخلوا ايها السادة فتلك اوامر الملك •

وكان دي شارني آخر الداخلين •• فاسرع يغلق الباب بالمزلاج في اللحظة التي انقض فيها المهاجمون عليه ، محاولين تحطيمه •

★ ★ ★

وقصد الفريق الاخر الى جناح الملكة •

كان هذا الفريق قد استطاع الوصول الى الدرج المؤدي الى مخدع ماري انطوانيت • ولما كان الدرج ضيقا فقد اضطروا الى ارتقائه مثنى •• مثنى •

وكان جورج دي شارني واقفا بالباب • فنادى القادمين ثلاث مرات، ولما لم يسمع جوابا •• اطلق عليهم النار •

وخرجت اندريه على صوت الطلق ممتقعة الوجه بادية الجزع وسألت:
ـ ماذا حدث ؟

فاجاب جورج : سيدتي •• انقذي حياة مولاتك والا هلكت •• اسرعي •• اسرعي فانني سأقاوم الى النهاية •

وكانت الملكة قد سمعت كل شيء • فاسرعت تغادر الغرفة من باب سري يؤدي الى دهليز خفي ينتهي الى مخدع الملك •

اما اندريه فقد اغلقت الباب بالمزلاج وهرولت في اثر ماري انطوانيت •

الفصل الثالث والعشرون

الفجر

وكان دي شارني ينتظر قدوم الملكة في ذلك الدهليز السري • ولما وقع بصر ماري انطوانيت على ملابس الكونت الملطخة بالدماء • هتفت في جزع :

ــ الملك ! الملك ! لقد وعدتني بان تنقذ الملك يا سيدي !

فاجاب دي شارني : ان الملك في امان يا مولاتي •

والقى الكونت نظرة سريعة خلف الملكة ، فادركت ماري انطوانيت معنى تلك النظرة •• واسرعت تقول في مرارة :

ــ ان اندريه في اثري • فلا تجزع •

ثم قادت ولي العهد من يده وتقدمت الى غرفة الملك •

وكانت الغرفة خالية في تلك اللحظة • فالتفتت الى الكونت وقالت :

ــ ولكن اين هو الملك يا سيدي ؟

ــ لا تجزعي يا مولاتي • فقد ذهب جلالته الى مخدعك من دهليز سري آخر وهو لن يلبث ان يعود •

وسمع الجميع اصواتا مهددة •• متوعدة صادرة من الغرفة المجاورة :

« تسقط المرأة النمساوية ! تسقط المرأة المرائية ! موتا تموتين ! » •

وأعقب ذلك طلقان ناريان اخترقا باب الغرفـة ومر أحدهما من فوق رأس ولي العهد •

وجثت ماري انطوانيت على ركبتيها • وتضرعت الى الله طويلا ، ان يحول بين الرعاع وما يبيتون !!

واشار دي شارني الى الحراس ، فبـدأوا يرفعون قطع الاثاث مـن اماكنها ويضعونها خلف الباب • لتقيهم رصاص المهاجمين •

واقبل الملك في تلك اللحظة ممتقع الوجه • مغرورق العينين بالدموع •

وما ان رأى زوجته واطفاله حتى هرول اليهم •• وهو يصيح في فرح :

ــ شكرا لله •• شكرا لله •

فقال شارني : مولاي •• اضرع اليكم ان تلوذوا باقصى غرفـة تتصل بهذه القاعة وتتحصنوا بها • وسأقف انا للدفاع عن اخر باب ريثما يـأتي المدد ••

فتردد لويس • ولكن تردده لم يطل ••

فقد اشتد هجوم الرعاع على الباب •• ورآهم لويس يحدثـون ثغرة فيه ادخلوا منها حرابهم الطويلة ••

وهم الملك بالاصغاء الى نصح الكونـت • عندما سحب المهاجمـون حرابهم •• وتضاءلت اصواتهم •• ولم يلبث ان ساد السكون ••

وسمع الجميع وقع خطوات منتظمة اشبه بتلك التي يحدثها الجنـود بأحذيتهم الثقيلة عندما يسيرون فوق ارض مرصوفة •

فصاح دي شارني : انه الحرس الاهلي ٠!

واطل رأس بيلو من الثغرة التي احدثها الثوار ٠٠ ثم هتف :

ــ مسيو دي شارني !

فصاح الكونت : يالله ! هذا انت يا صديقي بيلو !

فاجاب الفلاح المخلص : نعم ٠٠ نعم ٠٠ هوذا انا يا سيدي ٠٠ ولكن اين جلالة الملك والملكة ؟

ــ ان جلالتيهما هنا ٠٠ وبخير ٠٠

فغمغم بيلو قائلا : شكرا لله ! تعال يا مسيو جيلبر ٠٠

ولم تكد الملكة واندريه تسمعان اسم جيلبر حتى امتقع وجهاهما ٠

وتلفت دي شارني حوله بدافع الغريزة فرأى التغيير الذي طرأ عليهما ٠ ولكنه آثر الصمت ٠

وصاح لويس : افتحوا الباب ايها السادة ٠٠

وفتح الباب ٠٠ وفي اللحظة التالية سمع الجميع صوت لافايت وهو يقول :

ــ ايها السادة ، اعضاء الحرس الاهلي ٠٠ لقد تعهدت لجلالة الملك ليلة الامس الا يصيبه او من يلوذ به مكروه ٠٠ فاذا كنتم تسمحون للغوغاء ان يفتكوا برجاله ، فمعنى ذلك انني اخللت بكلمة الشرف التي قطعتها على نفسي ٠٠ وبالتالي لا اصلح لان اكون قائدكم ٠

ثم دلف الجنرال الى الغرفة يصحبه الدكتور جيلبر وبيلو ٠٠

وكان الاخير في حالة من الانفعال والفرح الشديد ، فاليه يعزى نجاة

الملك والملكة من المصير المفزع الذي كان ينتظرهما ، فهو الذي ذهب لايقاظ لافايت من نومه وانبأه باقتحام الرعاع القصر .

وهتف بيلو : يحيا جلالة الملك ! تحيا جلالة الملكة !

فتحول الملك اليه .. وقال باسما : اذكر انني سمعت صوتك من قبل.

فاجاب بيلو في شجاعة :اجل يا مولاي .. وكان ذلك ابان رحلتك الى باريس . فهز لويس رأسه عدة مرات ، ثم تحول الى لافايت متسائلا .

فقال لافايت في احترام : مولاي .. لعله من الاوفق ان تطلون جلالتكم على الجماهير المحتشدة في الساحة .

فتقدم لويس من الشرفة دون تردد .. ولم تكد الجماهير تراه ، حتى تصاعدت هتافاتها بحياته الى عنان السماء .

وفي وسط هذه الهتافات الاجماعية ، علت هتافات البعض مطالبة بظهور الملكة .

وامتقعت الوجوه ، ولكن الملكة تقدمت نحو الشرفة في شجاعة ووقفت الى جانب زوجها يحيط بهما اطفالهما ..

ودوت ارجاء الساحة بالتصفيق والهتاف .. عندما تقدم لافايت من الملكة وقبل يدها في احترام .

والتفتت ماري انطوانيت الى قائد الحرس الاهلي .. وقالت :

ــ شكرا لك يا سيدي .. ولكني اطلب الامان لحرسي ايضا ..

فاجاب : اذن فليتقدم احدهم ، ويطل معنا من الشرفة .

فصاحت الملكة : تعال يا مسيو دي شارني ..

بيد ان الكونت تراجع الى الخلف ، وهز رأسه نفيا ، فنادت الملكة ضابطا آخر وهي تتميز من الغيظ .

وتقدم الضابط الى الشرفة . فخلع لافايت الشارة المثلثة الالوان من قبعته . ووضعها في قبعة الضابط . ثم عانقه وسط هتافات الجماهير وتصفيقها .

★ ★ ★

وعندما عاد الجميع الى الغرفة . التفت لأفايت الى الملك .. وقال :

ــ مولاي .. ما زالت هناك تضحية اخرى .

فقال الملك في اكتئاب : اليست هي الرحيل الى باريس .!

ــ نعم يا مولاي ..

فاستطرد الملك :

ــ في استطاعتك ان تعلن الجمهور يا سيدي انني والملكة واطفالنا سنرحل الى باريس في الساعة الواحدة . ثم تحول الى الملكة وقال :

ــ من المستحسن ان تعودي الى جناحك لتتهيأي للرحيل .

وكأنما ذكرت هذه الكلمات الكونت دي شارني بشيء كان قدنسيه. فاندفع من الغرفة امام الملكة ، فسألته ماري انطوانيت في صوت اجش :

ــ لماذا انت ذاهب الى جناحي يا سيدي ؟ انني لست في حاجة اليك الآن ..!

فقال الكونت في هدوء :

ــ آمل ان يكون الامر كذلك يا مولاتي .. واؤكد لجلالتك انني اذا وجدت كل شيء على ما يرام ، فلن ابقى لازعاج جلالتك .

وسار يتقدم الملكة الى غرفتها • في ذلك الدهليز الذي تلطخت جدرانه وارضه ببقع كثيرة من الدماء •

واغلقت الملكة عينيها تحجب عنهما منظر الدماء • ثم مدت يدها تستند على ذراع الكونت • وفجأة • احست بعضلات الشاب تتصلب في يدها •• فسألت وهي تفتح عينيها :

ـ ماذا دهاك يا سيدي ؟

ثم لم تلبث ان صرخت قائلة : قتيل ! قتيل !

فقال دي شارني في صوت متهدج : معـــذرة يا مولاتي ان انا سحبت ذراعي من يد جلالتك • لقد عثرت بما جئت ابحث عنه في جناح مولاتي • فان هذه الجثة جثة اخي جورج •

كان الشاب المسكين قد لقي حتفه • وهو يدفع الغوغاء عن مخـــدع الملكة مطيعا بذلك امر اخيه الاكبر •

★ ★ ★

وبعد بضع ساعات ، وبينما كانت الملكة تتهيأ لمغادرة فرساي مع زوجها واطفالها الى حيث لا رجعة لها ثانية ، كان الدكتور جيلبر ينحني فوق جثة جورج دي شارني • بينما وقف اخوه يرقبه وهو يفحص الجثة وعلى مقربة منهما وقف بيلو ينظر الى القتيل مشدوها •• متألما •

وكان صدر القتيل ورأسه مثخنين بالجراح •

ولم يستطع الكونت ان يتمالك جأشه طويلا •• اذ سرعان ما خانتـــه شجاعته وانكب على جثة اخيه يضمها الى صدره في ألم ممض •• ودموع التفجع تبلل وجهه ••

وارتجف جيلبر •• واشاح بيلو بوجهه • من فرط التأثر والحزن ••

وفجأة • رفع دي شارني جثة اخيه ، ومددها بجانب الجدار •• ثم انسحب بخطى متثاقلة •• وقلبه مثقل بالاسى •• وعيناه مستقرتان على وجه اخيه كأنما يتوقع ان تدب فيه الحياة مرة اخرى ••

وظل جيلبر راكعا على ركبتيه ، وقد اعتمد رأسه بين راحتيه •• ووجهه ينطق بالاكتئاب والتحسر •• المقرون بالتفكير العميق •

وتقدم بيلو من الطبيب وقال بحزن : واأسفاه •• هذا اذن ما كنت تتوقع • وتلك اول ثمرة من ثمرات التمرد والثورة •• لقد قتل دي لوناي وتابعه ، وفولون وصهره ، ولكني لم اشعر بشيء من المرارة بقدر ما شعرت لقتل ذلك الشاب الصغير •• الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره••

وها قد حان الوقت لان يسفك الغوغاء دماء الابرياء ••
وتنهد من قلب تمزقه العبرات •• ويفطره الحزن ••
ثم اطرق برأسه ، واغرورقت عيناه بالدموع •

الفصل الرابع والعشرون

الطريد

انصرمت اربعة شهور على بيتو منذ قصد الى مدرسة لويس العظيم حيث تسلم رفيق صباه سباستيان وعاد به الى الطابق الذي كان الطبيب وبيتو قد استأجراه في شارع هورنيه •

وبعد ان ودع الطبيب ابنه الى خارج المدينــة ، وعهد الى انــج بامر المحافظة عليه ، نقده خمسين لويسا ذهبيا ، ليعطي الــى القس فورتييــه عشرين منها للاتفاق على سباستيان ويحتفظ بالباقي لنفسه •

★ ★ ★

وانطلق الشابان في طريق فيلير كوتريث سيرا على الاقدام •

وكان بيتو يرتدي خوذة فولاذية ، ويحمل في منطقته سيفا طويلا هما الغنائم التي كسبها من حضوره الى باريس •

فاذا ما جن المساء كان الشابان قد وصلا الى حدود المدينة متعبــين منهوكي القوى •

وآثرا ان يذهبا من فورهما الى منزل القس فورتييه ، ويدلفا من الباب الجانبي كيلا يجذبا اليهما الانظار .

بيد ان بعض المزارعين رأوا بيتو على تلك الهيئة الغريبة ، فاذاعوا نبأ عودته على القرويين . وسرعان ما هرع عدد كبير منهم ووقف على كثب من منزل القس ، ينتظر خروج انج ليستوضحه مدى الحوادث التي تمخضت عنها الثورة في باريس .

وكان القس فورتييه غائبا عن الدار في ذلك الوقت ، فترك انج صديقه سباستيان لعناية اخت القس بعد ان اعطاها الرسالة والمبلغ اللذين طلب اليه الدكتور جيلبر ايصالهما للقس .

وتعانق الصديقان .. ثم غادر بيتو المنزل وهو يجذب الخوذة فوق عينيه ، كما يفعل الجنود عند ذهابهم الى ميدان القتال .

وتسلمه القرويون خارج الدار .. واحاطوا به وهم يصعدونه بنظراتهم في فضول واعجاب .. ويمطرونه بوابل من الاسئلة عن الحالة في باريس .

وقضى بيتو ما يقرب من الساعة وهو يجيب عن اسئلة السائلين حتى كل لسانه وبرح به التعب والاعياء .

ولاحظ احد الحاضرين ذلك .. فقال : ان الشاب المسكين متعب، فمن الواجب ان ندعه يذهب الى منزل عمته انجليك التماسا في بعض الراحة .

فاجاب بيتو في خيلاء : انني لست متعبا ولكنني جائع .

ثم سار الى منزل عمته يتبعه عدد كبير من رجال الحي .. فلما وصل الى منزل عمته انجليك القاه مغلقا اذ كانت العانس تزور احدى جاراتها في ذلك الوقت .

وعرض كثيرون على الشاب ان يضيفوه في منازلهم ريثما تعود عمته، ولكنه هز رأسه نفيا .. وقد خطر له خاطر ..

واستل حسامه من غمده ، وادخل سنه في قفل الباب ، وثناه الى اليمين .. ثم دفع .. ففتح الباب على الاثر .

ودلف بيتو الى الدار ، ثم قصد من فوره الى الدولاب الاثري الذي تعودت عمته ان تضع فيه طعامها .

وكان الدولاب عامرا في ذلك اليوم بكثير من اصناف الطعام الشهية فأقبل عليه بيتو يلتهمه في نهم وشراهة .

وفجأة .. رأى الشاب ظل شبح يقف بالباب ، فدار على عقبيه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة .

وكانت هي العمة انجليك بعينها .

راحت ترمقه في دهشة ممزوجة بالذعر ، فهرول اليها وضمها الى صدره في حماس ، وهو يرفع طبقا يحوي ارزا ودجاجة كبيرة في يده اليمنى ، وقطعة ضخمة من الخبز في اليد اليسرى .

وهتف : لقد يدهشك ان ترى بيتو المسكين مرة اخرى يا عمتي !!

وراح يضمها الى صدره بعنف ، فخشيت الفتاة ان تختنق بين ذراعيه فدفعته عنها في قوة . ولكنه لم يأبه لها ، بل جلس فوق مقعدها الخالد .

واستبد بها الغيظ ، فلم تجد حيلة تصرف بها الشاب عن التهام بقية الطعام سوى الابتسام له .. ولكنه كان عنيدا فلم يأبه لها . وعندئذ لم تجد مندوحة من البكاء .

وصاح بيتو وفمه منتفخ بالطعام : ياالله ! كم انت طيبة القلب يا عمتي

حتى تطفر دموع الفرح من عينيك ، عند رؤيتي بعد تلك الغيبة الطويلة !!

واحست انجليك بالارض تميد تحت قدميها .. فتشجعت وتقدمت من الشقى ، واختطفت الطبق من يده في غضب وهي تلعن وتصخب ...

وتأوه بيتو .. ثم هتف : يالله ! لا بد انك نادمة على دجاجتك يا عمتي؟

فصاحت في صوت اجش : يا لك من وغد .! اتهزأ مني ؟

فقال في زهو وهو ينهض : هاك الثمن .. فانني املك مالا كثيرا ..

ولكنها صاحت في وجهه : يا تعس .. هيا اخرج من داري ..

فقال في صوت حاد وهو يتأهب لمغادرة الدار : انك عمة جاحـدة ، وسأطلع اهل القرية على ما بدا من غلظتك .

وتقدم نحو الباب .. ثم خطب المنتظرين بالخارج .. معلنا اليهم مبلغ جحود العمة .. وكيف انها طردته بسبب ما تبلغ به .. وعزمه على الا يعود اليها مطلقا .

ثم مد يده فاخرج نصف جنيه .. قذف به فوق المنضدة .. وسار في سبيله .

وانقضت انجليك على قطعة النقود فاودعتها مسند مقعدها المعهود .

★ ★ ★

وسار بيتو في طريقه الى مزرعة الاب بيلو لا يلوي على شيء .

وكان كلما امعن في سيره كلما طافت برأسه ذكريات الماضي القريـب بما فيها من مباهج ومنغصات .

واخيرا وصل الى المزرعة .. فضغط خوذته فوق رأسه .. وسار في لمم وئيدة شامخ الانف .. يهتز زهوا وخيلاء .

وكانت مدام بيلو جالسة فوق سطح المنزل عندما رأت ذلك المخلــوق العجيب • وهو يقترب من الدار •• فاسرعت تهبط الدرج وهي تعجب في نفسها لمجيء هذا الجندي الى المزرعة •

ورأى بيتو ان من اللياقة ان يخلع خوذته •• فلما وقع بصر المرأة عليه، وتبينت ملامحه هتفت في دهشة : ياالله !• انه انج بيتو !؟

فاجاب بيتو : طاب يومك يا سيدتي •

وابتسم •• وراح يتلفت حوله في لهفة ••

فادركت المرأة مرمى الشاب • فاسرعت تقول :

ــ اكبر الظن انك تبحث عن كاترين • • انها تجفف بعض الاقمشة ••

واحاط الخدم ببيتو • وسألته ربة البيت :

ــ اذن فقد عدت من باريس يا انج ؟

ــ نعم ••

ــ كيف حال سيدك ؟

ــ على خير حال •

ــ وحال باريس ؟

ــ على اسوأ حال ••

فاقترب الجميع من بيتــو عندما سمعوا جملته الاخيرة •• وابتــدأت زوجــة الفلاح تسأله عن سبب سوء هذا الحال • وظل هو يجيب على ما يروقه ويلزم الصمت فيما لا يروقه •• فقالت مدام بيلو :

ــ يبدو انك جائع يا فتى ••

وامرت الخدم • فاحضروا كثيرا من الطعام والشراب وضعوه امــام الشاب ••

واقبل بيتو على الطعام متكرها ، فهو لم يكن يشعر برغبة فيه بقدر ما كان يشعر بالحنين الى رؤية كاترين حبيبة قلبه •• وقرة عينه •

ولما ادركت مدام بيلو ، انصراف الشاب عن الاكل • قالت :

ــ اذن فتحدث الينا عما مر بك في باريس ••

فاجاب بيتو في مكر :

ــ لو انني بدأت قصتي الآن • لما استطعت ان اعيدها على مسامع كاترين ، فهي قصة طويلة يحتاج سردها الى ساعات ••

فهرول بعض الحاضرين الى الخارج • وذهبوا للبحث عن كاترين ••

وتصادف ان جاءت جلسة بيتو في مواجهة الدرج المؤدي الى الطابق الاول •• وفيما كان الشاب يرفع رأسه للتحدث الى مدام بيلو ، اذ حانت منه التفاتة الى احدى النوافذ ، فرأى كاترين جالسة فوق حافتها وعيناها مستقرتان على طريق بورسون ••

والواقع ان الفتاة كانت شاردة الفكر ، فلم تشعر بتلك الجلبة التي احدثها قدوم بيتو المفاجيء ••

وتنهد الشاب من قلب مكلوم وادرك انها انما تنظر الى مزرعة مسيو ايزودور دي شارني !!

وكان الرجال قد عادوا من الخارج في تلك اللحظة ، واعلنوا انهم لم يقعوا على اثر الفتاة •• وعندئذ اومأ بيتو الى مدام بيلو بالاقتراب • ثم اشار الى الفتاة الجالسة فوق حافة النافذة •

فصاحت المرأة تنادي ابنتها : كاترين ! كاترين !

واجفلت كاترين على صوت امها •• ثم عادت الى هدوئها وقفزت من فوق حافة النافذة •• واغلقتها ، وقالت : ماذا حدث ؟

فقالت مدام بيلو وهي لا تشك في ان حديثها سيسر الفتاة :

ـ تعالي يا كاترين •• فقد عاد انج من باريس الآن •

واصغى بيتو الى اجابة الفتاة في لهفة • وسمعها وهي تقول في بـرود جعل قلبه يغوص بين جنبيه : حقا !!

ثم هبطت الدرج • وقالت : يا لله ! انه بيتو بلحمه ودمه ••!

واحنى بيتو قامته للفتاة ، وقلبه يركض بين ضلوعه •

وانثنت احدى الخادمات تقول لكاترين هامسة :

ـ انظري يا سيدتي •• لقد كان يرتدي تلك الخوذة الفولاذية ••

وسمع بيتو حديث الخادمة ، فراح يرمق كاترين ليرى مبلغ تأثير هذه العبارة في نفسها •• ولكنه لاحظ ـ مع الاسف ـ ان خالجة واحدة مـن وجهها لم تتحرك •• وقالت : حقا ! اذن فقد جاء بيتو الينا وهو يرتـدي خوذة فولاذية ، ولكن ترى من اين جاء بها ؟

فاجاب بيتو في كبرياء : انني غنمتها وهذا السيف من احدى المعـارك ضد فرسان الحرس ، واذا كنت في شك مما اقول فسلي اباك يا سيدتي •

ولم تكن كاترين تصغي لحديث الشاب • ولكنها سمعت اخر مقطع من جملته • فسألت : وكيف حال ابي ؟ وما الذي جاء بك بمفردك ؟ أيرجـع ذلك الى سوء الحالة في باريس ؟

فاجاب بيلو : نعم •• ان الحالة سيئة •

فقالت كاترين : لقد كنت اعتقد ان الامور عادت الى مجاريها بعد ان عاد نكر الى الوزارة •

ـ انهم لا يفكرون فيه في الوقت الحاضر • لانصرافهم الى الثأر من اعدائهم ••

فصاحت الفتاة في دهشة : اعدائهم !! ومن يكون اعداء الشعب ؟

فقال بيلو : انهم النبلاء •

فامتقع وجه كاترين •• وسألت :

ـ ومن هم الذين تنطبق عليهم كلمة « النبلاء » ؟

ـ اصحاب الثروة الضخمة والمزارع الواسعة • اولئك الذين دفعوا بالشعب الى الموت جوعا •• الذين يستولون على الغنم ، تاركين لامثالنا الغرم •

فزاد امتقاع وجه الفتاة حتى حاكى وجوه الاموات •

وادرك بيتو ان استنتاجه كان صائبا •• فاستطرد :

ـ هل تعرفين ماذا حل بصديقك الارستقراطي مسيو برثييه دي سافني • الذي اعطاك لباس الرأس يوم ان راقصت مسيو ايزودور دي شارني ؟

فسألت في لهفة : ماذا حل به •؟

فاجاب في سخرية : حل به ؟! لقد رأيت الغوغاء يأكلون قلبه •

فصرخت الفتاة من الفزع •• واستطرد بيتو : نعم •• واكبر ظني ان الشعب لا بد قد اتى الان على البقية الباقية من نبلاء باريس • وفرساي •

ومن ثم طفق يتحدث عما شاهده • وعن نية الشعب نحو العرش •

وكان الجميع يصغون اليه في وجوم كأن على رؤوسهم الطير • وعندما فرغ من قصته سألت مدام بيلو : ولماذا لم يعد سيدك •؟

ــ لان الدكتور جيلبر استبقاه معه ريثما يضع حدا للثورة ••

ــ ومتى تعتقد انه سيعود •؟

ــ هذا ما لا استطيع التكهن به ، ولكنه زودني بما يلزم من تعليمات •

وفهمت مدام بيلو مرمى الشاب • فصرفت الحاضرين •• واقبلت تصغي لتعليمات زوجها ••

وفي اقتضاب راح بيتو يطلع المرأة وابنتها على رسالة بيلو •• وتتلخص رغبة الاب في ان تقوم كاترين على شئون ابيها ابان غيبته في المزرعة والمنزل •

ولاحظ الشاب ان مدام بيلو قد امتقع وجهها •• فادرك ان عقرب الغيرة قد لدغها ، ولكنها لم تلبث ان قالت في صوت هادىء :

ــ حسنا • لتكن مشيئة رب الدار •

واحتضنت ابنتها ثم قبلتها •

وقال بيتو في تواضع : وانا على استعداد لان اعينها وارافقها اينما تذهب •• فالقت الفتاة على الشاب نظرة صارمة • واجابت :

ــ سيدي •• لست بحاجة الى حراسة احد •

فبدا الذعر على وجه الشاب • فراح ينقل بصره بين المرأتين وهو لا يصدق اذنيه ، وكأنما اشفقت الام على الشاب المسكين ، فقالت :

ــ لقد آن وقت النوم •• فهيا بنا •

وانطلقت بابنتها الى مخدعيهما تاركتين الشاب نهبة للشك والالم •

★ ★ ★

وفي الصباح استيقظ بيتو من نومه في ساعة مبكرة •• فلما حان وقت الافطار هبط الى المطبخ وتناول طعامه مع افراد البيت •

ولما فرغ الجميع من طعامهم ، بدأت مدام بيلو تسلم لابنتها عهدة الدار من متاع وماشية ومحصول وخدم •

وجمعت مدام بيلو الخدم واجراء المزرعة واعلنتهم برغبة سيدهم فـي احلال ابنته محلها •• في ادارة شئون المزرعة والدار •

ثم عانقت ابنتها ، وقبلتها في جبينها •

وشرعت كاترين توزع العمل على الجميع •• فلما انتهت ، تقدم منهـا بيتو وسألها في تواضع : وانا ما عملي •••

فاجابت : أنت ؟! ليست لدي اوامر اصدرها اليك •

ـ وكيف ذلك •• أأبقى هنا بلا عمل ؟

ـ وماذا تريد ؟

ـ اريد ان اقوم بالعمل الذي كنت امارسه قبل ذهابي الى باريس •

ـ كلا يا سيدي •• فانت رجل مثقف ، لا تناسبك اعمالنا الخشنة !

فصاح بيتو : يا الهي •• أممكن هذا !؟

فقالت كاترين :

ـ سيدي •• ارجو ان تقنع بالبقاء في المزرعة دون عمل •

وهزت كتفيها استخفافا •• ثم ولته ظهرها وهي تقول :

ـ انني ذاهبة الى لافريت ميلون •

فقال بيتو : حسنا •• سأذهب لاعداد جوادك •

ـ كلا • بل ابق هنا •

ــ هل ترفضين ان ارافقك في رحلتك ؟

فقالت في اصرار : ابق هنا !

ثم تركته وذهبت لتأمر الخدم باعداد الجواد .

وجمد بيتو في مكانه مأخوذا .. موزع القلب بين الغيرة . والشك .

★ ★ ★

صعدت كاترين الى غرفتها حيث صففت شعرهـا ، واستبدلت ثيابهـا باخرى انيقة .. ثم هبطت الدرج ، وامتطت صهوة جوادها .

والقت نظرة سريعة على الشاب .. ثم لكزت جوادها وانطلقت به في طريق لافريت ميلون ..

وتساءل الشاب المسكين وهو يشيعها ببصره .. عن الدافع لهـا على تغيير ملابسها .. واحس بقلبه يغوص بين جنبيه ، عندما خطر لـه خاطر جعله ينتفض من الغضب .. وحمله على تعقبها ..

وتسلسل من الدار في هدوء .. ثم اطلق ساقيه للريح .. واختفى في الغاب ..

وبعد ان عدا ما يقرب من العشر دقائق ، توقف .. ثم راح يطـل على الطريق العام .. ومضت عشر دقائق اخرى دون ان يرى اثرا للفـتاة .. فخيل اليه انها لا بد قد عادت الى المزرعة لامر ما ..

وعاد ادراجه الى فيلير كوتريث ، ولكنه لم يكد يصل الى تقاطع طريقين ، حتى رأى الفتاة تسير بجوادها خببا في طريق بورسون ..

فصاح وهو يعدو صوب الغاب مرة اخرى : يا الهي ! اذن فهي لم تكن ذاهبة الى لافريت ميلون وانما الى بورسون !

وطفق يعدو كالمجنون •• فلما اقترب من طرف الغاب ناحية بورسون توقف ريثما يلتقط انفاسه ••

وراح ينظر من خلال اغصان الاشجار ، فرأى الفتاة تجذب عنان جوادها على مسافة خمسين ياردة منه ، فانبطح على وجهه فوق الارض •• وراح يزحف كالثعبان ، حتى وصل الى بقعة يرى منها الفتاة ولا تراه ••

وفجأة ، صهل الجواد •• فعادت الفتاة الى امتطائه •• ولكزته في بطنه فانطلق بها يسابق الريح ••

ولم يلبث بيتو ان رآها تلتقي بفارس لم يستطع ان يتبين ملامحه لبعد الشقة ، فقفز واقفا على قدميه وهو ينتفض من الغضب ••

فقد عرف في غريمه ايزودور دي شارني •

ثم عاد فزحف على بطنه وسط الاعشاب ، حتى اصبح على قيد خطوات منهما •• وسمع الفتاة تقول : طاب صباحك يا مسيو ايزودور •

وترك الشابان اعنة جواديهما ليتصافحا •

واستطردت كاترين : لقد تأخرت اليوم يا عزيزي ؟!

فقال بيتو لنفسه : اليوم ! يبدو انه كان دقيقا في المحافظة على مواعيده قبل اليوم !!

واجاب ايزودور الفتاة قائلا :

ـ لم يكن الذنب في ذلك ذنبي • فقد وصلتني اليوم رسالة من اخي اضطررت الى الرد عليها ، ولكن لا تخشى شيئا فساعود للمحافظة على مواعيدي ••

فابتسمت الفتاة •• وسألت : اذن فقد وصلتك اخبار من باريس ؟

ــ نعم •• فاستطردت كاترين :

ــ وانا كذلك •• فقد عاد بيتو من باريس امس ••

ــ ومن يكون بيتو هذا ؟

ــ يالله ! انك تعرفه جيدا •• انه الصبي الفقير الذي آواه ابي في مزرعته •• وانت قد رأيتني اتوكأ على ذراعه في المرقص ذات مرة •

فقال النبيل الشاب : هذا صحيح •• اتعنين ذلك الشاب الذي تشبه فخذاه عقدتين كبيرتين ؟

وضحك •• وشاركته الفتاة الضحك •• بينما شعر بيتو بالدم يغلي حارا في عروقه •• فنظر الى فخذيه في اسى •• وتأوه •

واستطردت الفتاة : لا تهزأ من بيتو المسكين لانه صبي بائس ، هل تدري ماذا عرض علي الآن •

ــ كلا بالطبع •

ــ لقد عرض علي ان يرافقني الى لافريت ميلون ، ولكني رفضت بالطبع لانني لم اكن ذاهبة الى هناك •

وفجأة •• احتوى ايزودور الفتاة بين ذراعيه ، فاسرع بيتو يغمض عينيه ، ولكنه نسي ان يغلق اذنيه • فبلغ مسامعه صوت قبلة طويلة تبادلها العاشقان •

وعندما فتح عينيه مرة اخرى ، كان العاشقان قد ابتعدا عنه •

ونهض واقفا ، وهو يشعر بقلبه يتمزق ٠ وظل جامدا في مكانه وصدره مسرحا لانفعالات شتى ما يقرب من النصف ساعة ٠

وحينما رفع رأسه كان قد حزم امره على الا يعود الى المزرعة ٠ بعد ان رأى الفتاة التي تشغل كل حواسه وتفكيره بين احضان رجل اخر ٠

وانطلق في سبيله الى مسقط رأسه ٠

الفصل الخامس والعشرون

بيتـــو المتآمر

كانت الساعـــة العاشرة مساء عندما وصل بيتو الـــى فيلير كوتريث ، والسكون يخيم على المدينة بعد ان آب اهلها الى مضاجعهم مبكرين جريا على عادتهم .

ولم يجد بيتو مفرا من قضاء ليلته في فندق ولي العهد . فقصد اليـــه حيث تناول عشاءه في صمت ، ثم آوى الى فراشه .

وقضى شطرا كبيرا من الليل وهو يتقلب على جمر الغضى ، دون ان يزور النوم جفنيه .

وفي هدأة الليل الاخيرة . كان قد تغلب عليه الاعياء ، فاغلق عينيـــه واستسلم لنوم عميق .

وعندما غادر بيتو الفندق في صباح اليوم التالي اجتمع حوله كثيرون ظلوا يسألونه عما وصلت اليه الحالة في باريس . وهو يجيب على اسئلتهم دون ملل .

واقترح البعض على بيتو ان يقيم في قريتهم المتواضعة . وتقدم عملاق

من الشاب ، وعرض عليه ان يؤجر له غرفة مؤثثة في منزله بأجر زهيد •
فقبل الشاب على الفور •

وتغلبت الحماسة على بيتو وهو يقص ويكرر حوادث باريس على الاسماع ، فدعا اهل هارامونت الى التمثل باهل باريس في القضاء على الاشراف وحقوقهم •

وسرت الحماسة الى نفوس القرويين سريان النار في الهشيم• فراحوا يهتفون ويصفقون استحسانا •

وبذلك اشعل بيتو نار الثورة في تلك القرية الآمنة •

★ ★ ★

واستيقظ بيتو من نومه في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي •• وفيما كان ينهض من فراشه ، رأى اشباحا كثيرة خلف نافذته •

فقام اليهم وقد علت شفتيه ابتسامة عريضة وسألهم عما دفعهم الى الحضور اليه في تلك الساعة المبكرة •

وتقدم قاطع اخشاب يدعى كلود تلبيه من بيتو وقال :

ــ لقد قضينا ليلة الامس ونحن نتبادل الرأي فيما قصصته علينا وخرجنا من مناقشتنا اخيرا بان الواجب يقضي على جميع المواطنين بان يهبوا لخدمة الحرية •• بيد اننا ــ مع الاسف ــ لا نملك سلاحا •

فاجاب بيتو : بل لقد كانت هناك خمس بنادق عندما غادرت القرية لاخر مرة • فقال كلود : لم يبق من هذه البنادق الخمس غير اربع •

ــ حسنا •• وهذا يكفي لتسليح خمسة رجال ••

ـ وكيف ذلك ؟

ـ ذلك ان واحدا من كل خمسة يجب ان يتسلح برمح لنتوجه برأس الضحايا كما يفعل الباريسيون .

ـ ولكن اين هذا السلاح ؟

فاجاب بيتو في هدوء :

ـ انه في احدى غرف مدرسة القس فورتبيه . اذ ان مجلس المقاطعـة يحتفظ فيها بمائة بندقية .

فقال شاب اسمه ديزيريه لانكويه : وهل تقبل ان تتزعم حركتنا كـي ننشىء حرسا اهليا مثل حرس باريس ؟

فتردد بيتو قليلا ، واول بعض الحاضرين تردده الى الجبن .. وقالوا :

ـ ها انت ترى انك غير جدير بقيادة الرجال مثل لافايت الذي حدثتنا عنـه .

فأطرق بيتو برأسه الى الارض .. ثم عاد فرفعها وقال :

ـ لقد قبلت ان اكون قائدكم .

فقال كلود : اذن فستتزعـم حركتنا غدا عندمـا نهاجم مدرسة القس فورتبيه للاستيلاء على السلاح ..؟

ـ نعـم ..

وانصرف المتآمرون على أثر ذلك .. وآوى بيتو الى مخدعه وهو لا يدري ان ابواب المجد قد تفتحت امامه .

الفصل السادس و العشرون

بيتــو قائد

قضى بيتو طول ليلته يفكر في الشرف العظيم الذي اولاه اياه سكان هارامونت •• فلما اصبح الصباح انطلق من فوره الى فيلير كوتريث لمقابلة القس فورتييه بالنيابة عن اهل القرية ومطالبته بتسليم ما لديه من بنــادق لانشاء فرقة من الحرس الاهلي بقرية هارامونت •

ولما بلغ الشاب منزل القس القى جيلبر الصغير منهمكا في استذكــار دروسه • فحياه وعانقه •• ولبثا يتحدثان فترة من الوقت قبل ان يصل الى سمعهما صوت يقول من خلفهما : من هناك يا سباستيان ؟

دار انج على عقبيه ورفع خوذته يحي استاذه القديم •

وافلتت من شفتي القس صرخة تدل على الدهشة • وهتف :

ـ يا الهي ! هوذا بيتو ثانية ••

فاحنى بيتو قامته في خيلاء •• وقال : اجل • وفي خدمتك يا سيــدي

فهز القس رأسه عدة مرات •• ثم قال : ولماذا جئت ايها الثائر التعس؟!

فتميز بيتو غيظا ، ولكنه تمالك هدوءه •• وقال :

ـ سيدي •• لقد قدمت اليك موفدا من اهالي هارامونت لاسألـك باسم الثورة ان تسلمنا ما لديك من سلاح ، كي ننشيء فرقة مـن الحرس الاهلي في المدينة •

فاحتدم القس وصاح : أمجنون انت ؟ اتريدني على ان انزل لكم عن مخلفات نفيسة لبعض مواقع حربية هامة •

حاشاي ان ارتكب تلك الحماقة •• اما انت ايها التعس فاغرب عـن وجهي والا حطمت رأسك ••

وتطاير مـن عيني القس شرر الغضب ، وتقـدم من الشاب مهـددا متوعدا ، فاسقط في يد بيتو ، وادرك انه فشل في مهمته ••

ورجع القهقرى عندما رأى القس يتناول قضيبا من حديد ••

وبالرغم من ان بيتو ، قد دار على عقبيه في حركة سريعة ، ونفذ مـن البـاب الخارجي ، الا ان القس استطاع ان يصيبه في كتفه بضربة قويـة آلمته ••

وحقد بيتو على القس •• حقدا جعله يصمم على انتزاع الاسلحة مـن القس وانفه راغم •

وخطر له ان يكتب لصديقه بيلو في هذا الشأن ليتصل بالجنرال لافايت ويعرض عليه فكرة بيتو في انشاء حرس اهلي بقرية هارامونت ويأمر القس العنيد بتسليم ما لديه من الاسلحة له (اي لبيتو) •

وفعلا جاء بقلم وورقة وكتب :

« عزيزي المحترم مسيو بيلو •

« لقد اثمرت اول نواة للثورة في المقاطعة بسرعة مدهشة •• ولذلـك اعتزم اهل هارامونت انشاء فرقة من الحرس الاهلي •• بيد انهم يفتقرون

الى السلاح • ولما كنت واثقا ان بالمدينة رجلا يحتفظ بكمية كبيرة منه فارجو ان تتصلوا بالجنرال لافايت ليصدر امره بتسليم هذا السلاح •

« وانني لفي انتظار اجابتكم لتنفيذ هذا الامر على الفور » •

صديقك وخادمك

انج بيتو

★ ★ ★

ولم يطل انتظار بيتو ، فقد جاءه الرد في صباح اليوم التالي مع رسول خاص :

« على كل شخص يملك اكثر من بندقية واحدة ان يقدم الزيادة الى رؤساء فرقة الحرس الاهلي في المقاطعة كلها » •

وكان هذا الامر موقعا من الجنرال لافايت ، وموجها الى : « المواطن انج بيتو قائد الحرس الاهلي في هارامونت » •

والتفت بيتو الى من حوله من القرويين وقال :

ــ لقد اصدر الجنرال لافايت امره بتعييني قائدا للحرس الاهلي في المدينة •• كما عينكم جنودا به •

فدوت الاكف بالتصفيق ، وارتفعت الاصوات بالهتاف ، واستطرد انج :

ــ انني اعرف اين يمكننا ان نجد السلاح •! بيد انني اريدكم اولا على ان تختاروا وكيلا لي ومساعدا آخر من بينكم •• فهيا تشاوروا في الامر واخبروني بالنتيجة •

★ ★ ★

وبعد بضع دقائق اعلن المجتمعون انهم اختاروا كلود ومانيكيه للقيام باعباء الوكيل والمساعد .

وعلى اثر اعلان تلك النتيجة قال بيتو :

ـ اذن هلموا بنا الى فيلير كوتريث للحصول على السلاح .

وانطلق الشاب مع مساعديه الى منزل القس فورتييه .



الخاتمة

كان الاب فورتييه جالسا في حديقة داره يتحدث الى سباستيان عـن الثورة ومساوئها •

وفجأة سمع القس طرقا عنيفا على الباب ، فاسرع احد الخدم وفتحه• ومن ثم دلف حاكم المقاطعة واحد الكتبة يتبعهما عدد من رجال الجندرمة وآخرون يمتازون بغرابة منظرهم •!

وتقدم القس من الحاكم وسأل في دهشة : ماذا حدث يا مسيو لونبريه•

ــ هل سمعت بأمر وزير الحربية يا سيدي •؟

ــ كــلا •

ــ اذن تفضل واقرأ هذا ••

وقدم اليه رسالة لافايت •

وما ان قرأ الكاهن الرسالة حتى امتقع وجهه • وهتف : حسنا •!

فقال الحاكم : سيدي ! ان فرقة الحرس الاهلي بهارامونت تطالبـك بتسليم ما لديك من سلاح •

وبرز بيتو من بين القادمين وتقدم من القس • وقال :

ــ سيدي • بصفتي قائد فرقة الحرس الاهلي في هارامونت اطلباليك باسم الثورة ان تسلمني مفتاح متحف السلاح ••

فغلى الدم في عروق القس •• وخيل اليه ان ينقض على رأس هـذا الشيطان ويحطمه • ولكنه صاح :

ـ لا اعتقد انك ترغمني على تسليم متاع غيري من الناس ••

ـ ماذا تعني يا سيدي ؟

ـ اعني ان محتويات المتحف هي من ممتلكات دوق اورليان •

فقال بيتو في غضب : مهما يكن من امر • فان الـدوق لا يضيره ان يتنازل عن السلاح الموجود بالمتحف لافراد الشعب ••

فاسقط في يد القس ، وامتدت يده بالمفاتيـح دون ان ينبس ببنـت شفة ••

وانطلق بيتو ومساعداه الى المتحف حيث استولوا على اربع وثلاثـين بندقية •

★ ★ ★

وانقضت الايام تباعا •

وفي صباح احد ايام شهر نوفمبر • كان بيتو يستعرض احدى فـرق الحرس الاهلي في هارامونت •

وكانت كاترين وامها بين النظارة •• فلما انتهت التدريبـات وسط تصفيق الاهالي وحماستهم •• اقتربت الفتاة من القائد والشاب وأومـأت اليـه برأسها دلالة على رغبتها في التحدث معه •

وركض قلب بيتو بين ضلوعه واسرع الى الفتاة •

وفي الطريق الى مزرعة الاب بيلو •• التفتت كاترين الى انج وقالت :

ـ الواقع انك خليق بالتهنئة لما وصلت اليه من مجد وسؤدد •

فاحمر وجه بيتو خجلا • وقال :

ـ مهما يكن من امر فانني مدين لابيك بكل هذا •

فاسرعت الفتاة تقول :

ـ وبهذه المناسبة • لقد ارسل اليك ابي هذه الرسالة •

واخرجت من جيبها غلافا قدمته لبيتو •

وفض الشاب الغلاف •• وقرأ الرسالة التالية :

« عزيزي المواطن بيتو

« اكتب اليك هذه الرسالة وانا اتهيأ لمغادرة باريس بعد التطـورات السريعة الاخيرة فقد اعدم الملك والملكة واطفالهما • وغدت باريس اتونـا من نار •

« صديقك بيلو »

فانقلبت سحنة بيتو •

كانت هذه هي النتيجة المنتظرة للحوادث التي اتصل به نبؤها وهو في (هارامونت) عن اعتقال الاسرة الملكية وسجنها • ومحاكمتها •

غمغم بلهجة الفلاسفة : لقد التهمت الثورة كل شيء •• وستبدأ الآن في التهام ابنائها ••

واخيرا قالت الفتاة في صوت عميق : كم هي مزعجة تلك الثورة •• فقد رحل ايزودور دي شارني الى باريس حيث استدعاه اخوه الكونت •

وامسكت عن الكلام لحظة •• ثم استطردت :

ـ من يدري ماذا يخبىء له القدر !!

فهز بيتو رأسه •• وسكت •

ـ تمـت ـ

الفهرس